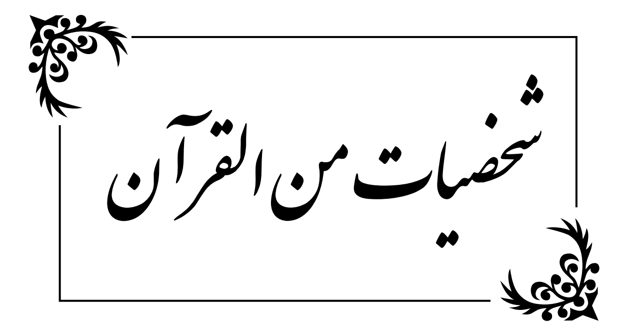

شخصيات من القرآن

شخصيات من القرآن

مقدمة

كنت دوما ولازلت معتقدا بمحورية الوحي وضرورته الحتمية في تكوين الشخصية المسلمة بشكل سوي مستقيم

ليس فقط لما يحويه ذلك الوحي من دلالات على الخير وسبله وما يتضمنه من توجيه لكل ما ينفع الناس جنبا إلى جنب مع نهيهم عما يضرهم تنفيرهم مما يؤثر سلبا على حياتهم في الدارين العاجلة والآخرة وكذلك ما يبينه من حقائق هاتين الدارين والميزان المنضبط الذي به تستقيم النظرة لكل منهما؛ ولكن تأتي الضرورة التي أقصدها لسبب إضافي في غاية الأهمية ولخاصية متفردة يتمتع بها الوحي العظيم تجعل له هذه المحورية الواضحة

خاصية يطيب لي أن أسميها «النماذجية»

إنها تلك القدرة على إقامة النماذج الحية وطرحها ظاهرة جلية بين يدي المطّلع على الوحي

تصوير شامل ومتكامل تبرز من خلاله ملامح واضحة تمام الوضوح لشخصيات يحتاج الإنسان لأن يقف أمامها طويلا

شخصيات قد يجد المرء نفسه وهو يطالع ملامحها كأنما يتأمل

انعكاسا لصورته في مرآة

أو الملامح التي كان يتمنى أن تكون هي ملامحه في تلك الصورة

بهذه الخاصية العجيبة يتمكن القرآن بحيوية لا تجد نظيرا لها من تشكيل ملامح الشخصية المسلمة

فقط إن قرر صاحب تلك الشخصية أن يقف متدبرا متأملا للنماذج التي يعرضها عليه

كثيرا ما تكون تلك النماذج مطلقة غير معينة أو محددة فلا نعرف لأصحابها اسما ولا وسما ولكن نعرف خصالهم وطبائعهم ولقد أفردت لتلك الطريقة كتابا كاملا تم نشره في العام قبل الماضي سميته أنماط وفيه استعرضت كثيرا من تلك النماذج غير المعينة وركزت فيه على أمثلة السوء وحسب فلم أستعرض خلال صفحاته نموذجا إيجابيا واحدا وذلك عن قصد مني ورغبة في بيان محدودية التسمية في القرآن حين يأتي ذكر نماذج الباطل

قصد ورغبة في بيان حقيقة كون المعركة الرئيسية للمصلحين هي مع الخلل نفسه والمبتغى الرئيسي هو بيان زيفه وبطلانه بإطلاق واطراد ثم محاولة إصلاحه بشكل عام وشامل يناسب الحاضر والمستقبل قبل الانشغال بتفاصيل آنية وأعيان فانية

كم مرة ذُكر في القرآن كافر باسمه؟

وكم مرة عُين منافق بلقبه؟

وكم مرة أُخبر عن فاسق أو فاجر بنَسَبه؟

وما نسبة ذلك لذكرهم بصفاتهم وأفعالهم وقبيح أعمالهم؟

إبليس.. فرعون.. هامان.. قارون.. أبو لهب.. السامري

هؤلاء تقريبا هم من ذُكروا من أهل الباطل بأعيانهم في القرآن

أضف إليهم إن شئت بعض الآيات التي وردت حولها روايات تذكر كونها نزلت في شأن أناس بأعيانهم كالنمرود وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة وبرصيصا العابد المنتكس وبلعم بن باعوراء الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها

لكن هؤلاء لم يذكروا بأسمائهم لتظل الآيات التي تحدثت عنهم على إطلاقها ولتبقى صالحة لتطبيقها وقياسها على كل من سار على ذات النهج وتنمط بنفس النمط السلوكي

هذا طبعا بخلاف الآيات التي تحدثت عن أقوام بمجملهم كقوم عاد وثمود وبني إسرائيل والسحرة وغيرهم

لكن حتى هذه النماذج المعدودة التي ذُكرت بأسمائها أو تحدثت عن أشخاص معلومين = يعد أصحابها رؤوسا وأمثلة لأنماط بشرية معروفة

وهنا تبرز فكرة النماذجية التي أتحدث عنها

قارون على سبيل المثل يعد نموذجا لذلك الغني المستكبر بماله المغتر بعلمه وثرائه

وفرعون يعد نموذجا لنمط المستبد المتسلط والطاغية المتجبر

وهامان نموذج لحاشية السلطان الجائر التي تطيعه في كل باطل وتمهد له كل منكر

وبنو إسرائيل نموذج للتمرد والعصيان وسوء الأدب مع الله ورسله

وهكذا..

تجد الأصل في النماذج المذكورة أنها تصلح بشدة لجعلها معيارا لقياس الأنماط السلوكية الشبيهة في كل زمان ومكان

هذا بالنسبة لنماذج الباطل وأهله

في المقابل تكثر النماذج المعينة لأهل الحق وحملة الضياء المحددين والمعروفين بأعيانهم

وكأنها لوحة شرف نورانية خلدت ذكر الصالحين عبر الأزمان ووجهت رسالة لكل من يمر مفادها: دونك الأسوة والعبرة والمثل = فبهداهم اقتده

الصدِّيقون والصدِّيقات والصالحون والصالحات

آسية امرأة فرعون

مريم ابنة عمران

وأمها

وأم موسى

ووليدها عليه السلام

وسائر النبيين والمرسلين الذي ذكروا إجمالا وتفصيلا بين دفتي المصحف

كل هؤلاء عُيِّنوا بأسمائهم وعرفوا بشخصياتهم

وهذه الشخصيات أيضا تنطبق عليها قاعدة النماذجية التي أتحدث عنها

أما الأنبياء والمرسلين فلست بحاجة لبيان ما هو جلي لكل من يتدبر قصصهم في القرآن وكيف جعل الله سيرهم ومواقفهم مشعل هداية واقتداء لكل من طالعها

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام ٩٠]

إنها نماذج تحوي العبرة والموعظة والذكرى وتعين كل سالك إلى الله على الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وأما نماذج الصالحين والصالحات من غير الأنبياء فقد كثرت أيضا في القرآن كما أسلفت

ولعل كثيرا من طالبي التغيير للأفضل من خلال المنظومة النماذجية للقرآن قد يجدون أثرا مختلفا لهذه النوعية الأخيرة تحديدا

إنها نماذج لشخصيات غير معصومة

أناس – على فضلهم – ليسوا بأنبياء ولا مرسلين يثبتون من خلال مواقفهم أن الأمر ممكن وأن سلوك سبيل الحق يسير على من يسره الله عليه

بعد رؤية ما فعله السحرة عند توبتهم وإسلامهم وبعد تأمل موقف الرجل المؤمن الذي وجد لنفسه دورا في الدعوة مع وجود ثلاثة أنبياء في زمانه وعند مطالعة ما صدع به مؤمن آل فرعون مع وجود موسى وهارون عليهما السلام وعند تدبر ثبات امرأة فرعون رغم فساد البيئة التي يحيطها بها زوجها الطاغية وعند مشاهدة صمود أصحاب الكهف رغم المغريات والفتن = لا مجال بعد كل ذلك

لتلك الحجج التي يصدرها كل عاجز حين يدعى لامتثال منهج الوحي في حياته

حجة عدم الاستطاعة

حجة ضعف النفس

حجة الافتقار إلى العصمة

باختصار جامع حجة كوننا لسنا أنبياء

لذلك تحديدا ولأن النماذج النبوية والسير الرسالية من الوضوح بمكان ولأنها أيضا نالت قسطا وافرا من المدارسة والتدقيق في مصنفات أخرى = فقد اخترت في هذا المصنف الذي بين يديك أخي القاريء أن تكون النماذج التي اخترتها في غالبها من غير الأنبياء اللهم إلا استثناء بنبي واحد وهو داوود عليه السلام

ستجد تلك النماذج بالتبادل مع نماذج السوء هي التي اخترت إلقاء الضوء على ملامحها في فصول هذا المصنف الذي بين يديك أخي القاريء والذي عنونت له بذات الكلمة التي أشرت أن المسلم بحاجة لتأملها

كلمة ملامح

حاولت من خلال سطور هذا الكتاب أن أبرز شيئا من ملامح

وصفات الشخصيات التي ورد ذكرها في كتاب الله وجعلت ذلك بالتبادل مع شخصيات خيرة ينبغي الاقتداء بها وأخرى مبطلة ينبغي تجنب سبيلها بعد استبانتها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام ٥٥]

غالب من اخترت استعراضه في هذا المصنف محدد ومعين إلا استثناء واحدا بشخصية اعتبارية ختمت بها الكتاب في أطول فصوله وهي التي وجدت خصالها تجتمع وتتضافر في عشرات الآيات لترسم صورة متكاملة لشخصية من أخطر الشخصيات وأوسعها انتشارا في كل زمان ومكان

شخصية المنافق

أما عن الاستثناء الآخر بنبي الله داوود عليه السلام فقد وجدت نفس كأنما أدفع إليه دفعا كلما تأملت الطرح القرآني والتفصيل النبوي لهذه الشخصية الفريدة

وجدت أنني أمام نموذج للتوازن بين الدين والدنيا وبين العبادة والعمل وبين الصلاح والإصلاح وذلك وإن كان مشتركا في كل الأنبياء إلا أن بيانه في شخصية داوود كان مختلفا ولعلي في مصنفات قادمة إن شاء الله أستدرك ما فاتني من تأملات في شخصيات باقي الأنبياء

لكن إلى أن يأذن الله بذلك أكتفي بهذا الجهد وإنه لجهد مقل وأسأل الله أن يباركه ويتقبله وأن يجعله معينا لمن أراد أن يتغير للأفضل من خلال تأمل خصائص شخصيته وقياسها على تلك النماذج لعله يجد بعد ذلك في نفسه من شخصيات القرآن...

بعض الملامح..



١. فرعون

لقد كان فرعون نموذجا مثاليا لتحول الظلم والاستبداد والطغيان إلى سجايا وطباع وخصال تمتزج بروح ونفس الظالمين حتى تصير بعد حين حقا مكتسبا يراه مقترفوه شيئا طبيعيا للغاية ويتعجبون جدا من تلك الأصوات (النشاز) التي تستنكره وترفضه

إن الظالم لمستبد بعد هذا الامتزاج والتحول الكامل يتعامل مع الأشياء بمنطق القوة وحسب

وهذا ما حدث لفرعون..

إنه شيء يشبه الحياة البرية في الأحراش والأدغال البدائية حين يبسط الحيوان نفوذه من خلال القوة ويصير متسلطا على باقي القطيع الذين يرهبونه لقوته ووحشيته

في تلك الحالة لا يعتبر ذلك الوحش تسلطه أمرا يستدعي تعجبا أو دهشة ولا يتصور أن أحدا يمكن أو يحق له أن ينكر عليه حقه في التحكم بمجريات القطيع

هذه هي ذات النفسية التي يتعامل بها المستبدون الذين تغلغل في نفوسهم الاستبداد والتيه بالقوة والجبروت حتى لم يعد الفساد في أنظارهم فسادا ولا الظلم ظلما بل هم أثناء ممارسة كل ذلك لا

يجدون أدنى غضاضة ولا يشعرون أصلا أنهم يأخذون أكثر من حقهم الذي يعد الناس وكل حقوقهم = جزءا يسيرا منه

جزء من حق المستبد في الحياة

بل ربما تكون الدهشة والتعجب من أولئك الذين يرفضون الرضوخ ضمن القطيع لذلك الحق البديهي الذي آمن فرعون إيمانا راسخا بأنه له ومن ثم كان تعجبه من أولئك الذين لا يخضعون لسطوته ولا يقبلون بألوهيته ولا يستسلمون لاستعباده الناس وتسخيرهم لرفاهيته فتجده يتساءل في استنكار مندهش تساؤلا يكشف لك عن تصوراته المتأصلة بأن ما يفعله هو حقه الطبيعي تماما ضمن تلك التركة التي قرر أنها بكل ما فيها ومن فيها = ملكه وتحت تصرفه

نعم ببساطة هو يتصور أن آحاد الرعية وأهلهم وأرضهم وأموالهم وأموال آبائهم بل وآباءهم أنفسهم = ملكيات خاصة له وميراث مسخر لإسعاده

إنه يتساءل تساؤلا جامعا يكشف لك عن حقيقة تلك النفسية المتسلطة التي تشربت الأمر حتى النخاع حتى قالت بكل بديهية:
﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟!

إنه إذن حقي الطبيعي وإرثي الفرعوني..

فمما تعجبون وعلى ماذا تعترضون؟!

غريب أمركم حقا!!

وحين يصير استعباد الخلق = حقا طبيعيا راسخا ويتحول إلى أسلوب حياة لا تشوبه شائبة ندم أو أدنى إحساس بوخز ضمير تسببه تلك الجريمة فإن الأمر يتطور ولا يقف عند هذا الحد

وهذا ما حدث لفرعون

لم يكتف باستعباد الناس واعتبار ذلك حقه الطبيعي الذي تكفله له قوته ويؤهله إليه ملكه والأنهار التي تجري من تحته

بل تمادى حتى جعل ذلك الاستعباد نعمة ومنة يمُنّ بها على من استعبدهم وأذلهم

والحق أنه لم يجرئه على ذلك إلا تلك النفوس الذليلة التي لم تستطع أن تقول له يوما: لا

لهذا انطمست في نظره حقيقة ما فعل فصدق أنه إله يعبد بل واعتبر ذلك الإذلال هو محض امتنان منه على الناس وكفاهم فخرا أنه ربهم الأعلى

وطالما لم يجد من يعارض زعمه أو يرفض إذلاله وبغيه فليفعل إذاً ما بدا له

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

كانت هذه الجملة صادمة التي صدع بها نبي الله موسى في وجه كاشفة حاسمة تبين ظن فرعون واستخفافه بالخلق

لكن هل كان هذا الظن والامتنان = محض خيال من فرعون؟!

لا وألف لا

لقد ساعده من استخفهم على ترسيخ ظنه

أولئك الذي يرون الاستعباد منّة ويعتبرون الإذلال نعمة فيفخرون بمُذليهم ويمتنون لمستعبديهم ويرقصون طربا لمنتهكيهم وساحقيهم

فإن وُجدوا وفعلوا فماذا تنتظر من فرعون إلا أن يمن عليهم بتلك النعمة العظيمة التي فرحوا بها؟!

نعمة الاستعباد

وبالتالي سيزداد هو علوا

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

ولم يكن فرعون ليعلو في الأرض لمجرد إرادته ذلك العلو أو تصوره أنه يستحقه

ثمة خطوات واضحة واستراتيجية ناجحة من دونها لم يكن فرعون ليصير طاغية يملأ مركزه التاريخي الذي عرف به

أولا التفريق وبث الانقسام.

ثانيا استضعاف طائفة منهم وليس كلهم.

ثالثا القتل والإذلال.

رابعا الإفساد في الأرض.

هذه هي الخطوات التي التزم بها فرعون حتى صار (فرعونا)

أولى تلك الخطوات كما سبق وأشرت = التفريق

بث الانقسام

فرق تسد

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾

أحزابًا متناحرةً وفرقًا منقسمةً يبغض بعضها بعضًا وينشغل بعضها ببعض

ومن خلال التفرق والتشرذم والتنازع الذي هو أول طريق الفشل يخلو الجو لفرعون ويضمن استمرار كونه الأقوى بين تلك الشيع المتحاربة التي يضعف بعضها بعضًا

لذلك سيحرص الفرعون دوما على استمرار الانقسام وترسيخ الكراهية المتبادلة بين أبناء الشعب والتي تجعل أولويات العداوة والبغضاء بينهم بعضهم البعض وليست بينهم وبينه حتى لو كان يذلهم ويبطش بهم جميعًا

ثم يأتي دور الاستضعاف

وفرعون يحرص على استضعاف بعض الطوائف التي تشكل خطورة على استبداده وترفض طغيانه أو حتى يمكنها أن ترفضه مستقبلًا

لكنه لا يستضعف الجميع بل البعض وليس الكل

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾

وفي ذلك فوائد حيث يزيد ذلك التفريق في المعاملة من ترسيخ كراهية المستضعفين المظلومين للآخرين الذين لم يستضعفوا وأيضًا يزيد من حرص الذين لم يستضعفوا على مزيد من التملق والنفاق أو الانبطاح والسكوت عن ظلم الطاغية حتى لا تزول عنهم امتيازاتهم ويضمهم الطاغية إلى قوافل المستضعفين

والاستضعاف له أشكال مختلفة ويحرص المستبد على ترسيخ قاعدة من الخوف لا سقف لها فـ...

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾

إنه بذلك يرسل رسالة ضمنية أنه قادر على الأسوأ وأنه حتى الأطفال والنساء لم ولن ينجوا من قبضته الباطشة وتنكيله البغيض فما بالك بغيرهم؟!

ثم تأتي الخطوة الثالثة

الإفساد

يعد الإفساد في الأرض من أهم أهداف فرعون وغرضه من ذلك

= الإلهاء وبث روح الغفلة بين الناس لكن ينسوا ما يلاقون من الآلام والظلم عن طريق الإغراق في الشهوات والملذات وتيسير الملهيات والمفسدات التي تنشىء جيلًا ضعيفًا غافلًا لا يعني إلا بشهواته ولا يعرف شيئًا عن قضايا أمته

لكن كل هذا المكر قد يبور من خلال آخر وسيلة يمكن توقعها

ربما تبدأ النهاية بمشهد رضيع لا حول له ولا قوة

مشهد تلخصه الآية التي تلي ذلك الذي ذكرناه

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

وفي هذا المشهد كانت البداية

بداية المن

والفتح

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

أن يصل الجبروت والطغيان لدرجة تجعل والدة تقدم على إلقاء رضيعها في اليم

أن تصير الأمواج والتماسيح أرحم من بطش فرعون وجنوده

أن يصبح الملجأ والملاذ الوحيد هو المغرق العميق ويصير الإبقاء على الرضيع في حضن أمه = حلما بعيد المنال

كل ذلك يلخص لك المدى الذي بلغه فرعون

لا توجد خطوط حمراء أو ممنوعات

هاهو يثبت من جديد أنه وجنوده الغلاظ لا يتورعون عن شيء مهما فحشت قسوته

حتى هذا المشهد الذي يستجلب الرحمة إلى أغلظ الأفئدة – مشهد الأم تضم وليدها – لن يحرك في قلوب الفراعين شيئا ولن يمنعهم من انتزاع الغلام وإثكال أمه بأبشع وسيلة

الذبح

رضيع يذبح!!

وما الجديد؟

قد فعلوها مع غيره وكادوا يفعلونها معه وسيفعلونها مع من بعده دون أن يطرف لهم جفن

لا شك إذا أن الأمواج العاتية والتماسيح الضارية سترجح كفتها إذا قورنت بهؤلاء

ستكون أرحم بالرضيع منهم خصوصا إذا حفها الوعد والتطمين الرباني

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

ولقد فعلت

وألقته في اليم

ونجا من فرعون

بل جعل الله ذلك الأخير وآله سبب نجاته

﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ ﴾

وألقيت عليه المحبة الربانية وتمكنت تلك المحبة من قلب الصالحة آسية امرأة فرعون

﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وبذلك نجا الرضيع ولم يضره اليم ولا أمواجه ومخلوقاته

لكن يظل الموقف شاهدا على تلك القسوة والغلظة التي يندر أن تجدها إلا لدى فرعون وهامان ومن سار على نهجهما

﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾

ورغم أن فرعون كان قد قبل مطلب زوجه وأبقى على موسى في بيته إلا أن ذلك على ما يبدو لم ينسه ولا الملأ من حوله حقيقة موسى أو يجعلهم يتقبلونه كواحد منهم أو ابن لهم كما يزعم بعض المؤرخين

بل لقد ظلت نظرتهم العنصرية له موجودة تنتظر اللحظة المناسبة لتظهر على السطح وتتم الإطاحة به عند أول فرصة

لعل الدليل الواضح على ذلك هو تآمرهم السريع وقرارهم الحاسم بقتله بعد مقتل المصري بوكزته

﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

لو كان موسى فعلا يعامل معاملة الأمراء أو كان فرعون يعتبره بمثابة ولد له ولو بالتبني فإن رد الفعل المتوقع تجاه الأمير إذا أخطأ لم يكن أبدا ليصل إلى درجة المسارعة بالقتل

قتل دون محاكمة أو بحث أو سؤال عن ملابسات الحادثة

فقط القتل هو ما يعرفونه تجاه من يستضعفونهم

وحتى لو أن المؤامرة كانت من طرف الملأ وحدهم دون إذن فرعون فإن غضبة هذا الأخير المتوقعة لو كان يأبه بموسى أو يهتم بأمره = كانت لتمنعهم عن الإقدام على قتل الأمير المتبنى

لكن الظاهر أنهم قد أمنوا العقوبة وعرفوا حقيقة مشاعر فرعون تجاه موسى

إنه لم ينس أبدا أنه غلام من بني إسرائيل

غلام نجا من الذبح بسبب المرأة التي رقت له لكن يظل في نظر فرعون من طائفة أخرى وطينة مختلفة

لذلك لن يرق له حتى لو قبل على مضض أن يربى في قصره

وسيعلم الجميع هذه الحقيقة التي جرأتهم على التخطيط لقتله مباشرة دون تحقيق أو مساءلة

وكذلك يفكر ملأ الطواغيت دوما تجاه من يرونهم أدنى منهم أو يختلفون عنهم

إنها النظرة العنصرية المعهودة التي رسخها فرعون بتقسيمه القوم لشيع وفرق بعضها له قيمة وثمن ودِيَّة

وبعضها لا شيء له على الإطلاق

لا شيء إلا الاستضعاف

﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾

كان هذا الأمر الرباني هو ما تلى الأمر بإقامة الصلاة والعبودية والتقديس لله رب العالمين

وجه الأمر لموسى عليه السلام مقترنا بعلته ومُزَيَّلا بفتنته

الطغيان

مجاوزة الحد

كل حد

الطاغوت هو من تخطى وتجاوز حاجز العبودية أولا ثم باقي الحواجز من إنسانية ورحمة وشفقة وعدل إلى آخر القائمة المعروفة

وهذا هو أهم ما ميز شخصية فرعون وترسخ في ذهن كل من عرفه وتعامل معه أو سمع به

فرعون طاغية لا توجد حدود أو حرمات يتورع عن تجاوزها دون أن تهتز في جسده شعرة

ولقد ترسخت تلك المعلومة للدرجة التي جعلت موسى يصرح بخوفه وأخوه من ذلك الطغيان المعلوم

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾

من القائلان؟!

من المتحدثان عن الخوف؟!

إنهما نبيان مكلمان أحدهما رسول من أولي العزم ومن أقوى الخلق في الحق

نعم...

فالخوف شعور معتبر خصوصًا ماكان منه جبليًّا وهذا ما حرص فرعون على تعظيمه وإذكائه ومده بمزيد من وقود الطغيان والبطش الرهيب ليحاول -بغرس وترسيخ الخوف- كسر همة كل من يعترض على هذا الطغيان

لذا فقد كان هذا الخوف السريع المتبادر لصدر موسى وهارون = مسببا منطقيا

إنهما يعرفانه كما يعرفه كل من عاصره وتأثر بترسيخه لهذا المبدأ الخوف

الخوف من أن يفرط عليهما أو أن يطغى

تلك هي عادته وهذه هي سجيته

وكل من كان مثله وعلى نهجه

لذا خاف هارون

وخاف أخوه الكليم نفسه في هذا الموقف وخاف من قبل هذا الموقف بسنوات حين خرج منها ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾

وبعدها سيتوجس موسى في نفسه خيفة حين يجمع فرعون كيده وسحرته

كل هذا شعور إنساني طبيعي وفطري أدرك موسى وهارون كما أدرك غيرهما من الصالحين في مواجهة فرعون وأشباهه فليس كل خوف = جبنا وليس كل خائف = خوارا

المهم هو كيف تعاملوا مع خوفهم وروضوه وأحسنوا توجيهه ولم يرضخوا لرغبة فرعون في إذكائه وترسيخه وتعميقه حتى يسيطر على كل فعل ورد فعل فيصير خوفا متجذرا في أعماق النفس ومتغلغلا في ثنايا الروح وما أشبهه حينئذ بالنوع الأخطر من الخوف

الخوف الذي ينبغي ألا يوجه إلا للقوي سبحانه وحده ليطرد كل خوف من مخلوق مهما بلغ طغيانه وجبروته

الخوف التعبدي

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٧٥]

ولقد ذهب موسى كما أمره الله..

لكن ذهاب موسى لم يكن لفرعون وحسب كما قد يُظَن

إن فرعون كان الرمز الأوضح والعنوان الأجمع لتلك المنظومة

لكن الحق أن فرعون لم يكن وحده

دائما لم يكن فرعون وحيدا

دوما كانت حوله أذرع سلطانه وفروع جبروته

دائما كان هناك الملأ.. الآل.. الجند..السحرة

وكان هناك ذراعي القوة والمال

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

من الذين قالوا؟!

إنهم من مثلوا ذلك المثلث الرهيب ذي الأذرع الثلاثة الباغية

ذراع السلطة متمثلا في فرعون

وذراع المال الذي استحوذ عليه قارون بجدارة

ثم ذراع النفوذ والتخطيط والتنفيذ وهو ذراع هامان

واهم من يظن أن الخلل كان قاصرا على فرعون أو أن الصراع كان معه وحده أو أنه فقط من مثل الطغيان دون شريك

إن الآية في غاية الوضوح

لقد أرسل موسى عليه السلام إلى الثلاثة معا

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾

وإن أحد هؤلاء الثلاثة قريب لموسى نفسه

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾

لكنه رغم قرابته وانتسابه لبني إسرائيل لم يتورع عن المشاركة في البغي عليهم

لعل غناه والثراء الفاحش الذي كان يرفل فيه هو ما حجبه عما تعرض له قومه من الذلة والاستضعاف

لكن العجيب حقا أن هذه القرابة لبني إسرائيل وموسى لم تمنع

فرعون من خوض هذا التحالف رغم عنصريته التي سبق أن أشرنا إليها وسيأتي ذكرها مرارا عند الحديث عن باقي جوانب شخصيته

لعل ثراءه هو الذي دفع فرعون للتحالف معه ليقدما سويا صورة نمطية من صور التحالف العتيق الذي عرفته البشرية دوما

التحالف بين السلطة والمال

ولقد أجاد فرعون استغلال هذا التحالف والانتفاع بشريكي البغي تمام الانتفاع

تخطيط هامان ونفوذه

ومال قارون

تكررت في القرآن أوامر فرعون لهامان بتشييد الصروح

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

[القصص ٣٨]

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾

[غافر ٣٦ – ٣٧]

وحين ورد ذكر جنود فرعون لم ينسبوا إلى هذا الأخير وحده بل نُسبوا إلى هامان معه

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾
تأمل.. جنودهما

يدل ذلك كله على أن هامان كان المكلف دوما بالتنفيذ والتشييد وكان هو المسؤول عن مواطن القوة والبأس في المنظومة الفرعونية
بينما كان قارون ممثلا للمال والثروة والزينة والموجه لهم والمفسد بهم
ولقد صنع مال قارون في بني إسرائيل ما لم يفعله سيف فرعون وسوطه!

هذه هي الحقيقة التي يخلص إليها من يتأمل قصة ذلك الثري المتكبر الذي استطاع بزينته أن يفتن قومه أو كثيرا منهم
كذلك فعل قارون
وكذا يفعل كل قارون
كل من بغى على قومه ليمتص من خلال بغيه كنوزا يستعملها بعد ذلك في مزيد من استعبادهم وتركيعهم ثم لا يكتفي بعد ذلك بالاستعباد والإذلال والظلم بل يتطور الأمر لأن يستعمل الأموال والكنوز في فتنة الخلق وإضلالهم
وما أكثر من ينجحون في ذلك
إن قصة قارون في القرآن ودوره في حكاية بني إسرائيل يمثِّل بوضوح ما يمكن أن يفعله المال والزخرف والزينة في نفوس القوم وليس أي قوم

إنهم أناس يحيا بين ظهرانيهم نبيان منهم رسول من أولي العزم ولطالما رأوا بين يديه الآيات والمعجزات وأبصروا كيف أحرج الطاغية فرعون وكيف أظهره الله عليه في كل مشهد

لكنهم رغم كل ذلك فتنوا بقارون وقالوا عنه ما لم يقولوه عن نبيهم المكلم

لذا تجد اقتران اسم فرعون المتكرر في القرآن بضلعي البغي الآخرين قارون وهامان بل وتقديم اسم قارون على فرعون أحيانا كما في سورة العنكبوت

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

كذلك ما نزل في سورة غافر من إجابة مشتركة أجابها الثلاثة على دعوة موسى واشتركوا من خلالها في تهديد من آمن معه بالقتل
﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾

العلاقة إذا كانت وطيدة للدرجة التي امتزجت فيها أقوالهم وصارت كأنها أقوال شخص واحد أو منظومة واحدة

منظومة البغي المتكاملة

وإلى هذه المنظومة الكلية ذهب موسى وليس فقط إليه

إلى فرعون

وبعد الأمر بالذهاب وتذليل الصعاب والاستجابة للدعاء يأتي الأمر بالقول

سيذهب موسى وهارون إلى فرعون

وسيقولا له قولا

أولى خصائص هذا القول أنه لين!

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾

قد يظن البعض أن ثمة تعارض بين الأمر بالقول اللين لفرعون أثناء دعوته والذي نصت عليه سورة طه؛ وبين رد موسى على فرعون في آية الإسراء

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي هالكًا يأخذك الله

والحقيقة أنه ليس هناك تعارض وذلك لفارق التوقيت والسياقات

إن سياق الآية الأولى يشير إلى بداية الدعوة

مفتتح تعريف فرعون بالله ودعوته ويناسب ذلك القول اللين المنتقاة ألفاظه إذ لا يعقل أبدًا أن يبدأ الإنسان دعوته بالإغلاظ على الناس

لا بد ابتداء من تعريفهم وبيان الحق لهم بلين ورغبة صادقة في الهداية

وهذا ما فعله موسى فقال بدماثة ورفق: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾

لكن بعد الدعوة الدمثة والنصح الصادق المشفق اللين وإظهار الآيات والمعجزات ومقابلة ذلك كله بالجحود من فرعون والإيذاء والوعيد بالمزيد = كانت الأخرى

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾

فها هنا سياق متأخر بعد مراحل التكذيب الرهيب والجدل العقيم والصراع المرير الذي سنتعرض إلى جوانب منه في السطور القادمة

ومع اقتراب الإهلاك وعلم موسى بذلك كان لا بد من إعلان وبيان للمصير الذي ينتظره

كان المقام قد تحول إلى مقام مفاصلة وسياق تحدي لا يستعمل فيه اللين

ووضع النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى
مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدى

للين موضعه

وللشدة موضعها

حتى مع فرعون!

لكن فرعون من محترفي التشتيت ومن متقني الجدال العقيم والسفسطة الفارغة والخالية من أي منطق وهو يعشق التشغيب على الحجج والبراهين بمحاورات فرعية واتهامات وهمية كل الغرض منها التشويش على حملة الحق ودعاة الصدق

ولعل من أهم وأرقى الخصائص التي اتصف بها موسى عليه السلام وظهرت على خطابه بشكل واضح كما ظهرت على كلمات وردود تلامذته وأتباعه ومن اهتدوا بدعوته كمؤمن آل فرعون والسحرة بعد إيمانهم = التركيز على الهدف وعدم الانصراف للمعارك الجانبية التي يحاول فرعون إشغالهم بها وتشتيتهم عن أهدافهم من خلالها

بمجرد أن أتاه موسى برسالته وطالبه بإرسال بني إسرائيل معه حاول فرعون صرفه إلى تلكم المعارك الجانبية والتشتيتات والتشغيبات الفرعية

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

كان من الممكن لنبي الله موسى عليه السلام أن يرد بردود كثيرة وأن يبرر مقتل الرجل المصري

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد أبدا قتله

كان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا وأنه فقط كان يدفعه فحدث ما حدث

كان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم
كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير..

لكنه لم يفعل!

لم يستدرج إلى مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال
إنه صاحب رسالة جاء لمهمة ولديه هدف عليه أن يحققه

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر بسيط قائلا: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

نعم قد فعلت ولن أقف طويلا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث وقد نُفيت بسببه سنين عددا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين

فعلتها وتبت واستغفرت في حينها ودفعت الثمن من سنين غربة وإبعاد وخوف وترقب تآمر وقتل

فعلها موسى إذن ولم يبررها أو يزينها
ثم عبر إلى الأهم
إلى دعوته ورسالته
لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات ليذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الاشخاص والأحداث ويسمو على التفاصيل والزلات

وليستمر في دعوته

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

فهل توقف فرعون عن ممارسة هوايته أو إن شئت فقل: حرفته وخلاصة مهارته

محال

إنه متخصص في تلك الطريقة السمجة المقيتة

لقد استمر في تشغيبه وتشويشه بالمعارك الجانبية

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾

لم يلتفت موسى وأكمل: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فما كان من فرعون العاجز عن رد الحجة بمثلها إلا أن استمر في تفاهاته وحماقاته

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

هنا يلجأ فرعون إلى تشغيب من نوع مختلف

السباب والإهانة والانتقاص والتشكيك في شخص الداعي

فهل التفت موسى أو رد هذه التهم السفيهة عن نفسه؟!

أبدا

لقد استمر في مهمته السامية

دعوته

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

عندئذ أفلتت أعصاب الطاغية وظهر تمام عجزه
لا حيلة تتبقى إلا الإكراه والجبر أو القمع

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾
ومع كل هذا استمر موسى ولم يلتفت

ولقد تعلم الدرس أتباع موسى والمؤمنون برسالته
لعل أوضح النماذج على ذلك ما فعله الرجل المؤمن من آل فرعون وقد تشرب طريقة نبيه وفهم غايته وهدفه

لقد حاول فرعون اتباع نفس أسلوب التشويش المتهافت مع الرجل الذي قيل أنه ابن عمه فقابل دعوته بكلمته الفاضحة لحقيقته
وبعد أن كانت البداية ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ يدعي بها أنه حريص على الشورى واعتبار رأي من حوله إذا به يظهر حقيقة طغيانه بعد أن فضحها قريبه بحسن منطقه ووضوح حجته

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

فهل التفت الرجل المؤمن أو انشغل بتشغيبه
الجواب: لا
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾
استمر في دعوته غير آبه بترهات فرعون التي وصلت إلى مستوى من السماجة والضحالة لم يسبق له مثيل

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾

إنها نبرة مألوفة من نبرات سخرية وربما حماقة الفراعين..

هل تمزح يا فرعون؟

أى صرح من الطين ذلك الذي سيبلغ أسباب السماء؟!

أوبعد كل تلك الحجج والبينات التي أتاك بها موسى، ورددها مؤمن آل فرعون على

مسامعك لازلت تكابر، وتتحدى، وتمارى؟!

ما أثقل ظل الفراعين وما أشد سماجة الطاغين

الحقيقة أنها ليست شبهة أصلًا فقد ختمها بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًاۚ ﴾

إنه كالعادة التشغيب والسخرية والتسفيه وتزيين سوء العمل والصد عن السبيل

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾

ومثل هذا لا يلتفت إليه

لذا لم يلتفت إليه الرجل المؤمن من آله وأكمل دعوته الهادئة الوضيئة واستمر في أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله..

البلاغ عن الله..

الدعوة إلى الله..

أكمل موعظته دون التفات لسماجة أو سخرية وتشغيب عساها أن تجد قلبًا ينشرح لها، بدلًا من قلب هذا الطاغية القاسي المظلم العتيد..

أكمل كأن لم يسمع تلك الشبهة التافهة

أكمل لأنه يعرف هدفه ولا ينشغل إلا به

وكذلك حامل الرسالة

ليس لديه ترف تضييع الوقت في معارك جانبية فلا ينشغل إلا بهدفه ولا ينفق وقته أو يضيع حياته القصيرة إلا ابتغاء تحقيقه والعمل لأجل الوصول إليه

مهما شغب الفراعين أو سخروا أو شوهوا

هو أبدا لا يلتفت

فلأمثال فرعون = لا يُلتفت

ورغم كونه إماما للطغاة ونبراسا للمستبدين وقدوة للظالمين إلا أن فرعون لم يكن يفضل أن يعترف بحقيقة استبداده أو يقر بواقع طغيانه وفساده

بل ربما ارتدى ثياب المصلحين أو تدثر بدثار الواعظين المشفقين أو تستر برداء المشاور المتقبل لرأي غيره الحريص على مشاركة عبيده القرار

هاهو يتدثر بدثار المشاورين ويلبس حلة المتقبلين لآراء الآخرين فيقول عن موسى بعد أن يأتيه بالبينات: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

إن فرعون هاهنا يحلو له اكتمال المنظر وتمام الزينة، فيبدي من قوله ما يخالفه عمله، ويظهر من حرفه ما يكذبه فعله؛ لكنه يظل في النهاية مستبدًّا طاغيًا وإن تجمل وتزين

إنها مجرد رتوش تجميلية وأصباغ خداعية لإتمام زينة المشورة الصورية، ولإكمال زيف القشرة الموضوعية

وهو يجمع حوله من يصلحون لتلك المهمة الرخيصة ممن لم يلحظوا أنه قد حكم ابتداء وقرر دون بينة أو دليل أن عدوه ساحر أو مفرق لجمع الأمة مريد لإخراج أهلها منها وذلك بقوله ابتداءً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾

أليس هذا حكما قد صدر وقرارا قد اتخذ؟

فما قيمة قوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ إلا إكمال الزينة والصورة الفارغة للحاكم الطيب الحريص على الشورى؟!

لكنه حين الجد يرى وحده

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

وهو بعدها يقرر وحده

وغالبا يكون قراره الأوحد =البطش

لكنه رغم قراره الباطش لا يتخلى عن حرصه على الصورة التشاورية البراقة لمدة طويلة

بل قد يستمر في ادعائها حتى بعد أن يقرر البطش

ذرونى أقتل موسى

دعوني أتخلص منه..

اتركوني أخلص البلاد والعباد من شر هذا الذي سيغير عقائدكم، ويضيع دينكم ودين آبائكم، ويظهر في أرضكم الفساد

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

ما أطرفها من كلمات حين تخرج من هذا الفم البغيض..

ذروني!!

وهل تستأذن أيها الطاغية؟!

منذ متى؟!

وهل مثلك من الطغاة يحتاج من أمثال تلك الحاشية من المطبلين والمنافقين أن يذروه ويتركوه؟

لكنها الصورة التي نتحدث عنها والتي يحرص فرعون على إحكام تزييفها،

بينما الحقيقة أنه لا يحتاج إلى رأيهم، ولا ينتظر إذنهم..

وعلى كلٍ فليس عليه أن يقلق فلن يجد منهم إلا كل تطبيل وتصفيق..

إن من حول فرعون يفهمون جيدًا مطلبه ويعرفون أنهم جزء من زينته

لن يسمع يومًا معارضة من ألسنتهم، التي استمرأت النفاق، وألفت الكذب، ولم تعرف إلا التزلف والتملق والمداهنة، ولم تتعود إلا على قصائد المديح، ومطولات الثناء المنافق الصريح..

نعم الرأي رأيك يا فرعون..

وما بعد قولك من قول..

ما أعظم توجيهات فخامتك أيها المفدى بالأرواح..

هكذا ستتعالى دوما صيحات المطبلين وحملة المباخر وسترتفع تهليلاتهم الداعمة للقرار

ولكل قرار..

وهؤلاء من يجمعهم الفرعون دومًا حوله أو يسمح لهم بالبزوغ في دولته والظهور في فلك نظامه وزمرته

ستجدهم في غالب الأمر من حمائم الخلق سهلي المعشر والانقياد

إنهم يشتركون جميعًا في صفات الذلة والانقياد والانبهار الدائم بفرعون.

أما صقور الخلق عزيزو النفس مستقلو الرأي، فلا يطيقهم فرعون ولا يستريح في وجودهم، ولا يتعايش مع إيجابيتهم وتأثيرهم، حتى لو كانوا على الفكر والنهج نفسه

إن فرعون لن يبقى حوله إلا دنيء نفس من أراذل الخلق

من يرضى بالهوان ويقبل بالذلة الظاهرة المعلنة، ويتعايش مع كونه مجرد صدى لأفكار ورغبات سيده

ستتعدد الأقنعة وتتنوع الألقاب والمهن ما بين كهنة وسحرة وخدام وحجبة

لكن سيظل التزلف والنفاق والمداهنة والتهليل هو شعار تلك الفئة مهما اختلفت أشكالها وتنوعت ألقابها

يكفي أن يلمح فرعون إلى أنه يريد هذا الرأي، لتصير تلميحات سيادته أوامر، بل إن أحلام فخامته لا مفر من تحقيقها بكل السبل..

هكذا تربوا..

وعلى هذا حرصوا..

وكذلك وصلوا

ومهما ادعوا غير ذلك فالجميع يعلمون أن حقيقة الأمر في النهاية يلخصها فرعون بكلماته الواضحة المحكمة التي تبرز دائما في النهاية لتلخص الأمر ببساطة

﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

ولفرعون معايير واضحة من خلالها يقيس الأشياء وعن طريقها يقيم الأشخاص ويزن الأحداث

هذه المعايير مادية بحتة وسطحية محضة ولا تخضع إلا للظاهر المحسوس والمرأي الملموس

هو هو نفس المنطق المريض في كل زمان ومكان
منطق الحكم من خلال الظاهر السطحي

حكم يرسخه نمط من الخلق لا يلفت انتباههم إلا المظهر المبهر ولا تنجذب أبصارهم إلا لزينة براقة أو زخرف لامع فيقيسوا الحق والباطل فقط من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الضخم والنسب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل

وهذا النمط من التفكير وأصحابه هم الذين يستخفهم فرعون ومنطقه إذ ينادي فيهم قائلا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾

هذا هو ما أرادهم دوما أن ينتبهوا إليه

الظاهر الذي يمكنهم إدراكه بالحواس المباشرة
الملك والصولجان والأنهار والنعيم
لذلك سألهم: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾

هو إذن ترسيخ للحكم البصري المظهري والتقييم المؤسس على أساس الرؤية الخارجية والمقاييس المادية وحسب..

لذلك كان بعدها ذلك القياس الذي نتحدث عنه والذي يعرضه فرعون دوما على أنه المنطق الوحيد والمعيار المتفرد الذي يحكم من خلاله على الأشياء

﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾

يستمر فرعون هاهنا في توجيه الأنظار للمحسوس من الصفات والأفعال

هو في هذا الموطن يشير بكل خسة وحقارة إلى عقدة لسان موسى وهو أمر ظاهر يمكن إدراكه

بل ويمعن في الإشارة فيرميه بالعجز عن البيان

ولقد طلب نبي الله موسى من ربه أن يحلل تلك العقدة

إذن فهي موجودة

ولقد بين أن صدره يضيق ولا ينطلق لسانه

ولقد أقر موسى عليه السلام بأن أخاه هارون هو أفصح منه لسانًا

إذن فالأمر يحمل شيئا من الحقيقة وثمة مشكلة لدى موسى عليه السلام في جانب البيان والفصاحة

لكنه مع كل ذلك قد بلغ رسالته وأدى أمانته

ونصح لأمته

ولقد وصلت دعوته

وصلت وبلغت قلوب أعدى أعدائه فآمن سحرة فرعون وآمنت امرأة فرعون وآمن مؤمن من آل بيت فرعون

آمنوا برب موسى واتبعوا دعوة من لا يكاد يبين

إن من البيان لسحرا والفصاحة وجذالة اللفظ شيء مستحسن لذا كانت علة مطلب موسى بإشراك أخيه الأفصح

البيان مهم بلا شك

والظاهر من الأشياء له دور وقيمة

لكنه ليس الأهم

وليس وحده مناط التكليف ولا سبب القبول الأوحد

العبرة بلسان الصدق وتشرب القلب لمعاني الحق وليس فقط في المظاهر

تلك التي لا يفهم فرعون سواها فيستمر في ذكرها والنيل من موسى عن طريقها

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

لقد قاس على نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل زمان

معيار المظهر الخارجي وزخرف الفعل والقول

ومن يقبل القياس على هذا الأساس يستحق بجدارة أن يتسلط عليه فرعون وأمثاله فهم ممن قال الله فيهم في السياق نفسه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

قوم فاسقون بمعيارهم الفاسد وحكمهم المنقوص وتصورهم المريض الذي هيأ لهم ولأمثالهم أنهم يقسمون رحمة ربك

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾

أهم يتحكمون فيها فيعطونها لمن أعجبهم ويمنعونها من حقروه ولم تبهرهم زينته أو تخطف أبصارهم لمعة نسبه ومكانته وينسي هؤلاء أو يتناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات

وأن..

﴿ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾

فكم من سادة وأكابر بعين الخلق، بينما هم عند الله أصاغر أهون من الجُعل وأصغر من الذر، كما صح عن النبى ﷺ

كم من أناس يشار إليهم بالبنان، وتُنظم فى مدحهم القصائد، وتدبج فى مناقبهم المقالات والمقولات، وهم فى الحقيقة لا يساوون عند الله جناح بعوضة، ولاقيمة لهم في الميزان

العبرة ليست بعظمتهم وجاههم ووجاهتهم في الدنيا ولا بين الناس إنما العبرة بحقيقة العبد وسره المنظور المدرك ببصر الله وسمعه، وميزانه العادل القسطاس

قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا:** ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾»، صحيح مسلم،

هذه هى قيمته الحقيقية عند الله

جناح بعوضة!

بل أهون وأرخص

وكذلك كان فرعون

وهذا للأسف ما لم ينتبه إليه من استخفهم فرعون

ومنطق فرعون

ولابد لفرعون من سحرة!

سحرة يزينون باطله ويحسنون فساده وإفساده، ويجملون بغيه ويشرعنون بطشه، ويسوّقون باطله، ويرهبون معارضه، ويخوفون رافضه

والعلاقة بين السحرة وفرعون لم يبتدعها هذا الأخير

إنها دوما علاقة تكافلية موجودة بين الطغاة وبين السحرة

وهذا النوع من البشر - المستبدون - لهم أسلوب متشابه وطرق مشتركة ولهم طبيعة واحدة ورثها فرعون عن النمرود، وشاركهما فيها ملك الأخدود وأصحاب الرس وثمود، وطواغيت عاد قوم هود

توارثوها بغير نسب ولا عصب، وورَّثوها لكل مستبد جاء بعدهم، كأنما تواصوا بها؛ بل هم قوم طاغون.

ومن هذه الطرق المتكررة والطبائع المشتركة = وجود السحرة إلى جوارهم

لقد كان لصاحب الأخدود ساحره، الذي طالما خدع الناس

بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه وقد حاول هذا الساحر تعليم الغلام تلك الحيل والألاعيب وهذا لمعرفته بتلك الطبيعة

لابد من وجود ساحر إلى جوار الطاغية

ولقد كان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم

لكن السحر يتنوع حسب الزمان والمكان؛ فليس كل السحر = حبالًا وعصيًّا أو تعاويذ وأعمال كما في صورته النمطية القديمة بل: «**إن من البيان لسحرًا**». كما صح عن النبي ﷺ، ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم.

وإن الساحر قد يتقنع بشتى أنواع الأقنعة، ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة، التي تخفي زيفه وتستر حقيقته؛ فما بين قناع مثقف، وعباءة نخبوي، وأصباغ غانية، وطلاقة لسان، وعمامة شيخ سلطان وإمام ضلالة وبهتان = يتخفى السحرة

لكن مهما تنوعت أستارهم واختلف دثارهم وزُيِّف سمتهم فإن هذا لن يغير الحقيقة

حقيقة أنهم يشغلون منصب سحرة الطاغية وسدنة المستبد، وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرًا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم مجرد سحرة.

سحرة قد تكون جريمتهم أحيانًا أشد وطأة من جريمة فرعون نفسه

ذلك بأن فرعون قد يُطاع خوفًا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحًا أمام جبروته؛ لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم

لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد ويسحر أعين الناس ويسترهبهم فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي؛ بل والاقتناع والسعادة وربما الانبهار بصنيع فرعون حتى يستمريء الناس من حوله الذل ويتلذذوا بالهوان، أو يرسخ الساحر تعظيمًا لفرعون ورهبة منه في تتشربها نفوس الناس فتجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يغادروا حالة الاستخفاف التي أرادها لهم فرعون

باختصار الساحر يصنع جيلًا ممسوخًا من المقتنعين بقمع النار والحديد، بل وربما من المطالبين بالمزيد والمزيد والفرحين بأنهم للفرعون عبيد.

لأجل هذا الارتباط الوثيق بالسحرة = فإن السحر كان أول ما تبادر إلى ذهن فرعون حين برز له موسى بما يخالفه أو يسوؤه

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الشعراء

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ طه

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات

هكذا كرر فرعون..

وليس فرعون وحسب

بل كذلك فعل الملأ من حوله تلك التهمة الجاهزة التي يعرفونها جيدا

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الأعراف

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴾ يونس

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ النمل

إنهم يظنون أن كل الخلق مثلهم يحتاجون للسحر وحيله للتلاعب بعقول الناس

نفس التهمة قيلت مرارا عن نبينا ﷺ

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ المدثر

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ القمر

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ الأنعام

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ص

وليس نبينا وحسب بل هي تهمة جاهزة ترفع في وجه كل مصلح بصيغ مختلفة

قيلت للمسيح عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ الصف

بل قيلت لسائر النبيين والمرسلين

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات

هذا ما يعرفه المجرمون وذاك ما يتصورونه

ولذلك كانت نصيحة الملأ لفرعون ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

ولقد استجاب فرعون

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾

ظنا منه أنه سيفل الحديد بمثله فقد قرر فرعون أن يستعين بأهم أعوانه

السحرة..

ولأن فرعون قاريء جيد لأطماع الناس وبما أنه ذو خبرة ممتازة في استغلال شهوات أتباعه وتحريكها لتخدم مصالحه

= فقد قرأ فرعون الطمع في سؤال السحرة عن الأجر حين استدعاهم لمواجهة عدوه موسى

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

كان هذا قبل السجود

قبل أن تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بالرب المعبود

في هذا المقام كانت الدنيا وثوابها هي كل ما يشغل السحرة ويحركهم

وفرعون خبير بمثل هذه المطالب

اطمئنوا إذن

الإجابة: نعم

نعم لكم الأجر الدنيوي والمثوبة الزائلة العاجلة

ليس هذا فحسب

بل زاد فرعون في إجابته على مطلبهم بأن طمأنهم على موقعهم منه فقال: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

ستكونون قريبين من السلطان

ستكون لكم حظوة لديه وزلفى عنده

سيكون لكم «ظهر» فلن يجرؤ أحد بعد اليوم على ضرب بطونكم

يالسعادتهم وحماستهم بعد هذا الوعد من الطاغية ذي الأوتاد

فليتفانوا إذن وليبذلوا قصارى جهدهم ولينفخوا وينفثوا في عقدهم فقد صدر الوعد الفرعوني واطمأنوا على عاجل مستقبلهم

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

هكذا أعلنوها قميئة سخيفة سمجة

بعزة فرعون

لابد من الشعار

العنوان

لابد ألا ينسى السحرة في كل مكان وزمان وظيفتهم

إنهم مجرد ملمع لنعل فرعون وكل إمكاناتهم مسخرة لهذا الهدف

تزيين فرعون وشرعنة وجوده وترسيخ الهتاف باسمه والتشنج لأجل عزته

ما علاقة عزة فرعون بحرفتهم وما دخله بمهنتهم وفنهم؟!

إنهم يعتمدون في الأصل على نفخهم ونفثهم وعقدهم وغالبا لا يعبدونه كما يفعل العامة فللسحرة عقائد وعهود أخرى

لماذا إذن فرعون وعزته في هذا السياق؟

إنها الغاية من الإتيان بهم كما أسلفت

هذه وظيفتهم

وتلك دوما مهمتهم

لكن هذا كان في أول الأمر كما أشرنا

حين كانوا مجرد سحرة مخادعين

لكن عند لحظة الشهود للآية والمعجزة والعلامة = اختلف الأمر تماما وتغير القول بالكلية

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

وقبل القول كان الفعل

كان السجود... بل الإلقاء ساجدين

وهذا ما لا يفهمه فرعون

والأهم والأخطر أنه لم ولن يقبله

وكيف يقبله وهو فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لك أن تتبع وأن ترى فقط ما يرى

وهو يحتقر ويزدري ويسخر ويستهزئ بمخالفيه

هو فقط عند نفسه الأعلى والجميع دونه، وهو فقط الأعز

والجميع أذلاء إليه، وهو وحده الحر والجميع عبيد له، وهو وحده الرشيد والجميع همج رعاع لا يرقون لفكره ولا يقتربون من عبقريته فكيف يجرؤون على مخالفته

هل نسوا أنفسهم؟

هل غابت عن أذهانهم حقيقتهم؟

هل ظنوا أنه حقا لم يعد يعرفهم؟

إن فرعون يرى نفسه حالة فريدة ليس لها شبيه، ودور الآخرين في الحياة أن يركعوا له فقط ويثنوا على أفعاله وحسب وينفذوا أوامره لا غير، والويل كل الويل لمن ناقش أو اعترض أو فكر

فما بالك لو قرر؟!

حتى لو كان ذلك القرار = سجدة

لكن كما أن فرعون كان يعرف سحرته ويدرك في البداية أطماعهم ويجيد مخاطبتها في نفوسهم = فإن السحرة أيضا كانوا يعرفونه جيدا

يعرفون خصاله ويستوعبون خصائصه التي تنتج عنها تصرفاته وتتفرع منها قراراته

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾

هذه هي حقيقتك يا فرعون

تنقم منا الإيمان!

تنتقم لقبولنا الآيات البينات!!

هذا ما فهمه السحرة من سؤال فرعون الاستنكاري الذي ظهرت فيه بحماقته المعهودة حقيقة نواياه

﴿ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾ ؟

هذا السؤال يعد جزءا مهما من الخطاب الفرعوني المتجبر الذي له خصائص ومحاور تظهر أهمها في خطاب فرعون في سورة طه

﴿ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ ﴾

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾

﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾

هذا الخطاب يمثل أربعة محاور مفصلية تتجلى من خلالها نفسية فرعون

أولا: السلطان على الفكرة.

ثانيا: التخوين والمؤامرة.

ثالثا: القمع والبطش.

رابعا: ترسيخ ثقافة الخوف وصناعة العبرة.

أما السلطان على الأفكار فيظهر جليا في قول فرعون: قبل أن آذن

هذه هي العلة الذي ثارت لأجلها ثائرته وجن جنونه

لقد كان انزعاج فرعون بسبب التفلت من سلطانه على الأفكار وسيطرته المحكمة على إرادة شعبه، وليست فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوى تلك العقيدة التي اعتنقوها أو الأفكار التي تشربوها.

لم تكن المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله

المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة

إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة

إيمانًا يتحرك بالأمر، وعقيدة بلا عقيدة.

﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾

القضية المبدئية هنا كانت تكمن في الإذن

في التصريح..

في الاختيار بمنأى عن إرادة فرعون والخروج عن طوعه والاستقلال عن مذهبه ومعتقده..

في التحرر من سلطانه وسيطرته حتى على الأفكار والمعتقدات.

إن فرعون كما سبق وأشرت = يرى لنفسه الحق المطلق في تحديد أفكار الناس، وفي تقييمها، في تقسيمها وتصنيفها

في الحكم عليها وعليهم، وفي ثوابهم وعقابهم على أساس أفكارهم ومعتقداتهم

في توزيع صكوك الاستحقاق عليهم، وفي تحديد أدوارهم ومهماتهم.

فرعون يرى لنفسه فقط الحق في أن يحكم ويحاكم، ويعطي ويمنع، وينعم ويحرم، ويحل رضوانه على من يوافقه وينافقه، وينزل سخطه على من يخالفه ويرفض أفكاره ويتحرر من سطوته.

وهو لا يستطيع العيش إلا مع عبيد يهللون له ويباركون كل خطواته، أما من كان له رأي أو فكر أو إرادة خارج إطار إرادته وفكره فهو دوما عدو له، متآمر على دولته لابد أن يزاح عن طريقه.

وهنا يأتي المحور الثاني ويحين دور التشويه والدعاية السوداء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾

أيها الخونة المتآمرون! إنه زعيمكم ومعلمكم إذن..
وما موهبتكم وصنعتكم السحرية إلا جزء من تلك المؤامرة الكونية على دولتنا البهية!

تناسى فرعون في لحظات أنه هو من أتى بهم من أنحاء القطر الواسع، وجمعهم بجنده واختارهم على عينه

تناسى فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته الآنية وحضارته القوية؛ فقد تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث بعد قليل للخونة المتآمرين،

الذين كانت كل جريمتهم السجود، وغاية خطيئتهم = ترك الاستئذان قبل الإيمان، ونسيانهم الحصول على تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني.

فكما قلنا ونقول ونكرر فرعون فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لأي شخص أن يرى بل أن يرى فقط ما يرى.

فإن لم يفعل فالنتيجة النهائية عنده هي..

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

إنه القمع إذن

المحور الثالث من محاور الخطاب الفرعوني

سبيل الضعيف وإن لبس لأمته ووسيلة العاجز وإن ادعى قوته وتمثل قدرته

السيف في مواجهة الفكرة والبطش في مقابلة العقيدة والعذاب لوأد الإيمان الذي لم يستأذن فيه الطاغي

ولكن لماذا؟!

هل هو الانتقام وحسب؟!

أم هو إسكات الصوت وكبح جماح الإرادة وقتل التحرر الإيماني من عبادة الطواغيت الذي مثله السحرة؟!

ربما كل ذلك وغيره

لكن الأهم عند فرعون كان هو المحور الرابع
صناعة العبرة وترسيخ الخوف

﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾
لا بد أن يعلموا
ولا بد أن يعلم الجميع
لا بد أن يبقى العبيد عبيدًا
وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة
وليُسقى لمتعلمي العبيد مع عصير الدماء المسكوبة والأوصال المتطايرة
ثم ليكن الصلب على تلك الجذوع السامقة
فالمسألة ليست فقط في العقوبة
ولكنه النموذج الذي لا بد أن يظهر للجميع
وليظل الإيمان المطلوب كما هو
إيمان رسمي حصري بالإذن
إيمان بلا إرادة وعقيدة بلا حرية وأناس على دين ملكهم
على دين فرعون

لكن هل كان فرعون يدَّعي؟
هل كان يتظاهر ويتقمص أم أنه كان فعلا يصدق ما يقول؟
هل كان يعلم حقيقته ويدرك بشريته أم كان حقا يظن نفسه إلها؟
هل كان خاطئا في نظره لنفسه أم كان يحسب نفسه مصيبا محقا؟

تلك الأسئلة يمكن تعميمها وإجمالها في سؤال لطالما كنت أسأله لنفسي:

ترى.. هل يعلم المخطئون أنهم مخطئون؟!

هل يدرك الفاسد أو المفسد أو الضال المُضل أنه كذلك وهل يلاحظ الظالم أنه يبغي ويجور ويتعدى؟!

وإن كانوا يعلمون ذلك ويدركونه فكيف ينظرون لأنفسهم في المرآة دون أن يحتقروا أنفسهم وأفعالهم؟!

وكيف ينام هؤلاء؟

كيف كان ينام فرعون وقد ذبَّح أطفالا واستحيا نساء واستذل رجالا؟

وكيف يضع هؤلاء جنوبهم مطمئنين وهم يدركون ويعلمون أنهم قد ظلموا أو انتقصوا من حق إنسان؟!

الحقيقة أن الإجابة عن الشق الأول من تلك الاسئلة هي بوضوح = نعم يعلمون!

هذا هو الأصل..

مهما كثرت المعاذير والمبررات التي يبرر كل منهم – بل كل منا – بها خطأه وتعديه فإن الأصل أننا جميعا نعلم حقيقة أفعالنا

أنا وأنت نعرف جيدا وندرك في غالب أمرنا تلك الحقيقة

مهما تجملنا وادعينا وبررنا وزينا أعمالنا فإن الأصل أننا حين نخلو بأنفسنا لن نتمكن طويلا من خداعها.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾

هكذا واضحة قاطعة بيّنها ربنا في كتابه..

مهما ألقى الإنسان معاذيره وساق حججه وأتقن مبرراته = فالأصل أنه يدرك حقيقة ما يفعله ويبصر بوضوح ما عليه نفسه..

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

كان ذلك رد فرعون وآله على تلك الآيات المبينات التي أرسل بها موسى إليهم..

كالعادة.. لا شيء جديد في ردهم!

اتهامات وتشكيكات وتسمية للأشياء بغير مسمياتها
لكن هل كانوا حقا يرون الأمر سحرا أو دجلا
الجواب يأتيك من ربك في الآية التي تليها من سورة النمل

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

إذاً فقد كانوا يعلمون!

بل ويستيقنون!!

وتلك شهادة ربهم الذي يعلم ما يعلنون وما في صدورهم يُخفون ويكتمون

لقد كانوا يعلمون

وكان فرعون يعلم

رغم كل من أحاطوا به من المُزينين، ومن حُشر حوله من الكهنة والسحَّارين والمدلسين، ورغم كل من تكالب عليه من المداهنين والمطبلين، الذين هم لفتات الموائد آكلون، ممن يجعلون رزقهم أنهم يُكَذِّبون ويَكذبون ولظلم فرعون هم يشرعنون = فقد كان يعلم

بل ويوقن

لقد ظل في نفسه وميض معرفة يوقن من خلاله أن كل هذا التطبيل والتزيين والنفاق والتأويل، ما هو إلا قشرة زائفة تحيط بحقيقته القبيحة

﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

هذا بالنسبة للشق الأول من الأسئلة

لكن ماذا عن الشق الثاني؟

كيف سينام فرعون والملأ مع جرمهم وكيف مع خطاياهم سيتعايشون؟

كيف لا يحتقرون أنفسهم التي يعلمون حقيقتها الكامنة خلف الأصباغ والزينة؟

هناك عدة وسائل سيواجه بها فرعون خطأه وسيتعايش مع فساده وسيطبع مع ظلمه

وليس فرعون وحده من يجيد هذه الوسائل لكن الحقيقة أن كل مخطيء يجيدها بقدر قد لا يوازي براعة فرعون لكنه بلا شك سيطرق أبوابها ليستطيع التعايش مع خطاياه

أولى تلك الوسائل أن يتناسى تلك الحقائق التي يعلمها جيدا عن نفسه ويخدر ضميره ويخرسه تماما ويتغافل عن كل تلك النكزات والوخزات التي تؤرقه بها أحيانا بقايا ذلك الضمير

وحينئذ على من اتبع تلك الوسيلة ألا يجلس كثيرا مع نفسه وأن يعيش في صخب شديد وضجة عالية يخبو معها كل صوت ينبعث من أي ناصح أمين

بل حتى ذلك الصوت الذي ينبعث من روحه معاتبا أو مؤنبا ينبغي أن يخمده ومن ثم يخلد إلى فراشه آخر اليوم وقد خارت قواه وهوى في سبات عميق يشبه الغيبوبة فلا يملك الوقت ولا القدرة أن يراجع نفسه أو يحاسبها

الوسيلة الثانية تتلخص في كلمة واحدة (البجاحة)..

هذا أنا وهكذا حالي وهو يعجبني على وضعه ذاك

هكذا يقطع على نفسه وغيره كل طريق لوم أو عتاب وتأنيب؟

وتلك درجة متقدمة من التفلت والفجور إذ كيف ستلوم من هو

مفتخر بباطله متصالح مع فساده، منافح عنه ومدافع عن خلله وانحرافه

ولقد استعمل فرعون هذه الطريقة بوضوح
﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾
هكذا قالها صريحة وتبجح بها
ستؤمن بالإكراه اقتنعت أم لم تقتنع
إنها شهادة منه على نفسه أن الأمر مجرد إجبار وليس فيه من المنطق شيء
حين يصل المرء لهذه الدرجة من التبجح فهو لا ينكر أن ما هو عليه قد يكون خطئا أصلا لكي ينفق الوقت والجهد في إقناعه بأن ما يفعله خطئا
ولا هو معترف نادم يتمنى إصلاحا.. بل هو ببساطة صريح متبجح بفساده مباهٍ به مُصرٌّ عليه

أما الوسيلة الأخيرة فهي إدمان خداع النفس والركون إلى المهاترات والمعاذير الواهية والمبررات المتكلفة والحجج المتهافتة حتى يحدث المحظور ويصدق المرء خداعه لنفسه ويقع في حبائل أكاذيبه وترهاته فتُطمس فطرته ويغيب تمييزه ويقتنع فعلا أنه على حق ويُزَيَّن له سوء عمله فيراه حسنا

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ [سورة فاطر]

وهذا في رأيي أصعب النماذج وأضل الأنواع ولقد سماهم الله بالأخسرين أعمالا

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

(سورة الكهف)

ولقد حاول فرعون أن يستعمل هذا الأسلوب وأن يخدع الناس بحجج باهتة وأدلة واهية

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

[الزخرف ٥١ - ٥٣]

الملك والأنهار التي تجري فيه والقدرة على البيان والذهب والزخرف

هل هذه أدلة ألوهية

هل هي حجج أن صاحبها على حق

لا يقول ذلك إلا سفيه كفرعون

لكنه لجأ إليها وخدع بها نفسه ومن استخفهم

إن الواحد من هؤلاء في الحقيقة ليخدع نفسه قبل أن يخدع الناس

والأدهى أنه يصدق أكاذيبه ويعجب بألاعيبه لدرجة مذهلة تصل به إلى أن يجترىء على ممارسة ذلك الخداع مع خالقه يوم القيامة

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

لكن مع كل ذلك الحلِف والظن أنهم على شيء فإن وصفهم الذي لا يغادرهم والذي ختم الله به تلك الآية يظل هو الكذب والخداع

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

وأول من كذبوا عليه وخدعوه = تلك الأنفس التي بين جنوبهم!

فيالحماقتهم!

وإن الحماقة والغباء حين يجتمعان مع الغرور ويمتزجان بالكبر والعجرفة الفارغة فإن المنتج النهائي = كارثة

كارثة تسمى فرعون

لقد عرف فرعون وأعوانه الحقيقة كما سبق وبيّنا واستيقنتها أنفسهم

لم يكونوا في حاجة لمزيد من المعجزات بعد كل هذه البينات والآيات التي توالت عليهم

كانت الآيات والمعجزات كافية للغاية كي تستيقن الأنفس

فلماذا إذن لم يتحول اليقين لامتثال وتسليم واتباع؟؟

إنها الحماقة الممتزجة بالكبر

حماقة تجعلهم لا ينتبهوا لتلك الرسائل التي احتوتها الآيات الأخيرة

رسائل العذاب

الخطر المحدق بهم

المصير الذي ينتظرهم

إنها لم تعد فقط معجزات للتحدي وإثبات القدرة كالعصا واليد البيضاء للناظرين

لقد صارت تمس حياتهم وواقعهم

لكن الغباء مستحكم

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

أي سحر أيها الحمقى؟

إنها السنين

المجاعة

الجدب والقحط بسبب قلة مياه النيل وانحباس المطر عن أرض مصر ونقص الثمرات

﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

لا فائدة

الغباء لم يزل سيد الموقف جنبا إلى جنب مع رفيقه الكبر

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

ها هو الطوفان يتلف المزارع ويهدم البيان ويخرب المدن

والجراد الذي لا يدع أخضر ولا يابس في طريقه يبدو في الأفق

والقمّل

والضفادع

والدم

وزيد فى التوراة في سفر الخروج ما نذكره استئناسا دون تصديق أو تكذيب كما أمرنا: البعوض والذباب والوباء والدمامل والبثور والرعود والبرَد والظلام وموت الأبكار

الأمر كما هو واضح ليس فقط تحديا

إنه العذاب

الرجز

ألم يأن الأوان إذن ليعيدوا حساباتهم؟

لكن أنّي لغبي متكبر أن يفكر؟

و الحماقة والغباء جنبا إلى جنب مع الغرور والكبر لم تكن هي السمات الوحيدة التي ميزت شخصية فرعون وملأه

لقد انضمت إلى تلك الصفات صفة أخرى ظهرت بعد أن أعيتهم الآيات الأخيرة

صفة الخسة

النذالة

الوضاعة

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

هو عهد ووعد إذن

وعد بالإيمان مشروط بكشف العذاب!

هل لانوا واقتربوا؟

ها هم يذكرون رب موسى؟

إذن فإن فرعون يغير موقفه ولم يعد غير عالم أن لهم إلها غيره

يبدو أن الوضع سينفرج وقد ذكروا إله موسى بتصريح واعترفوا ضمنيا بقدرته على كشف الرجز والعذاب الذي ألمَّ بهم

فلينكشف العذاب إذن

ولتبرز السمة القبيحة الأخيرة التي لن تكون بعدها فرصا أخرى

الخسة

خلف الوعد

نكث العهد

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

لم ينصلحوا إذن ولم تلن قلوبهم

كانت مجرد مناورة غبية وحيلة حمقاء هدتهم إليها نفوسهم الدنيئة التي لا تعرف لوعد قيمة ولا تدرك لعهد أهمية

حتى لو كان عهدا مع الله

فليلاقوا إذن ما اكتسبوه بكامل إرادتهم واستحقوه بدناءتهم ووضاعتهم

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾

وإن مآل إرادة فرعون إلى نقيض قصده ونهاية مطمعه ستكون ضد هدفه وعكس مطلبه

ولو بعد حين..

إن ممتطي الباطل ومنتعل البغي وراكب الظلم ظنا منه أن تلك هي الوسائل الموصلة لعلوه المبتغى سيفاجأ في النهاية أن السحر ينقلب على الساحر وأن يوما سيأتي سيقع فيه به ما كانوا يحذر ومن جنس ما كان يحذر.

هذه قاعدة محكمة من قواعد القرآن ووعد رباني قاطع أعلنه في شأن فرعون

لقد وعد الرحمن أولئك المستضعفين أن مآل بطش فرعون بهم وعاقبة ظلمه لهم ستكون وقوع ما يحذر

وبشرهم أن الطاغية سيرى ما كان يتقيه ويهرب منه من خلال هذا البطش والقمع

وسيراه منهم..

ممن كان يحذرهم ويقتل أبناءهم خوفا من تلك اللحظة

﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

تدبر الكلمة مرة أخرى

منهم...

سيرى ما كان يحذر وسيلاقي ما كان منه يهرب وسيبور ما كان له يمكر

وكذا كل من طغى وتجبر

سيرى ما كان يحذر

وسيلاقي ما كان منه يهرب

وسيبور ما كان له يمكر

وسيعامل بنقيض قصده

ولو بعد حين

الكلمة نفسها طرقت مسامع ملك الأخدود بعد أن قتل الغلام ليكتم صوت الحق المنبعث من بين شفتيه

فكانت دماء الشهيد نورا يضيء للناس درب يقينهم برب الغلام وصاحوا: آمنا برب الغلام

هنا قالها رجل من بطانته مقرا بذلك المآل الحتمي:
أرأَيْتَ ما كُنْتَ تحذَرُ..
قد واللهِ نزَل بكَ حَذَرُكَ!

أجزَعتَ أن خالفَكَ ثلاثةٌ؟!
ها هي أمة بأكملها قد خالفتك وعن عبادتك أعرضت وبألوهيتك كفرت
قد آمَن النَّاسُ..

لقد قتل الملك ذلك الغلام ليمنع إيمانهم فكان قتله طريقا لإيمانهم ووقع ما كان يحذر
وبما كان يحذر
وبين جنبات التاريخ تتكرر تلك السنة التي يستبطئها البعض ويغفل عنها البعض أو يتغافلون وينسونها أو يتناسون لكنها وإن تأخرت فهي لا محالة واقعة شكك من شكك وتعجل من تعجل
المهم أن يريد الله
وفي تلك المواجهة بين فرعون وموسى كانت تلك الإرادة واضحة معلنة من البداية
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

ونريد..

وإرادة الله فوق إرادة فرعون ومنته ورحمته لا ممسك لها ولا مانع من تنزلها

هذه المنة لها خطوات أيضًا أولها الإمامة
﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾
أن يوجد في الأمة الأئمة والقادة والقادرون على الإصلاح في الأرض
من هنا تأتي الوراثة
﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾
ثم التمكين
ومن بعده يرى الفرعون ما كان يحذر
﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

لكن كل ذلك كما قلت يبدأ بإرادة المن وهي مرتبطة بوجود الاستحقاق

لكن متى؟

هذا علمه عند الله

قيل أن أعواما مرت حتى استجاب الله دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

وقد كان..

طمس الله على أموالهم وشدد عليهم وأذاقهم العذاب الأليم

وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين

لكن متى؟

الإجابة عنده وحده

تأتي متى شاء وكيف شاء وإن طال الزمان واستيأس الناس فإنه يأتي في النهاية

المهم أن يوقن العبد ويثبت على الحق ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك

وأن يصبر

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

ولقد حان الوقت وأزفت ساعة الانتقام

إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون

هكذا بدأ فرعون خطبته الختامية وشرع في رحلة التحريض الأخيرة لأتباعه ضد موسى عليه السلام وقومه

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلبس على الناس تصوراتهم من خلال المصطلحات

لقد استعملها كثيرًا من قبل

فتارة هي مؤامرة وهو كبيرهم الذي علمهم إياها

وتارة أخرى هو مجنون

وتارة هم أراذل القوم بادي الرأي

وتارة هم سفهاء ماكرون

وتارة هم مفسدون يريدون تبديل الدين وإظهار ذلك الفساد

وتارة هم شرذمة قليلون هم له غائظون

عذرا..

ليس له..

بل لنا

للجميع

لابد أن يتحدث فرعون بلسان الكل

لابد أن يوحي لهم بأن الجميع على قلب رجل واحد

ولابد أن يكون هو طبعا هذا الرجل الواحد

ماداموا لفرعون غائظين فهم للجميع غائظين

لا يحق لأحد أن يخرج عن تناغم المنظومة الفرعونية أو أن يفكر بشكل مختلف عنها أو أن يكون له رأي حسن فيمن يرى فرعون السوء فيهم

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾

إن فرعون لم يزل بعد حريصًا على أن يبدو في مظهر الحريص على الجماعة والذى لا يتخذ قرارا بمفرده

في خطبته الأخيرةلم يزل يتحدث بلسانهم ويسيطر على أفكارهم ولا يريهم إلا ما يرى ولا يهديهم إلا سبيل الضلال

ويا ليت تلك الخطبة الخاتمة كانت عصماء أو ذات قيمة تذكر

إنها بضع كلمات تأثيرية خاوية من المعاني خدع بها شعبا من المستخفين استحقوا أن يكونوا بذلك من الفاسقين

وهكذا دوما يغلف الطغاة قمعهم لمعارضيهم بوصفهم وتسميتهم بمستبشع الألفاظ ومستقبح النعوت وقميء الأوصاف

وهذا دأب معروف في صراع طويل بين الحق والباطل

لم يحدث في التاريخ قط أن سمى طاغية معارضيه باسم مستحسن أو حتى غير مستقبح

ولقد كانت دائمًا من أهم أساليب واستراتيجيات أهل الباطل تسمية الأشياء بغير مسمياتها وترسيخ المفاهيم المغلوطة وتكرارها حتى تصير هي الأصل بينما تضمحل الحقائق وتنزوي بعيدًا رويدًا رويدًا حتى تكاد تختفي خلف سحابة كثيفة من الغبار..

غبار الكذب والتحريف

لكن لماذا اقتحم فرعون البحر بعد أن انشق لموسى؟!

ألم يلحظ هذا الذى يحدث؟!

ألم يفكر هنيهة أن هذا المشهد المهيب الذي يراه ليس أبدا مشهدا عاديا؟!

ألم يوقفه هذا الصوت الهادر الذى يصم الآذان؟

لا أشك أن جيشه قد تسمر فى مكانه لهول المنظر ولعل الخيل قد أجفلت وتعالى صهيلها، وكادت أن تسقط براكبيها لعظم المشهد

إنه الموج يتعالي

ما يحدث وتراه عين فرعون شيء مستحيل بكل المقاييس

لقد صار الموج يصافح السحاب وكأنه طود شاهق!

لماذا لم يحجم؟

هل بلغ غباؤه تلك الدرجة المذهلة؟!

لكأني أسمعه رغم كل هذا الهول يصيح: هلموا أيها الرعاع

تحركوا

أدركوهم

لا يمكن أن يفلتوا

أسرعوا فلقد كادوا أن يغيبوا عن البصر وتطويهم ظلال جبلي الماء

هيا اقتحموا، ما لكم ترددون؟

إن كان موسى قد عبر فما يمنعنا من العبور خلفه؟!
إنها مجرد ظاهرة طبيعية لعلنا فقط لم نسمع بها من قبل
هيا أيها الجبناء
ها أنا ذا أتقدمكم ولا يرهبنى هدير الماء ولا ظلال الحيتان

يا لحماقته..

بل هو على الأرجح خداعه لنفسه الذي بلغ أفظع مستوياته حتى يقدم على هذا الفعل الأرعن

ليست معجزات موسى بجديدة على ناظريه فكيف تصور أن تسخر له وأنه قد يستعملها لصالحه

الحقيقة أن إمكانيات فرعون العقلية ومواهبه كانت دوما محل شك بالنسبة لي خصوصا بعد تأمل هذا الموقف

والأكثر إثارة للعجب والدهشة هو ذلك التسليم المدهش والاتباع الأعمى لشخص محدود الموهبة وضعيف التفكير لهذه الدرجة

لكأني أرى بعيني تقدم أتباعه على مضض حين رأوا قائدهم الأرعن يقتحم تلك المخاضة المرعبة

لعلهم تقدموا يهمهمون باعتراضات مكتومة لم تمكنهم نفوسهم المستخفة الفاسقة من البوح بها رغم أنهم يشعرون بقدر الحماقة التى هم مقبلون عليها

إنهم يعلمون جيدا أن هذه معجزة جديدة من معجزات موسى فكيف يأمنون ألا تسلط عليهم؟

يا لكبر قائدهم وغروره!

ويالخفتهم ورعونتهم أن اتبعوه على ما كان من غباء يطفح من أقواله وأفعاله

هلموا... أسرعوا الخطي فهاهو موسى وقومه يظهرون على الضفة الأخرى وقد عبروا بسلام

ها هو فرعون يحث الخطي ويكاد يطير بفرسه

هل هو قلق؟

هل هو خائف أن يصير وجنوده وحدهم بين جبلى الماء بين جبلي الماء بعد عبور موسى وقومه؟

أين ثقته التى كانت تقطر دوما من حروفه؟!

أين كبره وعجرفته؟

أين ألوهيته المزعومة؟

أين ملكه وأنهاره التي تجري من تحته؟

ها هي تجري من فوقه

لقد التأم البحر

انطبق

هكذا وبدون مقدمات

عاد البحر لسابق عهده وارتطم جبلا الماء!

وقضي الأمر

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴾

لكن ما القيمة الآن؟

فات الوقت

﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

ها قد غاب جيش فرعون فى الأعماق وكتمت الأمواج صرخاتهم
﴿ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾؟

الجواب لا

قد هلك الجميع وساد الصمت الذي لم يقطعه إلا هدير الأمواج المتلاطمة

لكن الأمر لم ينته بعد

ثمة صوت واهن يظهر بصعوبة خلف هدير الأمواج

صوت يتخافت تدريجيا ويزداد وهنا حتى تكاد لا تميز ما يقول

صوت يغرغر مختنقًا بعبرات تختلط ملوحتها بملح البحر وطميه الذي يدسه المَلَك الأمين في الفم الفرعونى الذي طالما تمرغ في النعيم

لعلك ببعض الجهد تتبين فحوى تلك العبارة الطويلة من بين حشرجات الموت وتقطع السكرات

﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

يا لها من عبارة طويلة بالنسبة لهذا الموقف العصيب

كل هذه الحروف والكلمات وليس فيها الكلمة الأعظم

ليس فيها اسم الله!

ألهذه الدرجة ثقل لسانك الأثيم عن النطق باسم الله؟!

تدعى الإيمان الآن؟

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾

فليزداد الاختناق

ولتتوالى السكرات والحسرات والندم على ما فات

لكن هيهات هيهات،

لقد هلك،

ومات،

مات أفجر طاغية عرفته البشرية

مات من قال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾

مات الذي قال ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾

فلتجرِ اليوم من فوقه ولات حين مناص..

ها هو يغيب رويدًا رويدًا تحت الأمواج

ولكن كلَّا..

لابد أن يكون آية

لابد أن يعرف الخلق أنه قد هلك لا يقولن أحدهم إله علا في سماء.

لا بد أن يروه والطين في فمه والرعب على قسماته.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾

اليوم

عاشوراء

الذى ظن فرعون أنه سيكون يومه وعيده الذي سيتحاكى فيه الناس عن بطولاته وأمجاده وكيف كان وجنوده فوق عدوهم قاهرين

لقد ظل يومًّا مشهودًا

يومًا من أيام الرب الذي جحده فرعون واستكبر عن عباده

يومًا أظهر الله فيه عبده عليه، وتركه آية لمن خلفه بعد أن أهلكه

ثم يأتي يوم القيامة إماما كما كان في الدنيا إماما

إماما للشر وبالباطل

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

وصدق الموقن الكليم في حرفه الواثق

كلَّا إن معى ربى سيهدين

وقد كان

هداه الله ونصره

وأهلك عدوه

ونجى فرعون ببدنه

ليكون لمن خلفه آية يعتبر بها من أراد العبرة

ويوعظ بها من ابتغى الذكرى..

فهل تراهم فعلوا؟!



٢. مؤمن آل فرعون

لم يعد ثمة حل مع موسى إلا القتل
هكذا فكر فرعون وقدر
وهكذا قرر

ذرونى أقتله،
دعوني أتخلص منه

اتركونى أخلص البلاد والعباد من شر هذا الذى سيغير عقائدكم، ويضيع دينكم ودين آبائكم، ويظهر فى أرضكم الفساد

نعم الرأى هو رأيك سيادة الفرعون
وهل بعد قولك من قول؟!
ما أعظم توجيهات فخامتك أيها المفدى بالأرواح

لعل هذه الصيحات المؤيدة، والتهليلات الداعمة للقرار، الذى ألمح صاحبهم أنه يريده، وتلميحات سيادته أوامر بلا شك، بل أحلام فخامته لا مفر من تحقيقها بكل السبل كانت هي ما سمعه فرعون عندما قال كلمته: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ﴾

ولعل ابتسامة رضا وحبور كانت قد ارتسمت على وجه الطاغية، وقد بدا فى الأفق نفاذ مخططه، وبات قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ، ودون أن يغير عادته التشاورية، التي يحب أن تصبغ بها قرارته الرشيدة

لكن الأمر لم يكن عاما

ثمة استثناء

هناك رجل لم يقبل هذا الذي يقال

رجل واحد

رجل واحد صنع فارقا..

في هذه اللحظات التي كاد فرعون أن يمرر قرار قتل موسى كان الرجل هنالك... يسمع ويرى ما يحدث، وفى صدره تتلاطم أمواج بحر لجى من المشاعر المتصارعة

هل حانت اللحظة؟

ليس يمكنه أن يكتم ما يجيش فى صدره أكثر من ذلك

إن صدره لم يعد يحتمل،

المشاعر تتلاطم، والأفكار تصطرع، والنزاع بينه وبين نفسه يحتدم،

هل له أن يقوم لله قومة،

هل له أن يصدع بما فى صدره من إيمان ويجهر بما يخفيه من معتقد كان قد كتمه طويلا؟!

بلى قد آن...

ورغم أن كلماته غالبًا لن تحدث فارقًا مع أمثال فرعون

ورغم أنه سيواجه جبارًا طاغيًا، ربما لم تعرف البشرية يوما مثله..

ورغم غلبة الظن أنه لو تكلم سيصيبه ما سيصيب موسى من مصير..

فما أغناه اليوم عن هذا، وهو على ما هو عليه من الجاه والسلطان..

إنه رجل من الأسرة الحاكمة، وكفى بها مكانة..

هل سيضيع كل ذلك بكلمة؟!

لكن من قال أنها مجرد كلمة؟

إنها كلمة حق وموقف صدق تعين الاحتياج إليه

إنه الحق وكفى به قيمة..

لسوف يصدع الرجل بكلمة الحق، وليكن بعدها ما يكون وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

كيف استطاع موسى أن يخترق بدعوته قصر فرعون لهذه الدرجة؟

كيف تسللت كلماته ورسالته إلى عقر دار الطاغية؟

كيف عبرت الأسوار، وكيف تجاوزت الأوتاد؟

كيف لم يوقفها الحراس، ولم يحجبها البصاصون، فوصلت إلى أقرب الناس إليه

بالأمس امرأته مرقت عن طوعه وكفرت بربوبيته وآمنت برب العالمين ومعها ماشطة ابنتها

ومن قبلها سحرته وسلاح تخويفه واسترهابه للناس

واليوم رحمه وقريبه..

رجل من آل بيته

من الأسرة الحاكمة

من ذوي الدماء الزرقاء كما يحلو للبعض أن يتعالى

إن أقواما يحجرون الهداية على الخلق ويستسهلون الجزم بطردهم من رحاب الرحمات ويقطعون الأمل في بلغ الهدى إلى نفوسهم لن يفهموا ما حدث

لن يفهموا أن تلك الحركة الدعوية المستمرة لم تعرف حدودا ولم تحجبها أستار ولا أسوار

ولقد وصلت

حتى داخل بيت فرعون = وصلت

وكذلك الهداية تصل لأي مكان إن أراد الله

وما علينا إلا البلاغ

والإيمان إن خالطت بشاشته القلب فإن آثاره لابد أن تنعكس على سلوك المرء وظاهر حاله

لذلك يرد لفظ الكتمان مع الإيمان عند الاضطرار

وكأنه شيء يريد أن يخرج بكل السبل لكن صاحب العذر يحاول جاهدا أن يكبح جماحه ويسيطر على ظهوره اللاإرادي

وبخلاف الإيمان البارد الذي هو مكتوم وحده ليس له أثر أو علامة = فإن الإيمان الحق يتوقد في القلوب ويضيء الجوارح وينعكس على السلوك

ولقد كان الرجل المؤمن يكتم إيمانه مترخصًا

وكان له ذلك..

لكن لحظة فاصلة جعلته لا يستطيع الكتم أكثر من ذلك

تلك اللحظة التي قرر فيها فرعون قتل موسى عليه السلام

هنا قرر أن يقوم لله قومة

قرر أن يصدع بما في صدره وقد كتمه طويلًا..

آن أوان الجهر، فقد عظم الكيد، وبلغ الظلم مبلغه وصارت هلكة حبيبه ومعلمه وسبب هدايته وشيكة..

الرجل سيُقتل، والملأ يهللون لقرار الظالم الكفور..

وما طيب العيش بعد ذلك؟!

ولقد وجد دومًا بين الناس رجال من عمومهم صدعوا بالحق وشهدوا بالصدق ونصحوا للخلق

وجد هؤلاء في كل زمان ومكان

قوم ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم قول الحق والصدع بالأمر وعدم كتمان الإيمان الذي

خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم، لم يشترطوا على ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم ولكنهم ما تلكأوا وما ضعفوا وما استكانوا حينما حانت اللحظة

ومنهم مؤمن آل فرعون

حين جاءت لحظته أيضًا لم يتأخر ولم يتلكأ أو يتعذر

تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الصدع والحرص على الأخذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحان موعدها ومن ثم تكلم الرجل

وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه...

ولقد كان صدع الرجل المؤمن في البداية لإنقاذ موسى عليه السلام من القتل الذي قرره فرعون

وفيما يبدو قد تحقق له ذلك وتوقف فرعون عن مسعاه على الأقل مؤقتا

لكن الرجل المؤمن لم يتوقف

لم يعد الأمر قاصرًا على الدفاع عن موسى، أو الذب عنه، والتخذيل عن قتله وتلك مقاصد عظيمة..

لكن الأمر تطور إلى دعوة وموعظة وتذكرة عامة، تقصد القلوب وتغمر الأفهام والألباب..

وذلك بعد أن هان الطاغوت في نظره، وانتهى الأمر..

لم يعد غضب فرعون يخيفه، ولم يعد يخشى أوتاده ولا جنده العتيد..

لقد صدع وجهر، واختار العزيمة، ولسوف يستكمل الطريق، ويسلك السبيل، وليكن ما يكون..

لم يعد الأمر فارقًا، ولم يبق للخوف منه أثرا في قلبه

ما تبقى من الخوف استحال إلي لون جديد..

إنه الآن فقط يخاف على قومه..

ظهر مدى خوفه عليهم ورغبته في هدايتهم في نداءاته التي كان يتخللها خوفه عليهم ويتبدى من خلال حروفها حرصه على صلاحهم

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾

﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾..

إنه خوف الحريص على أن يذوق كل الخلق ما ذاقه، وأن يغترفوا مما اغترف..

وخوف المشفق الذي يعلم ما ينتظر من لم يغترف..

وذلك أصل الدعوة بعد ابتغاء مرضاة الله

الحرص على الخلق والخوف عليهم من مصير مجانبة الحق

إنها دعوة الفطرة، والحق، والخيرالعظيم، والنصيحة، والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين

دعوة نصوح نافعة بهيجة، يجللها الحرص على الإفادة وتفوح منها الرغبة في الخير للمدعو

ألا هكذا فلتكن الدعوة وعلى ذلك فليكن الداعية.

ويالها من قلوب قاسية تلك التي لا تستجيب لمثل هذا الحرص، ولا تتجاوب مع كل هذا اللين والحكمة والموعظة الحسنة

ولقد كانت كلمات مؤمن آل فرعون بمثابة نصيحة نموذجية شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال وتدرجت من المنطق العقلي لتمر بالمعالجة الإيمانية ثم تختم بإعلان واضح لتفويض الأمر كاملا لله بعد تمام بذل الوسع

منهج دعوي متكامل لم يخل من البعد التاريخي، وزينه تواضع الداعية وأدبه واحترامه للمدعو

إنه كما قلت خطاب دعوي متكامل يحتاج إلى إدراك تكامل أبعاده أولئك الذين تصدروا منابر الدعوة وتعليم الناس ونصحهم

وفيما يلي تفصيل ذلك:

يبدأ الرجل المؤمن بيانه لقومه ويصدر نصيحته بمخاطبة عقولهم بمنطق بسيط واضح

﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾

هذه هي البداية

موسى لم يقل قوله دون بينات وحجج وأنتم قد رأيتم هذه البينات والحجج ولم تستطيعوا دحضها بل غُلبتم وانقلب سحرتكم صاغرين

فلماذا القتل

وهل تواجه البينات والحجج الداحضة بالسيوف؟!

ثم لنفكر بطريقة منطقية أخرى

هب أنه كاذب كما تزعمون فما الضير الذي سيصيبكم إن تركتموه يقول قولته

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾

عليه وحده لن يضيركم شيئا

لكن لو كان صادقا وآذيتموه أو صددتم عن سبيله فالويل كل الويل

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾

مرة أخرى اطمئنوا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

لو أن موسى من هذا النوع –وحاشاه– فلن يهديه الله

فلماذا التآمر عليه وما الداعي لقتله؟!

هكذا أقام الرجل المؤمن حجته العقلية ببساطة ويسر وليظهر المعلم الأول من خطابه الدعوي

مخاطبة العقل واستعمال المنطق الحاسم

ثم التواضع والأدب الجم..

ملمحان من الملامح الواضحة في شخصية مؤمن آل فرعون والتي تظهر جلية على كلماته التي وجهها لقومه أثناء دعوته لهم ليؤمنوا

ظهر ذلك التواضع عدة مرات في نداءاته المتكررة التي لم يستنكف أن يظهر فيها خوفه والتي سبق وأشرنا إليها

يصعب جدا على المتكبر أن يعترف أنه يخاف

لكن مؤمن آل فرعون أعلن خوفه على قومه والهم الذي يجيش به صدره خشية العذاب الذي سينالهم

وخوفه كان ممزوجا بالمودة والدماثة

لقد نجح في أن يظهر في طيات خوفه تلك المودة والرحمة بأهله ليفهم الجميع أن خوفه نابع عن حب

وتجلى ذلك بأوضح صوره حين نسب إليهم وحدهم الملك ولم ينسبه لنفسه معهم رغم أنه منهم

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

لكن لما جاء دور المصير وحان وقت التخويف من بأس الله = شمل نفسه معهم

﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾

هاهنا ضمير المتكلم الذي يتعلم منه كل داعٍ إلى الله درسا غاية في الأهمية

لا تدعو الخلق من برجك العاجي
لا تشعرهم أنك أفضل منهم أو تستعلي عليهم بدعوتك
كن جزءا من واقعهم يشملك ما يشملهم
لكن إن جاء دور المغنم وذكر المُلك والجاه فإن استطعت أن تنأى بنفسك عن ذلك فافعل
فلير الجميع أنك زاهد فيما بأيديهم وأنك لا تسعى لنيل متاع دنياهم لكنك مع ذلك واحد منهم
وقد يصيبك ما يصيبهم
﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾

و يظهر بوضوح على خطاب مؤمن آل فرعون ذلك التوازن بين الترغيب والترهيب..

إنه كما سبق وأوضحت أحد نماذج الخطاب الدعوي المتكامل الذي احتوى بين حروفه جميع أركان الدعوة التي تطرق على أبواب الأنفس المتباينة لعل أحد تلك الأبواب الموصدة يُفتح ليتسرب من خلاله نور الحق
ومثل هذا الخطاب الشامل لا يخلو من ترغيب وترهيب وصلة بالمآل والمصير سواءً كان دنيويا أو أخرويا
لذا ستجد في خطاب المؤمن الإشارة إلى القرار الأخروي وتصحيح النظرة للدنيا التي هي مجرد متاع فانٍ بالنسبة للآخرة الباقية
﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

لكن هذا المتاع ايضا قد يزول بل قد ينقلب إلى عذاب إن لم يرع الإنسان حق النعم التي يحويها

من هنا ستجد الترهيب من العقوبة الدنيوية وضرب نماذج لأقوام لاقوا تلك العقوبة

﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾

ثم يعاود الكرة ليُذكِّر بالآخرة والترهيب من العقوبات التي تكون في تلك الدار

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

ثم يأتي التصريح بذكر الجنة وما فيها من رزق منهمر بغير حساب

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

وهكذا ينتقل المؤمن في دعوته بين الترغيب والترهيب وينتقي من بساتين الوعظ قطوفا دنيوية وأخروية يحاول بها استمالة تلك القلوب القاسية

هذا الخطاب المتوازن الذي يحمل جميع عناصر الترغيب

والترهيب الدنيوي والأخروي يعده بعض متنطعي اليوم = نقصا وسطحية في الطرح ويظنون أن شقشقاتهم وفلسفاتهم المتكلفة هي أغنى وأعظم ثمرة وأشد تأثيرا وقدرة على التغيير من ذلك الطرح القرآني الذي ضرب له مثلا بشخصية هذا الرجل المؤمن الذي لم يستنكف أن يستعمل هذا الأسلوب الذي يتعالون عليه

أسلوب الترغيب والترهيب..

ولم تخل دعوة مؤمن آل فرعون من العمق التاريخي ولم تغب عن خطابه الجوانب الثقافية والمعرفية

لم يكن داعية ذا فقر معرفي أو كان خطابه الدعوي مفتقدا لعناصر الجذب القصصي ولكن على العكس كان نموذجا للداعية القادر على استحضار تاريخ أمته واستدعاء شيء من الأحداث التي مرت بها وأثرت في مسارها ووضع ذلك في الإطار المناسب لاستعماله في دعوته

ظهر ذلك في استدعاء الرجل لسيرة نبي الله يوسف عليه السلام واستخلاص العبر والعظات منها

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾

كأن الرجل ينبه قومه إلى تجذر تلك الآفة فيهم وفي أسلافهم

إن لهم سوابق شك وتكذيب بالحق لما جاءهم

لقد فعلوها من قبل مع يوسف رغم ما له من منة على أهل مصر إذ رسم لهم خطة النجاة من المجاعة

مع ذلك وجد الشك في دعوته طريقا إلى قلوبهم

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾

كأنكم قد ارتحتم بهلاك رسول وظننتم أن تتركوا دون نذير وأن يذركم الله لتفلتكم وإسرافكم على أنفسكم

لكن هيهات
ها قد جاءكم موسى
وها قد نبهكم من آمن به

ولعل من أهم وأرقى الخصائص التي اتصف بها مؤمن آل فرعون وظهرت على خطابه بشكل واضح كما ظهرت على سائر الخطابات الدعوية في القرآن وعلى كافة حاملي الرسالة = التركيز على الهدف وعدم الانصراف للمعارك الجانبية التي يحاول المبطلون إشغال الداعي بها

وفرعون من محترفي تلك الطريقة بامتياز
لقد فعلها مع موسى من قبل أكثر من مرة

بمجرد أن أتاه موسى برسالته وطالبه بإرسال بني إسرائيل معه حاول فرعون صرفه إلى معارك جانبية
﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

كان من الممكن لنبي الله موسى عليه السلام أن يرد بردود كثيرة وأن يبرر مقتل الرجل المصري

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد قتله
كان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا وأنه كان يدفعه
كان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم
كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير..

لكنه لم يفعل!

لم يستدرج إلى مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال
إنه صاحب رسالة جاء لمهمة ولديه هدف عليه أن يحققه

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر بسيط قائلا: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

نعم قد فعلت ولن أقف طويلا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث وقد نُفيت بسببه سنين عددا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين
فعلها وتاب عنها واستغفر في حينها ودفع الثمن من سنين غربته وإبعاده

فعلها إذن ولم يبررها أو يزينها

ثم عبر إلى الأهم

إلى دعوته ورسالته

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات ليذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الاشخاص والأحداث ويسمو على التفاصيل والزلات

دعوته إلى ربه

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

استمر فرعون في تشغيبه وتشويشه بالمعارك الجانبية

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾

لم يلتفت موسى وأكمل: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فما كان من فرعون العاجز عن رد الحجة بمثلها إلا أن استمر في تفاهاته وحماقاته

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

تشغيب بالسباب والإهانة والانتقاص والتشكيك في شخص الداعي

فهل التفت موسى أو رد هذه التهم السفيهة عن نفسه؟!

أبدا

بل استمر في مهمته السامية

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

هنا أفلتت أعصاب الطاغية وظهر تمام عجزه في إكراهه وإجباره وقمعه

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾

ومع كل هذا استمر موسى ولم يلتفت

ويبدو أن الرجل المؤمن قد تعلم الدرس من نبيه الذي آمن برسالته

لقد حاول فرعون اتباع نفس أسلوب التشويش المتهافت مع الرجل الذي قيل أنه ابن عمه فقابل دعوته بكلمته الفاضحة لحقيقته

وبعد أن كانت البداية ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ يدعي بها أنه حريص على الشورى واعتبار رأي من حوله إذا به يظهر حقيقة طغيانه

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

فهل التفت الرجل المؤمن أو انشغل بتشغيبه

الجواب: لا

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾

استمر في دعوته غير آبه بترهات فرعون التي وصلت إلى مستوى من السماجة والضحالة لم يسبق له مثيل

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾

إنها نبرة مألوفة من نبرات سخرية وربما حماقة الفراعين..

هل تمزح يا فرعون؟

أى صرح من الطين ذلك الذي سيبلغ أسباب السماء؟!

أوبعد كل تلك الحجج والبينات التي أتاك بها موسى، ورددها مؤمن آل فرعون على

مسامعك لازلت تكابر، وتتحدى، وتمارى؟!

ما أثقل ظل الفراعين وما أشد سماجة الطاغين

الحقيقة أنها ليست شبهة أصلًا فقد ختمها بقوله: وَ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾

إنه كالعادة التشغيب والسخرية والتسفيه وتزيين سوء العمل والصد عن السبيل

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾

ومثل هذا لا يلتفت إليه

لذا لم يلتفت إليه الرجل المؤمن من آله وأكمل دعوته الهادئة الوضيئة واستمر في أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله..

البلاغ عن الله..

الدعوة إلى الله..

أكمل موعظته دون التفات لسماجة أو سخرية وتشغيب عساها أن تجد قلبًا ينشرح لها، بدلًا من قلب هذا الطاغية القاسي المظلم العتيد..

أكمل كأن لم يسمع تلك الشبهة التافهة

أكمل لأنه يعرف هدفه ولا ينشغل إلا به

وكذلك حامل الرسالة

ليس لديه ترف تضييع الوقت في معارك جانبية فلا ينشغل إلا بهدفه ولا ينفق وقته أو يضيع حياته القصيرة إلا ابتغاء تحقيقه والعمل لأجل الوصول إليه

ثم يختم الرجل المؤمن بلاغه، ويتم دعوته، ويكلل جهده بتسليم مطلق وتفويض تام لملك الأنام

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

لم يشترط حدوث الإستجابة ولم يربط دعوته بامتثال أو قبول من مدعويه كما يفعل البعض

بل فوض أمره إلى من إليه يرجع الأمر كله

قد كفى ووفى وأدى ما عليه وجاء دور التوكل

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾،

إذن فليفعل فرعون ما يشاء

فليرغ ويزبد، وليستشط غضبا، وليملأ قصره بصدى غيظه = فلا ضير

فليكد له كما يريد، وليمكر به كما يحب فلن يصل إليه!

لقد فوض الرجل إلى قدير، وقد صدر الأمر الإلهى، واشتملته دروع الوقاية، وترست دونه متاريس الحفظ

لن يصلوا إليه، فقد وقاه الله سيئات ما يمكرون

أما فرعون ومن حوله من المهللين فقد قضى فى أمرهم وحاق بهم سوء العذاب ولعذاب الآخرة أشق ولكن أكثر الناس لا يعلمون

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾



٣. السحرة

مهما كانت درجة الباطل التي عليها الإنسان

ومهما تردى في هاوية الإجرام وتقلب في دركات الآثام وطال عليه الأمد في تلك الدركات الموحشة = فلا ينبغي أن يُفقد الأمل في هدايته

ولا أن يقطع الأمل في إصلاحه

ليس لك من الأمر شيء

إن قومًا جمعوا كيدهم وأتوا صفًا واستعلوا وسحروا

وكل ذلك في مواجهة من؟!

نبي مكلم ورسول من أولي العزم

تخيل المشهد...

قوم يضادون نبيًّا ويتحدون رسولًا ليكذبوا دعوته ويستعينوا بسحر أسود حالك يبغون دحره

ثم سجدوا...

بل أُلقوا سجدًا

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾

سجدوا لإله قد كانوا مذ لحظات يحاربون نبيه ويكذبون بدينه!

سجدوا في الساحة نفسها التي كانوا يصدون فيها عن سبيله ويسترهبون الناس ليردوهم عن ملته

ثم اهتدوا...

لم تصدهم آثام ولم تمنعهم تعاويذ ولم تعطلهم دركات طالما تقلبوا فيها ولم يغرهم منصب موعود ولا ثراء منشود

سجدوا رغم كل شيء

ولابد لمن يتعرض لجوانب شخصيات سحرة فرعون أن يفرق في تناوله لها بين مرحلتي قصتهم

مرحلة ما قبل السجود

وما بعده..

إنه نموذج ثري للغاية لنمطين في غاية الأهمية..

نمط سحرة الطاغية ولكل طاغية سحرته

ونمط متقبلي الحق بقبول حسن وآخذيه أخذا جميلا

وشتان ما بين الشخصيتين رغم أن كلا منهما لذات الإنسان

لكن هذا ما يفعله الإيمان

إنه انتقال محوري من شعار ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ إلى مبدأ ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

الشعار الأول هو ما كان يشغل السحرة في البداية

الأجر الدنيوي والعائد المادي والقرب من السلطان

ولقد قرأ فرعون هذا الطمع في سؤالهم فزاد في إجابته على مطلبهم بأن طمأنهم على موقعهم منه فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

ستكونون قريبين من السلطان

ستكون لكم حظوة لديه وزلفى عنده

سيكون لكم «ظهر» فلن يجرؤ أحد بعد اليوم على ضرب بطونكم

يالسعادتهم وحماستهم بعد هذا الوعد من الطاغية ذي الأوتاد

لكن هذا كان قبل السجود

قبل أن تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بالرب المعبود

وبعد أن كان كل همهم الدنيا وأجرها قبل لحظة الشهود لآية الرب الودود قالوا لمن هددهم بزوال تلك الدنيا بل بزوالهم عنها:

﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

وهذه من أزكى ثمرات المعرفة وأشهى قطوف العلم بالله

أن يستقيم الميزان وتبدو الدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت في مواجهة مع إرضاء الله وما عنده

حينئذ يرتفع الشعار الثاني عاليًا خفاقًا نقيًّا رقراقًا يردده العارفون: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

ويُنظر عندها إلى كل تهديد وتخويف بمنطق: ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

وهنا يبدو القرار واضحًا وترجح كفة الآخرة حين تعلم قيمة الدنيا فيكون القرار

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾

افعل ما بدا لك

تخير أعلى ما خيلك واركبه

اقض بقضائك واتخذ قرارك فلربما تستطيعه في تلك العاجلة الحقيرة التي تضاءلت في نظرهم وحقروها فهان عليهم ذهابها ولم يحزنوا على فواتها

هذا ما حدث حين عرف السحرة مولاهم الحق وعاينوا شيئا من باذخ قدرته وعظيم صنعه = فتكشفت لهم تلك القيمة الحقيقية للأشياء وبدت لهم المعايير الصحيحة فما ترددوا في الاختيار بين الدنيا وما عند الله

إن معرفة الله إذا استقرت حقا في قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة على أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتى

قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسًا على عقب – بل هي في الحقيقة تعتدل- وذلك حين يعرف الله حق المعرفة فيرى الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان مختلف كما فعل السحرة

إنه ميزان المعرفة

لكن قبل هذا الميزان كان الأمر مختلفا وكان الوصف مباينا وكانت المرحلة الأولى الأطول من حياتهم

لقد كانوا سحرة..

ولابد للطغاة من سحرة!

إنه نمط لا يستغني عنه ظالم ولا يزهد فيه مستبد..

لابد للطغاة من سحرة يزينون باطلهم ويحسنون فسادهم وإفسادهم ويجمِّلون بغيهم ويشرعنون بطشهم ويسوِّقون باطلهم

لقد كان لصاحب الأخدود ساحره الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليُعبِّدَهم لمليكه

وكان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم

ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم!!

وإن جريمة ساحر الطاغية قد تكون أشد وطأة من جريمة الطاغية نفسه

ذلك بأن الطاغية قد يُطاع خوفا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحا أمام جبروته لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حين تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم فيرفعون رؤوسهم في وجوه الظالمين ويصدعون بالحق غير خائفين لوم اللائمين وبطش الطاغين والجبارين ما دام في ذلك ذات الله رب العالمين

لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي بل والاقتناع والسعادة وربما الانبهار بصنيع الطواغيت ويرسخ تعظيما لهم في نفوس الناس حتى يستمرئوا الذل ويتلذذوا بالهوان

باختصار الساحر يصنع جيلا ممسوخا من المقتنعين بقمع النار والحديد بل ومن المطالبين بالمزيد والمزيد والفرحين بأنهم للطواغيت عبيد

وخطأ عظيم وخلل شديد ذلك التهوين من شأن السحرة وسحرهم ولقد وصفه ربنا في كتابه بأنه عظيم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾

لكن مهما بلغت عظمة سحرهم وقوة خداعهم وحدة مكرهم فإن الله سيبطله..

ذلك لأن أصل سحرهم = كذب واسترهاب وجذوره = بطلان وضلال، وحقيقته = تسويغ لطغيان وظلم واستبداد وكل ذلك جماعه الفساد والإفساد والله لا يحب الفساد..

ولقد بين في كتابه مآل ذلك على لسان نبيه موسى قائلا ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ويتنوع السحر حسب الزمان والمكان وليس كل السحر حبالا وعصيا أو تعاويذ وأعمال بل إن من البيان لسحرا كما صح عن النبي ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم

وإن السحرة ليتقنعون بشتى أنواع الأقنعة ويتدثرون بمختلف الهيئات والأغلفة التي تخفي زيفهم وتستر حقيقتهم

فما بين قناع مثقف وعباءة نخبوي وأصباغ غانية وطلاقة لسان خطيب مفوه أو سمت عالم ومتسنن = قد يتخفى السحرة خلف كل ذلك

فلا تغرنك يوما أقنعتهم ولا تخدعنك أستارهم ودثارهم وزيف سمتهم وانظر دوما إلى حقيقتهم
حقيقة أنهم يؤدون تلك المهمة الخطيرة

مهمة السحرة

وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم في النهاية لا يعدون قدرهم

مجرد سحرة

ولأن للطغاة ارتباطا وثيقا بالسحرة = فإن السحر يعد من أول ما يتبادر إلى أذهانهم حين يبرز لهم من يصدع في وجوههم بما يسوؤهم

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الأعراف

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ طه

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ يونس

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الشعراء

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ النمل

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات

هكذا كرر فرعون والملأ من حوله تلك التهمة الجاهزة التي يعرفونها جيدا

إنهم يظنون أن كل الخلق مثلهم يحتاجون للسحر وحيله للتلاعب بعقول الناس

نفس التهمة قيلت مرارا عن نبينا ﷺ

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ المدثر

﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾ القمر

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ الأنعام

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ ص

وليس نبينا وحسب بل هي تهمة جاهزة ترفع في وجه كل مصلح بصيغ مختلفة

قيلت للمسيح عليه السلام

﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ الصف

بل قيلت لسائر النبيين والمرسلين

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ الذاريات

هذا ما يعرفه المجرمون وذاك ما يتصورونه

ولذلك كانت نصيحة الملأ لفرعون ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾

لذا قرر فرعون أن يستعين بالسحرة ظنا منه أنه يفل الحديد بمثله

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾

ولقد جيء بالسحرة من كل حدب وصوب

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾

من كافة أرجاء مصر ومن مختلف قراها ومدنها جاءوا

جاءوا استجابة لأمر فرعون

ولقد كان عددهم عظيما وكان صفهم مهيبا

﴿حَٰشِرِينَ﴾

كان هذا هو اللفظ الذي استعمله الملأ من حول فرعون للتعبير عن كم السحرة القادمين للمواجهة

قيل: كانوا ثمانين ألفا. قاله محمد بن كعب.

وقيل: سبعين ألفا. قاله القاسم بن أبي بردة.

وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفا.

وعن أبن أمامة: تسعة عشر ألفا.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفا.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفا.

كل هذه الأقوال تنبيء بهول العدد الذي جمع لموسى

ولقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنهم كانوا سبعين ساحرا. وروي عنه أنه قال أنهم كانوا أربعين

وقيل في الجمع بين هذه الأقوال أن العدد المجموع من قرى ونجوع مصر كان بالآلاف وأن الأربعين أو السبعين الذين كانوا في مقدمة المواجهة تم اختيارهم من بين الآلاف لأنهم كانوا الأمهر والأقدر على ممارسة السحر بل قيل أنهم كانوا شيوخ هذا الفن وأساطينه

الخلاصة أن المشهد كان مهيبا

آلاف السحرة يتقدمهم قادتهم المحنكين يتبخترون بكبرياء الواثق من حرفته المتمكن من فنه

ثم تفاجئهم ثقة من نوع آخر ويقين له طعم مختلف وعزة لها بريق يسطع

ثقة بالله ويقين في وعده وعزة من عنده

﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾

ولأن بناء الباطل على شفا جرفٍ هار معرض للسقوط لدى أول هزة = فلقد اهتز السحرة!!

آلاف السحرة منهم أمهر أبناء تلك المهنة في القطر كله اهتزوا أمام رجل واحد

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾

قبل أن يروا ما عند موسى
قبل أن يعاينوا الآية التي معه
فقط سمعوا منه ورأوا آيات اليقين تبرق في ثنايا نبراته الصادقة قبل أن يروا آياته الإعجازية

مجرد أن تلقوا كلماته الحاسمة
مجرد أن لمسوا قوته في الحق وإصراره على ظهوره ارتبكوا
تنازعوا
والتنازع أول طريق الفشل
ولقد تصدعت أركان البنيان الهش وشارفت على السقوط واحتاجت إلى أن يثبتوا بعضهم البعض

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾

يذكرون أنفسهم بالتهمة الحقيرة التي تشاع عن موسى لعلهم يكذبون آذانهم التي لمست نوعا آخر من القوة ليست لدى أمثالهم
إنه مجرد ساحر متآمر علينا وعلى طريقتنا المثلى

مُثلى؟!!
أهي حقا كذلك
أيصدقون أنفسهم
لا أظن إنما هو خداع النفس لمحاولة استكمال المهمة القذرة
ولا يتم خداع النفس إلا بمزيد من الصياح والتشنج الأجوف
﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾
فليجتمعوا وليصطفوا وليستعلوا كما يشاءون

لقد وقع الاهتزاز داخل أنفسهم وتسرب التنازع والقلق أمام تلك القوة الكاسحة التي أبداها رجل واحد
قوة الحق

لكن السحرة يحرصون دوما على إظهار ثقتهم وإبداء اطمئنانهم
إنهم يعتمدون بشكل رئيسي على التأثير والإيهام ومن أنجح سبل الإيهام وتشكيل وعي الجموع ذلك الإيحاء المستمر بالثقة المبالغ فيها

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ الشعراء

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴾ طه

هم من يخيرونه

هم من يأخذون بزمام المبادرة

هم من يظهرون لا مبالاتهم بمن يبدأ النزال

إنها طريقة مدروسة وإيحاء مقصود مفاده أن الأمر لا يشكل لهم فارقا

ولقد رد موسى بثقة أيضا لكنها ليست مماثلة لثقتهم المصطنعة التي يستخفي من ورائها تنازعهم السابق

إن ثقته منبعها من حقيقة الرسالة التي يحملها

من علمه ويقينه بأن ما معه = حق

وشتان شتان ما بين الثقتين

ولقد أعطى موسى للسحرة زمام المبادرة الذي أرادوا التمسك به دون أن يأبه باستعلائهم الواضح

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾

تخيل المشهد

عشرات أو مئات وربما آلاف السحرة سينفخون الآن وينفثون ويحتالون ويتمتمون بتعاويذهم ويعقدون عقدهم ويلقون أدوات سحرهم وشعوذتهم ودجلهم

﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

هكذا أعلنوها قميئة سخيفة سمجة

عزة فرعون

لابد من الشعار

العنوان

لابد ألا ينسى السحرة في كل مكان وزمان وظيفتهم

إنهم مجرد ملمع لنعل فرعون وكل إمكاناتهم مسخرة لهذا الهدف

تزيين فرعون وشرعنة وجوده وترسيخ الهتاف باسمه والتشنج لأجل عزته

ما علاقة عزة فرعون بحرفتهم وما دخله بمهنتهم وفنهم؟!

إنهم يعتمدون في الأصل على نفخهم ونفثهم وعقدهم وغالبا لا يعبدونه كما يفعل العامة فللسحرة عقائد وعهود أخرى

لماذا إذن فرعون وعزته في هذا السياق؟

إنها الغاية من الإتيان بهم كما أسلفت

هذه وظيفتهم

وتلك دوما مهمتهم

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

هذا تمامهم وتلك دوما غاية مقدرتهم

الأعين

وعبر بوابة العين تدلف الرهبة للقلب

لا شك أن سحرهم كان عظيما وتلك شهادة القرآن عليه كما أسلفت

لكنه مع عظمته لم يكن إلا وهما

خيالا

صورا غير حقيقية

لم تكن ثمة أفاعٍ أو حيات

فقط عصي وحبال

لم يكن ثمة تحول حقيقي

الصورة فقط هي ما استطاعوا تغييره

وهذا شيء ليس بالهين

ورغم زيف ما فعلوه ورغم كونه مجرد وهم إلا أنه ترك أثرا على جميع الحاضرين

حتى موسى..

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾

النبي المكلم والرسول من أولي العزم أوجس خيفة

الأمر مرة أخرى ليس هينا وأثر الصورة لا يمكن إنكاره وإن المهونين منه المستهينين به هم في الحقيقة يخدعون أنفسهم وينعزلون عن واقعهم

السحرة لا يلعبون ولا يمزحون بل هم يؤثرون فعلا وينفذون إلى قلوب الناس عبر أعينهم ولقد كان الأمر يستدعي تدخلا سريعا وحاسما لإنقاذ الموقف والسيطرة على هاجس الخوف الذي تسرب لنفس موسى عليه السلام

وقد كان...

كان التوجيه الرباني مباشرا وسريعا وواضحا

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾

الأعلى بإيمانك

بمعية الله لك

بيقينك في الحق الذي تحمله

فكيف تخاف إذا؟!

وهاهي الآية الربانية في يمينك فلتذكر بها

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾

ولتتذكر معها القاعدة التي تزيح أي خوف وتمحو أي أثر لأي ساحر

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾

عندئذ زالت هواجس الخوف من قلب الكليم عليه السلام وألقى العقيدة على أسماعهم قبل أن يلقى ثعبانه على حبالهم وعصيهم

﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾

إنه السحر

مهما بدا غير ذلك سيظل سحرا

وما دام سحرا فإن الله سيبطله هذه هي القاعدة المتفرعة عن الثابت العظيم الذي يغفل عنه كثير ممن يخشون السحرة ويرهبوهم

ثابت:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ثم ألقى موسى...

وما بعد إلقائه لم يكن أبدا كما كان قبله

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

والسحرة ليسوا بجاهلين

إنهم يدركون ما حدث ويفهمون الحقيقة جيدا فالساحر قد يسحر أعين الآخرين لكنه أبدا لا يسحر عينه

إن ما جاءوا به إفك وها هو يلتهم أمام أعينهم وهذا الذي يلتهمه حق مبين وليس وهما كالذي صنعوه

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴾

لقد كانت الهزيمة مروعة والفضيحة مدوية وأقسى ما فيها على فرعون أنها كانت على الملأ

لكن السحرة في تلك اللحظة لم ينشغلوا بهذا كله ولم ينتبهوا إلى الصغار الذي أصاب فريقهم

إن ما كان يعنيهم في تلك اللحظات أمر آخر تماما

إنها الآية

الحقيقة التي سحقت إفكهم

هذا ليس سحرا ولا يشبه السحر

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ألقي

من الذي ألقاهم

من الذي أسجدهم

كأن قوة ما قد دفعتهم دفعا للسجود مضطرين..!

قوة تسربت بشاشتها إلى قلوبهم ثم لم تلبث إلا ونضحت على جوارحهم فلم يتمالكوا أنفسهم ولم تحتملهم أقدامهم فخروا للأذقان سجدا خاشعين..!

تلك القوة التي اضطرت جوارحهم للسجود هي النابعة من رؤيتهم الآية

المعجزة

معجزة يرى كل منا مثلها يوميا، وربما لا يكون رد فعله قريبا أو

مشابها لرد فعل السحرة ولو حتى بسجود القلب مسبحا ومعظما هذا الخالق الذي أبدع ذلك الذي يعاينه..

يعاين مثل ذلك في نطفة تتحول إلى مخلوق يسمع ويبصر ويملأ الدنيا صخبا، ويراه أيضا في تحول حبة في ظلمات الأرض إلى نبتة مخضرة يأكل منها الناس والأنعام... وغير ذلك من آيات الخلق وبديع التصوير الذي لا يقل عن آية العصا..

ولولا إلف العادة ونقصان التأمل والتدبر في خلق الله؛ لما وسع الناظر إلى تلك الآيات الكونية إلا ما وسع السحرة فيلقى ساجدا ومسبحا ومعظما إلها ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾..

إن تحول عروق الخشب في عصا موسى إلى عروق تنبض في جسد ثعبان مبين يلقف حبالهم وعصيهم جعلهم لا يتمالكون أنفسهم

ولقد سجدوا

وبدأت مرحلة مختلفة تماما من حياتهم..

قصيرة هي.. لكنها على قصرها كانت مثمرة
لقد أثمرت شهادة وولوج جنة
فما أعظمها

لكن قبل أن نتناول هذه المرحلة من حياة السحرة ينبغي أن نرنو بأعيننا إلى مشهد آخر

مشهد الملأ

لقد غلب

وحان وقت تنفيذ الشرطين

ذلكما الشرطين اللذين اشترطهما الملأ من قوم فرعون على أنفسهم في مقام المواجهة الحاسمة التي دعوا الناس إليها للفصل بينهم وبين موسى عليه السلام

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾

الأصل والمنطق يقتضيان أن يقتصر الشرط في مقام المفاصلة بين الحق والباطل على اتباع من ظهر الحق على يديه فيكون بناء الجملة المتوقع = لعلنا نتبع الغالبين

لكن الهوى المسبق ظهر في مفتتح دعوتهم

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ....

ثم أتى الشرط الأنيق الذي ما قيل إلا ذراً للرماد في الأعين كما ظهر بعد ذلك

إن كانوا هم الغالبين

فلا هم التزموا شرطهم الأول ولا الثاني وقد أقيمت عليهم الحجة في الأمرين معا

الغالب كان موسى

والسحرة آمنوا بالله

ورغم ذلك لم يتبعوا السحرة ولا اتبعوا من غلب وظهرت آيته وانتصرت حجته

لم يكن الاتباع المزعوم للسحرة لذواتهم ولم تكن المفاصلة رغبة في ظهور الحق واتباع صاحبه بل كان الأمر ببساطة مجرد قناع لتلك الحقيقة التي أطلت برأسها في تلك المفاصلة وفي كل مفاصلة

حقيقة أن الاتباع مشروط بما وافق الهوى والغلبة المنشودة هي غلبة القوة والبأس وليست غلبة المنطق والحجة والبينة والبرهان

ما كان اتباعهم للسحرة إلا لأنهم من الفريق الأقوى

فريق فرعون

وما كان تصديرهم إلا لأنهم يوافقون أهواء القوم وسابق اعتقادهم فلما فارقوه سقطت قيمتهم لدى القوم وتبددت وعودهم السالفة وانهارت شروطهم الكاذبة

وكذلك أتباع الباطل في كل زمان على استعداد لإسقاط أي رمز أو متبوع إذا خالف هواهم وفارق باطلهم حتى يكاد المرء يحسب أن فرعون نفسه لو قام بينهم شاهدا على نفسه بسابق الكفر والإفساد = لما صدقوه ولأبوا أن يتبعوه إن فارق ذلك الذي عرفوه وتعودوه ولأسقطوه وبحثوا عن فرعون جديد يحدثهم بما يعرفون ويريدون..

لقد كان اتباعا للباطل أيـًا كان محله

أما السحرة فكانوا كما قلنا في شأن آخر تماما وكان ما يشغلهم أمر مختلف

لقد كانوا ساجدين

وبعد السجود بدأت المرحلة الأخرى وظهر الجانب الآخر من شخصية السحرة

وسنسميهم في هذه المرحلة بالسحرة فقط لأننا لا نعرف لهم اسما آخر لكنهم في الحقيقة بعد السجود والإيمان لم يعودوا كذلك

إن آخر ارتباط بين هذه التسمية وبينهم كان قبل السجود ﴿ **وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ** ﴾ من بعدها لم يذكروا في القرآن بهذه المهنة

إنهم الآن مؤمنين ساجدين

وبعد قليل شهداء مضحين

طبعا هذا السجود والإيمان لم يعجب فرعون ولم يستسغه وهو مدعي الألوهية وزاعم الربوبية فسألهم في تلك اللحظة عن حقيقة ذلك السجود وهل هذا يعني اجتراءهم على مقامه وأن أنفسهم سولت لهم أن يؤمنوا بإله غيره قبل أن يأذن لهم

في تلك اللحظات وبالحسابات المادية العاجلة ربما يكون الحل المؤدي للنجاة الدنيوية أن ينكروا ذلك وأن يزعموا ولو تقية أنهم لا زالوا على دينه

لكن الصواب في تقديرهم ساعة المفاصلة ولحظة الاعتراف بإعجاز الآية التي جاءهم بها موسى = لم يكن الإنكار

بل كان الصدق والاستعلان بما هم عليه من الحق

ولقد فعلوا

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

ثم كانت العقوبة وقُضي عليهم في الحياة الدنيا وقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا في جذوع النخل

بمعيار العاجلة لم يكن ما فعلوه هو الحل

ومع ذلك فإنهم قالوا وفعلوا ما كان في نظرهم أولى وأحق حتى وإن كان ثمنه في ذلك الموقف = حياتهم

فليس شرطا دائما أن يكون ما ينبغي عمله يحمل الحل اللحظي لجميع مشكلاتك أو مشكلات واقعك على الأقل على المستوى العاجل الآني

ومع ذلك على المرء أحيانا أن يفعله لأنه هو الصواب وإن لم يكن يحمل كل الحلول

والتكليف ابتداءً ليس بالحل وإنما بالمحاولة

ولو أن كل فاضلٍ عبر العصور أحبط ويأس وركن إلى الكسل

حين أُغلقت طرق الحل العاجل في وجهه أو تعقد واقعه فلم يشهد فتحا في حياته ولم ير نصراً آنيا ناتجا عن سعيه؛ لما أُحق حقٌ ولا صدع به صادع ولما أُبطل باطل ولركن الخلق للشرّ ولاندثرت المفاهيم وغابت الأصول

لكن أفاضل الخلق على مر العصور فهموا حقيقة الأمر واستعانوا بربهم ولم يعجزوا وساروا في طرائق الحل وسلكوا سبل المحاولة وإن لم يروا في حياتهم عاجل الثمرة كما لم يرها السحرة

لكن لماذا اختلف رد فعل السحرة على وعيد فرعون عن رد فعل موسى عليه السلام على تهديد ووعيد مشابه؟

رغم أن المعين واحد والمعتقد هو نفسه والتهديد في الحالتين مؤكد؛ إلا أننا نلاحظ فارقًا ظاهرًا بين رد فعل السحرة حين قرر فرعون تقطيعهم وتصليبهم وبين رد فعل موسى عليه السلام حين التقى الجمعان وقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾

لقد جزم موسى أنه لن يُدرك ولن يتمكن فرعون من إيذائه جزمًا تلخص في كلمة: كـلا

بينما استقر قول السحرة على إمكانية إلحاق الأذى بهم لكن ذلك في الدنيا ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ وبينوا أن هذا لن يضرهم إلا في تلك الحياة الفانية لكنهم بعدها إلا ربهم ينقلبون

لم يزعموا لذواتهم حصانة من البلاء ولم ينكروا أن فرعون قد

يقدر عليهم ويقضي ما هو قاضٍ فإنما يقضي هذه الحياة الفانية بل أقروا بوضوح أنه من الممكن أن ينفذ وعيده ويصلبهم ويمزق أجسادهم

الفارق ببساطة هو طبيعة الوعد الرباني في الحالتين

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسى عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد فيه جزم بأن الله تعالى معه هو تحديدًا.. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾،

وأنه لا محالة غالب عدوه

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

لذلك كان رد فعله يقينًا قاطعًا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعى المحدد لأعيانهم وشخوصهم والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية

لكن مع ذلك كانت هناك نقطة التقاء وتشابه رئيسية بين رد فعلهم ورد فعل موىى

إنه الثبات في الحالتين

سواءً كان الوعد المعين أو يكن

لذا كان رد فعل السحرة رغم معاينة العذاب الدنيوي إعلان الحق والثبات عليه ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ جنبًا إلى جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء على الباطل بلا أدنى ذلة أو استكانة أو وهن ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ فإن غاية أمانيهم ليست في تلك الحياة ولكن رغبتهم كانت فيما عند الله وجزائه الذي هو خير وأبقى ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

ولذلك ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

الخلاصة أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا لكنهم التزموا حدودهم البشرية ولم يتألوا على رب البرية بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدًا أطلقه الله سبحانه

إنهم رغم إيمانهم = ليسوا إلا بشر ا فانين وهذه الدنيا مجرد مرحلة قد يُنصرون فيها أو يُتوفَّون ومثل ذلك قيل لمن هو خير منهم ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾

الاحتمالان قائمان إذاً

ومن دون وعد صريح ووحي قاطع فليس لأحد كائن من كان أن

يزكي نفسه فيجزم أنه بعينه منصور غالب أو أن أحدا لن يقدر عليه... أبدا

وقد يعجب المرء حين يسمع ردود السحرة على تهديدات فرعون وحين يتأمل ذلك التحول الجذري الذي طرأ عليهم بعد الإيمان وكيف أن عبارات من أروع ما قيل في الصدع والبيان عن الله والدار الآخرة قد خرجت من أفواههم التي كانت منذ فترة قصيرة تتمتم بتعاويذ السحار وطلاسم المشعوذين

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

ما هذا الفهم وما ذلك التصور والمعتقد الواضح النقي الحاسم

كلمات نورانية محكمة تضيء بالعلم والوعي

كلمات لها ثمن باهظ ولقد دفعوا الثمن من دمائهم ليكللوا القول بالتضحية والبذل

كلمات لم يكن يتصور أحد أن تخرج منهم

لكنها خرجت

كيف عرفوها ومتى تعلموها؟!

هل كانت ثمة دعوة مسبقة قد بلغتهم؟!

أم قد يكون وصل إليهم ذلك الحراك الدعوي الذي قام به موسى وهارون حتى اخترق عقر دار فرعون نفسه = فآمنت زوجه الطيبة وآمن الرجل من آل بيته وآمنت ماشطة ابنته؟!

أم هي تلك الفتوح التي تتنزل على القلوب المؤمنة حين تصدق في إيمانها فتخرج كلماتها حية وضيئة؟!

ربما هذا وربما ذاك

المهم أنهم تكلموا وأن كلماتهم كانت تحمل وقعا مختلفا تماما عن ذلك الذي كانت تحمله قبل السجود

وقع الإيمان

لكن رغم الطابع الإيماني المبهر والجانب الأخروي الواضح الذي تميزت به ردود السحرة على فرعون وتهديداته = فإن خطابهم لم يخل من واقعية وإدراك لأبعاد الصراع ولم يجعلهم إيمانهم بالدار الآخرة وسعيهم لجنتها في معزل عن حقائق الأشياء ودلالات الأحداث فقالوا مبينين ذلك بكلمات قاطعة حاسمة:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾

هذه هي حقيقتك يا فرعون

تنقم منا الإيمان!

تنتقم لقبولنا الآيات البينات!!

هذا ما فهمه السحرة من سؤال فرعون الاستنكاري الذي ظهرت فيه بحماقته المعهودة حقيقة نواياه

﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾

﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ ﴾

هذه هي العلة الذي ثارت لأجلها ثائرته وجن جنونه

لقد كان انزعاج فرعون بسبب التفلت من سلطانه على الأفكار وسيطرته المحكمة على إرادة شعبه، وليس فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوى تلك العقيدة التي اعتنقوها أو الأفكار التي تشربوها.

لم تكن المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله، المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة

إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة

إيمانًا يتحرك بالأمر، وعقيدة بلا عقيدة.

﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾!

القضية المبدئية هنا كانت تكمن في الإذن،

في التصريح،

في الاختيار بمنأى عن إرادة فرعون والخروج عن طوعه والاستقلال عن مذهبه ومعتقده،

في التحرر من سلطانه وسيطرته حتى على الأفكار والمعتقدات.

إن فرعون يرى لنفسه الحق المطلق في تحديد أفكار الناس، وفي تقييمها، في تقسيمها وتصنيفها،

في الحكم عليها وعليهم، وفي ثوابهم وعقابهم،

في توزيع صكوك الاستحقاق عليهم، وفي تحديد أدوارهم ومهماتهم.

فرعون يرى لنفسه فقط الحق في أن يحكم ويحاكم، ويعطي ويمنع، وينعم ويحرم، ويحل رضوانه على من يوافقه وينافقه، وينزل سخطه على من يخالفه ويرفض أفكاره ويتحرر من سطوته.

وهو لا يستطيع العيش إلا مع عبيد يهللون له ويباركون كل خطواته، أما من كان له رأي أو فكر أو إرادة خارج إطار إرادته وفكره فهو عدو له، متآمر على دولته لابد أن يزاح عن طريقه.

هنا يأتي دور التشويه والدعاية السوداء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾

أيها الخونة المتآمرون! إنه زعيمكم ومعلمكم، إذن وما موهبتكم وصنعتكم السحرية إلا جزء من تلك المؤامرة الكونية على دولتنا البهية!

تناسى فرعون في لحظات أنه هو من أتى بهم من أنحاء القطر الواسع، وجمعهم بجنده واختارهم على عينه، تناسى فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته الآنية وحضارته القوية؛ فقد تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث بعد قليل للخونة المتآمرين، الذين كانت جريمتهم السجود،

وخطيئتهم ترك الاستئذان قبل الإيمان، ونسيانهم الحصول على تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني.

ففرعون فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لك أن تتبع وأن ترى فقط ما يرى، وهو يحتقر ويزدري ويسخر ويستهزئ بمخالفيه، ويظهر ذلك الاستهجان والتحقير في كلامه عن معارضيه ووصفه لهم بكل نقيصة؛ فهو فقط عند نفسه الأعلى والجميع دونه، وهو فقط الأعز والجميع أذلاء إليه، وهو وحده الحر والجميع عبيد له، وهو وحده الرشيد والجميع همج رعاع لا يرقون لفكره ولا يقتربون من عبقريته.

ولقد أدرك السحرة كل ذلك ولخصوه ببساطة جامعة مانعة

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾

بعد هذا البيان وإظهار حقيقة ما يحدث يأتي وقت الدعاء

وما أجمله وأجمعه

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

إن خطاب السحرة بعد إيمانهم يظهر بوضوح حقيقة الغاية والهدف الذي حين يترسخ في الوعي = يهون كل شيء مهما بدت صعوبته

لقد أظهر السحرة ذلك من خلال إثبات ونفي..

هذا الإثبات وذلك النفي كانا متعلقين بعدوهم الطاغية الذي يعتبر نموذجا يضرب به المثل لسائر الطغاة عبر العصور

لقد أثبتوا له قضاءً وأثرا على عاجل دنياهم ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

ونفوا الضير

﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ ﴾

كيف؟!

تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم وتعذيبهم؛ كل ذلك لا يعتبرونه ضيرا رغم إقرارهم بإمكانية وقوعه

السبب ببساطة هو وضوح الغاية الذي تحدثنا عنه والذي يظهر بعدها مباشرة

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

هذا هو ما ترسخ في أنفسهم فصار الهم الحقيقي الذي تحمله صدورهم هو هم ذلك اللقاء وتلك الساعة وأزاح من هذه الصدور كل هم آخر مهما بلغت قسوته

﴿ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

هذا هو الهدف وذلك هو المراد الذي انشغلوا به

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾

إن هم الآخرة إذا استقر فعلا في قلب العبد = كفاه الله كل الهموم ولقد كان السحرة مثالا لحمل هذا الهم والانشغال الحقيقي به

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

الجنة والنار

بهذه البساطة والوضوح بينوا حقيقة انشغالهم وغاية سعيهم

هذا الخطاب الواضح المباشر يستخف به كثير من الخلق مشككين في جدواه وزاعمين أنه لا يؤثر إلا في محدودي العقول فيتكلفوا خطابا آخر معقدا ظنا منهم أن ذلك أجدى وأنفع بإطلاق

بينما لم يستنكف السحرة رغم ما لديهم من العلم السائد في عصرهم قبل الإيمان ورغم بطولتهم في الصدع والتضحية بعد الإيمان = أن يعلنوا ببساطة حقيقة الأمر

رضا الله والجنة

هذه هي حقيقة الغاية والهدف دون تقعر أو تعقيد

رضا الله

والجنة...



٤. بنو إسرائيل

كم مرة ذُكِّروا بالنعم؟!

كم مرة خوطبوا بالتفضيل؟!

كم مرة نجاهم وسلمهم وعافاهم بل وعفى عنهم؟!

والأهم قبل كل ذلك أنه.... قد اختارهم!

نعم.. لقد اختارهم ربهم تلك حقيقة قرآنية لا مراء فيها

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الدخان ٣٢)

إذن فقد كان بنو إسرائيل يوما ما شعبا مختارا ومفضلا

ولقد صرح موسى بهذا التفضيل: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف ١٤٠)

ولطالما ذكرهم الله جل شأنه بهذا التفضيل في سياق الإنعام المتكرر

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(البقرة ٤٧)

وتكرر ذات التذكير في السورة نفسها في الآية الثانية والعشرين بعد المائة

وليس التذكير بالتفضيل والاختيار فحسب بل كثر في القرآن بيان

تفضيل من نوع آخر وهو الإنجاء المستمر في أحلك المواقف ومع انقطاع الأسباب تماما

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الدخان ٣٠، ٣١)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة ٤٩، ٥٠)

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف ١٤١]

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم ٦]

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه ٨٠]

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف ١٣٧]

ما سبق شيء من التذكير بنعمة النجاة تكرر بمعدل لا نعلم مثله في حق أحد غير بني إسرائيل

ثم ماذا بعد نعمة النجاة

مزيد من النعم تتوالى تترا

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [سورة البقرة ٥٦ - ٥٧]

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة البقرة ٥٨]

﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [سورة البقرة ٦٠]

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾

تظليل وأرزاق تنزل من السماء وسقيا وإجابة دعاء وفرص لرغد العيش وكل ذلك مقرون بحط الخطايا والعفو المتكرر

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
[سورة البقرة ٥٢]

ثم ماذا بعد؟!

كيف قابلوا كل هذه النعم؟!

كيف تعاملوا مع كل هذا الفضل والتفضيل؟!

الإجابة معروفة وواضحة

كل ما أن يوصف بالجحود أو الوقاحة وسوء الأدب أو البطر والانكران أو التمرد والعصيان = يمكن أن يدخل في إجابة هذا السؤال عن مقابلة بني إسرائيل لتلك النعم

إجابة تلخصها كلمة واحدة

القسوة

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وقد يتعجب البعض حين يتأمل مدى ما وصل إليه السياق القرآني في الحديث عن بني إسرائيل والتفصيل في وصف عقوباتهم ومآلاتهم الدنيوية والأخروية واللعن والغضب الإلهي الذي أمعنت الآيات القرآنية في بيانه

لعل ذلك العجب يزول ولعلك تدرك شيئا من بشاعة ما بلغوه ومدى جريمتهم حين تتعرض أنت نفسك للجحود والنكران والإيذاء من قِبل شخص مفضل لديك وأثير عندك لطالما توددت إليه وتحريت الإحسان في معاملته

حين تتأمل تلك الإساءات التي وجهها إليك مقابل إحسانك في معاملته وحين تزن نكرانه في مواجهة التودد والإكرام الذي خصصته به وتنظر فيما يعتريك وأنت المخلوق الضعيف الفقير الذي لن يبلغ توددك أو إكرامك لمخلوق أبدا أن يوضع في مقارنة مع إنعام خالق ودود كريم ذي فضل عظيم = لعلك عندئذ تتصور شيئا يسيرا من تلك الجريمة التي اقترفها بنو إسرائيل

جريمة الجحود..

ولعلك أيضا تنظر إلى أثر من آثار حلم الله ورحمته وهو الذي يقابل كل هذا الجحود والصدود بمعاملة هو أهلها بينما لم يكونوا هم أهلا لها إذ أمهلهم ورزقهم وأطعمهم وسقاهم وعافاهم ولم يزل بعد يفعل على ما كان ويكون وسيكون منهم

فسبحانه ما أحلمه

ولعل إحدى أخطر إشكاليات عدم فهم المعاملة الربانية بإغداق النعم = الاغترار بتلك النعم

خصوصا نعمة النجاة

إن تكرار النجاة في الدنيا قد يورث في قلب الناجي نوعا من الركون لتلك النجاة ويظن أن ذلك هو الأصل الدائم في معاملة الله له ثم يتطور الأمر بعد حين ليصير إلى أمن من مكر الله يتحول بعد ذلك إلى غرور وتزكية للنفس فيصبح وشعاره كشعار من قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾

وبالطبع لا يتصور أبناء الله وأحباؤه أن يمسهم العذاب ولئن مسهم فمجرد أيام معدودات

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ﴾

إنه الاغترار في أفحش صوره

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

إن عدم إدراك حقيقة كون الإنعام = نوعا من الاختبار والابتلاء يورث هذا الركون والتزكية المبالغ فيها للنفس ويجعل المغتر يقطع باستحالة زوال تلك المعاملة ولا يتصور أبدا أنها قد تكون معاملة مؤقتة ستزول إن لم يرعها أهلها حق رعايتها وبالتالي يتعامل كأنه تلقى عهدا من الله بتلك النجاة الأبدية وما ذلك في حقيقته إلا محض تقول على الله بغير علم

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

هذه هي ببساطة حقيقة الاغترار بالنعم وهذا نفسه ما اعترى قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ وهو ذاته ما غرَّ صاحب الجنتين حين قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴾

لكن هذا الاغترار بالنعم إنما يصيب من تغافلوا وتعاموا عن تلك الحقيقة التي طالما نُبه بنو إسرائيل إليها ووجهت أنظارهم لتأملها

حقيقة إحتمالية تعرض النعم للزوال بل والاستبدال بالعذاب إن لم تقابل بالشكر والعمل الصالح

﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾

وبنو إسرائيل للأسف لم يشكروا

فكانت اللعنة وسيكون العذاب

وبخلاف مقابلة الإنعام والتفضيل بالجحود والنكران فقد وقع بنو إسرائيل فيما هو أعجب وأدعى للدهشة بل للذهول!

إن النعم التي أُغدقت عليهم وتقلبوا فيها ظلالها لم تكن أبدا مجرد نعم طبيعية تتنزل عليهم من الطرق المعتادة أو المتوقعة

تلك الطرق التي قد يطرأ عليها إلف العادة المورث للغفلة عن

شكرها كما يحدث مع كثير من البشر الذين تتحول النعم في أنظارهم إلى مألوفات عادية لا يلتفتون لحقيقة كونها نعم وبالتالي لا ينتبهون إلى أن مصدرها منعم عليهم أن يشكروا له

النعم على بني إسرائيل لم تكن في غالب الحال من هذا النوع

لقد كان جلها خارقا للمألوف، معجزا للعقل، مبهرا للحواس!

تستطيع أن تقول بشكل واضح أن جل هذه النعم كان يدخل في نطاق المعجزات..

فناهيك عن معجزات موسى المباشرة من تحول العصا لثعبان مبين أو اليد البيضاء للناظرين أو باقي آيات التسع التي أرسل بها إلى فرعون والملأ من حوله والتي لم يكن بنو إسرائيل بمعزل عنها = فإن لبني إسرائيل معجزات اختصوا بمعاينتها بل والانتفاع بها

لم تكن نعمة نجاتهم من فرعون بطريق معتاد أو مسبوق كأن تكون من خلال مواجهة حربية يهزمونه فيها أو عبر قارعة لها سلف تصيبه وجنده كزلزال أو طوفان وكل ذلك على ما فيه من نصرة إلا أن مثله قد وقع من قبل

لكن نجاة بني إسرائيل من فرعون وجنده كانت من خلال حدث لا مثيل له من قبل ولا من بعد

لقد شق لهم الله البحر إلى فرقين عظيمين

فرقين تحولت لهما دفتاه فكان كل فرق منهما كجبل أشم شاهق وطود عظيم شامخ وانطلقوا بينهما يمشون دون أن يصيبهم أدنى أذى أو يمسهم مخلوق من مخلوقاته بسوء بينما انقض الفِرقان على عدوهم فهلك أمام ناظريهم ثم أنجى الله بدنه ليكون آية وعبرة

فهل اعتبروا؟!

إن ذاكرتهم السمكية لم تلبث إلا وقد تلاشت الآية منها وحلت محلها ماديتهم المعهودة فقالوا لنبيهم وقد مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة؟!

أوبعد الآية الباهرة والمعجزة الخارقة تطلبون صنما تلمسه أيديكم؟!

تبا لكم

لكن شق البحر لم يكن المعجزة الوحيدة التي عاينوها بل وعاشوها وانتفعوا بها

لقد عاينوا ما يساويه عظمة وربما يتعداه

لقد رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة أثناء أخذ الميثاق والعهد عليهم بطاعة الله والاستسلام لأمره

لم يكن عهدا عاديا أو ميثاقا عابرا بل كان حدثا جللا أختير لحدوثه ذلك الحال المهيب

جبل فوق الرؤوس يهيأ لمن تحت أنه واقع بهم

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف ١٧١]

هل فقط هو المطلوب..

خذوا ما أوتيتم واذكروا واسمعوا وأطيعوا

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ﴾

فهل أخذوا؟!

وهل ذكروا؟!

وهل امتثلوا وسمعوا وأطاعوا وقبلوا؟!

أبدا

نفس الذاكرة المتقلصة

﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

ليس هذا فحسب ولكن تستمر الخوارق الممزوجة بالنعم السقيا ترتبط بمعجزة

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ ﴾

والطعام والشراب منزل وميسر وليس بكد أو كثير عمل

﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ ﴾

والعيش الرغد المنعم بمجرد السجود والدعاء بحط الذنوب

﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فهل فعلوا؟!

هل شكروا؟!

هل سجدوا؟!

هل تأثروا بكل هذا النعيم المعجز وهذا الفضل المقرون بالخوارق؟!

محال

بل لم يكتفوا بالتناسي هذه المرة ولكن بدلوا وسخروا واستهزأوا ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾

في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم (ورويت أوراكهم)، فبدلوا، وقالوا: حطة (وفي رواية حنطة)، حبة في شعرة.. فبدلوا القولَ والفعلَ معًا

تخيل مدى السفول والانحطاط الذي قابلوا به كل ما سبق

تصور مشهد زحفهم على أستاههم بهذا الشكل المقزز وزيادتهم النون ليتغير المعنى والمبنى دون أي مبرر منطقي اللهم إلا دركات من الخسة لم ير العالم لها مثيلا

وستستمر الذاكرة المنكمشة في تجاهل كل الخوارق والمعجزات المتوالية وليتبعوا قولهم لموسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ بالفعل الفاحش حيث اتخذوا صنما ذهبيا ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾

هذا؟!

أعجل من ذهب لا يرجع لهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا يقال عنه إله وتنسب له كل تلك الخوارق؟!

ياللسفه

فهل انتهى الأمر بعد نسفه؟!

أبدا

لقد ظلت الذاكرة السمكية التي تميزوا بها تضيق أكثر فأكثر حتى النهاية

حتى التيه

ذلك التيه الذي ناسب تلك العقول التي لا تستحق أصلا أن يقال عنها أنها عقول

فأي عقول تلك التي تتناسى كل هذه المعية الربانية وتتغافل عن قول رسول مكلم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

أي عقول تلك التي تتغافل عن حقيقة حواها ذلكم القول تتلخص في جملة ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾

ما الذي كُتب؟!

إنها الأرض المقدسة!

إنها الحلم الذى طالما استقر فى قلوب الموحدين!

كيف تخاذلوا عنها وقد سمعوا قول من لا يكذب عن ربه إنها قد كتبت لهم فى ذلك الوقت؟!

ومن كتبها لكم؟!

أوليس هو الله القادر المقتدر الذي رأوا من الآيات والمعجزات من صنعه ما لم يره غيرهم!

كيف لم يكسبهم كل ذلك يقينا وتوكلا على من أراهم تلك الآيات البينات فيثقوا فى موعوده؟!!

كيف يكون مقابل كل ذلك = ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

كيف؟!

أعتقد أن الإجابة دوما أنهم بنو إسرائيل وكفى

نسيج وحده لا مثيل لحقارتهم ودناءة نفوسهم وفراغ عقولهم إن صح أصلا أن يقال عما لديهم: عقول!

لكن لماذا؟!

لعل هذا السؤال هو ما يتبادر لذهن المتأمل في كم النعم والمعجزات التي عامل الله بها بني إسرائيل

لماذا هذا الكم من الخوارق وهذه الموالاة بالنعم غير الاعتيادية؟!

لعل إجابة هذا السؤال تظهر وتنجلي إذا ما وضعنا في الاعتبار جانبا في أهم جوانب شخصية بني إسرائيل

المادية

مادية متطرفة قاسية باردة تطفح في كل موقف وعند كل محك

هذه المادية يصعب جدا أن تؤمن إلا بما تلمس أو تطمئن إلا لما تعاين بشكل مباشر وصريح

ولقد صرحوا بذلك قائلين لنبيهم منذ البداية: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡـرَةً﴾ و ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾

إذن فالقضية الغيبية عندهم هامشية للغاية

غيب؟!

أي غيب هذا الذي تتحدث عنه؟!

إنهم قوم لم يستنكفوا رغم كل ما رأوا من الآيات والمعجزات أن يشترطوا على نبيهم أن يريهم ربهم

لم يمهلوا أنفسهم أياما بعد معجزة شق البحر ليعطوا حتى فرصة لآلة النسيان أن تعمل عملها قبل أن يطالبوا نبيهم أن يجعل لهم إلها كما للوثنيين آلهة

لم يكبحوا جماح ماديتهم هنيهة أو حتى يضعوا اعتبارا لنبيهم الآخر فيستحيوا من اتخاذ العجل الذهبي وثنا بمجرد أن غادرهم رسولهم لميقات ربه

لم يصبروا على طعام واحد حتى لو كان منّا وسلوى منزلا من السماء ودنت نفوسهم حتى ساوت الأرض بل أدنى لتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وتبحث عن فوم وعدس وبصل يخرج من باطن تلك الأرض التي تناسب ماديتهم

لم يقدموا وعد ربهم بالأرض المقدسة على حساباتهم المادية الحقيرة ولم يقبلوا مناقشة احتمالية النصرة الربانية على القوم الجبارين لمجرد أن ميزان القوة المادية في صالح عدوهم

لم يسلموا لطالوت ملكا مبتعثا إليهم لمجرد أن الحسابات المالية لم تكن أيضا لصالحه ولم يكن المعيار المادي مرجحا لكفته عليهم

هي المادة في كل مرة

المادة كانت دوما قبلتهم وكعبتهم ومنتهى أملهم ومبلغ علمهم

هذا على ما يبدو منحوت على جدران أرواحهم متجذر في أعماق أنفسهم موروث في سائر أجيالهم

أومثل هؤلاء يصلح معهم حديث عن إيمان وغيب؟!

لأجل هذا كانت لغة المعجزات الباهرة هي التي تناسب تلك الخصيصة التي لا تفقه إلا المادة الملموسة والمحسوسة والمرئية

ولأجل ذلك أيضا كان الإغداق بالنعم

لئلا يكون لهم على الله حجة بعد كل ذلك

تريدون آيات رأي العين؟

تودون إنعاما وفضلا ورغد عيش

دونكم إذن

فهل جدى ذلك نفعا؟!

هل أثر في قلوبهم القاسية؟!

كلا..

لم تُجدِ فيهم نفعا ولم تليِّن من جل قلوبهم القاسية قلبا

ومن هنا تتضح الحقيقة الأهم التي يمكن استخلاصها من ذلك

العرض التفصيلي لتلك النعم والمعجزات ومقابلتهم لها بالجحود والنكران رغم مناسبتها منطقا لطبيعتهم المادية

حقيقة أن الأمر ليس بكثرة المعجزات أو بعدد الخوارق والبينات

إن أمر الإيمان أبسط من ذلك وأيسر

إنه قبول داخلي لفكرة التصديق واتباع الحق متى ظهر للإنسان ومتى وجد هذا القبول وخالطت بشاشته القلوب = دخل المرء إلى رحابه بكل سهولة وسلاسة

المهم أن يوجد أساسا

أما القلوب القاسية التي أشربت الجحود والمراء والتمرد فلو أنها رأت ألف ألف آية وعاينت ألف ألف معجزة خارقة ونعمة باهرة = فلا فائدة منها

وها هو النموذج ماثل مفصل واضح

نموذج بني إسرائيل

وكل من كان على شاكلتهم

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام ١٠٩ – ١١١]

والمتأمل للغالبية العظمى من الآيات التي تحوي خطابا أو نداءاً لبني إسرائيل في سياق الذم أو اللعن يخلص إلى أمر واضح للغاية

إنه ذلك الإطلاق المجمل الذي تظهر كثافته وتكراره وأنه هو الأمر المطرد وتظهر من خلال اطراده حقيقة في منتهى الأهمية عند مدارسة نموذج بني إسرائيل..

أن هذا هو الأصل فيهم

هذه الخصائص الشخصية والجرائم في حق الإنسانية وفي حق أفضل عناصرها من الأنبياء والصالحين والمصلحين بل في حق الخالق نفسه وتشريعه لعباده ورسالاته إليهم = هي سمات متجذرة في تلك الطائفة من البشر

مهما تجملت أو تزينت أو تدثرت بما يخفي حقيقتها فإن هذا لا يغير كونها طبيعتهم وخصيصتهم

الغرور والجحود والقسوة والغدر والخيانة والجبن والبخل والحرص والطمع والحقد والمادية والشهوانية الرهيبة والتمرد والعصيان والوقاحة وسوء الأدب والكذب والظلم والفساد والإفساد = كل ذلك يكاد يكون المحتوى الرئيسي لصفحات شخصياتهم والتفاصيل الدقيقة لكتيب إرشادات التعامل معهم

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾ (المائدة: ٨٢)

﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ ﴾ [آل عمران: ١٨١]

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١]،

﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]

﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ ﴾ [النساء: ١٦١].

﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ [البقرة: ٩٦]

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [آل عمران: ١١٢].

ما سبق من الآيات وغيرها كثير يصرح قاطعا بأن هؤلاء هم بنو إسرائيل

هذه هي خصائصهم وتلك أفعالهم

وإن وُجد الاستثناء فهو لقلة قليلة جدا منهم

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [سورة المائدة ١٣]

تأمل... إلا قليلا!

أما الأكثرية الساحقة فهم كما قيل

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٠]

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢]

﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]

كثير... أكثرهم.. إلا قليلا... فقليل

هذا هو الأصل

هذه هي طبيعة الأغلبية

لكن حتى مع هذا الكم من الجرائم وهذه الطبيعة الماطرفة في الجحود والعصيان فإن الإنصاف القرآني لم يغب عن المشهد فيتم تعميم الذم على عنصر أو جنس بمجمله..

لقد ظل الاستثناء حاضرا بقوة وتمثل بوضوح في آيات متعدده منها

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة ٢٤]

﴿ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾ [النساء ١٦٢].

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة ٦٦]،

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران ١١٠]

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران ١١٣]

تكاد تكون تلك المواضع السابقة جنبا إلى جنب مع الأحاديث الصحيحة التي تحدث فيها النبي ﷺ عن عُبَّاد وصالحي بني إسرائيل = استثناءات معدودة ومحدودة إذا ما وزنت بالمعدلات المتكررة بكثافة في الخطاب القرآني عن بني إسرائيل والذي يتسم في غالب مواضعه كما بينا بالإطلاق في سياق الذم أو ببيان أن هذا الذم يستحقه الأكثرون منهم

وحتى لو لم يكن جميع الأفراد قد تلبسوا بالجريمة المذكورة أو كانوا طرفا فيها كجريمة قتل الأنبياء مثلا فإن الحقيقة أنهم رضوا وتابعوا فشملهم الذم واللعن مع من اقترف بيده ولترسخ قاعدة عظيمة ينبغي أن تظل دوما رأي العين

قاعدة رواها مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ بين من خلالها مناط استحقاق العقوبة وشمولها على من لم يتلبس بها

قاعدة «فمن كرهَ فقد برئ ومن أنكرَ فقد سلمَ ولكن من رضيَ وتابعَ»

ولكن من رضي...

وتابع..

وجرائم بني إسرائيل وخصائص السوء التي تميزوا بها على تنوعها وكثرتها يمكن أن تنتظم تحت ثلاثة أقسام رئيسية

جرائم في حق أنفسهم

وجرائم في حق غيرهم

وجرائم في حق ربهم

لا تكاد تجد ذكرا لبني إسرائيل في القرآن في سياق الذم إلا ويمكن إدراجه تحت قسم أو قسمين من هذه الأقسام وربما جميعها حيث أنها ترتبط ببعضها البعض بصورة أو بأخرى

ولنبدأ بجرائمهم في حق أنفسهم أو ما يمكن أن نسميه

بالخصائص الشخصية المتدنية التي تغلب على هذا النسل والتي فصل القرآن وصفها

ولعل أهم هذه الخصائص النفسية = تلك الشهوانية الرهيبة التي تميزوا بها

شهوانية لم يتمكنوا من إخفائها أو السيطرة عليها فكانت جنبا إلى جنب مع المادية المتوحشة التي سبق وتحدثنا عنها = أصلا ومرجعا لكثير من خصائصهم الأخرى ومنبعا لباقي جرائمهم في حق أنفسهم وفي حق غيرهم

هذه الشهوانية ظهرت جلية في قولهم لموسى عليه السلام: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وأدت إلى أن يفضلوا ما ينبت من الأرض وإن دنى على ما ينزل من السماء وإن حسن وزكى

وهذه الشهوانية هي التي حركت مكامن الشح والبخل الرهيب الذي عرفوا به والذي بلغ بهم أن بخلوا حتى بعلمهم فهم الذين قال الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وهذا البخل الذي خيم على شخصياتهم جعلهم يروا كل من يعاملهم إنما يعاملهم من منطلق هذا البخل حتى ربهم جل وعلا اتهموه بذلك فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾

وشهوانيتهم أيضا هي التي دفعتهم للانقضاض على كل ما يشتهون بغض النظر عن طريقة الحصول عليه فأخذوا الربا وقد نُهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل وقبلوا بالسحت، ومارسوا السحر

واتبعوا ما تتلوا الشياطين، وحرفوا كلام الله وكتبوه بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، واعتدوا واصطادوا في السبت وقد حرم عليهم، وشربوا بل ونهلوا من النهر الذي نهاهم طالوت عنه إلا أن يغترف كل منهم غرفة بيده

لكن أي غرفة يكتفي بها أمثال أولئك الشهوانيين؟!

ولأجل هذه الشهوانية كرهوا كل من ينهاهم عن طرقها المحرمة فالأصل فيهم أنهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ ﴾ ولهذا رفضوا دوما وجود الناهين عن السوء بينهم وحاولوا إثناءهم عن مساعيهم الدعوية ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ ﴾.. بل وقتلوا أولئك الداعين للخير والآمرين بالقسط لأنهم حاولوا تعطيل انطلاقهم الوحشي في عالم الشهوات

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

إن شهوانيتهم تعد مضربا للأمثال حيث لم يعرف قوم سيطرت عليهم لهذه الدرجة التي جعلتهم بالفعل أجبن الخلق وأحرص الناس على حياة مهما كانت خصائص تلك الحياة من ذلة أو مهانة

المهم أن ترضي تلك الشهوات أو تسد شيئا من رمقها فسيكونون أحرص الناس على حياة

أي حياة..

ولقد كانت الشهوانية أيضا أصل ذلك الطمع الواضح الذي فاحت رائحته العفنة من غالب أقوال بني إسرائيل وأفعالهم وهذا

الطمع كان المنبت الأساسي للحقد والحسد الذي سيطر على علاقتهم بغيرهم ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

بل لقد سيطر الحقد والحسد أحيانا على علاقتهم ببعضهم أو بمن هو منهم

حين بُعث لهم طالوت ملكا وكانوا هم من طالبوا بأن يبعث الله لهم ملكا = كان رفض ملكه هو رد الفعل المبدئي لذلك الابتعاث

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾

﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾

هذا كان السبب الحقيقي القابع خلف رفضهم وليس فقط قلة ماله أو ضيق عيشه

إنه الحقد والحسد الناجم عن شهوة الملك التي كانت هي الدافع وراء مطالبتهم بابتعاث ملك

﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ على أن يكون هذا الملك هو أنا..

هذا هو الشرط

فإن لم يكن الملك من نصيبي والإمارة من حظي وقسمي = فهو الحسد إذن!

ولقد كان حسدهم شاملا حتى في أمر الإيمان بالله

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ ﴾ (النساء آيه ٨٩)

وكأن شهوة العلو بلغت بهم مبلغا لم يريدوا معه لأحد غيرهم أن يعرف الله أو يعبده

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾

حسد هو الأصل وطمع هو المحرك حتى لو تبين الحق لهم وحتى لو لم يكن هناك أي منطق في مخالفة هذا الحق أو حسد أهله خصوصا أنهم ببساطة يمكنهم أن يكونوا من أهله بمجرد أن يقبلوا به لكنهم لم يفعلوا

- عداوته ما حييت.

هكذا أعلنها سيد يهود بني النضير حيي بن أخطب

أعلنها واضحة صريحة بعد أن أدرك الحق وعرف النبي ﷺ

عداوة بدلا من المودة وإيذاء وكيد بدلا من من الاتباع والتسليم

والسبب ببساطة هو الحقد والأصل هو الحسد

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]،

ولطالما بيَّن النبي ﷺ أن الحسد كان المحرك والدافع لكراهية بني إسرائيل الشديدة للإسلام والمسلمين

حسد حتى في تفاصيل الدين

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على**

شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين» رواه ابن ماجة في سننه وصححه الألباني

وقال ﷺ: «... **إنهم لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التي هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام :آمين**» رواه أحمد وصححه الألباني في الترغيب

الأمر إذن كما أسلفنا كان ولم يزل شاملا وعاما ومسيطرا ونافيا لأي عقل أو منطق فهو أصل ومحرك

هذا الأصل -الحسد والحقد والطمع فيما عند الغير الناجم عن الشهوانية العارمة- أدى إلى سلسلة من الجرائم المتنوعة التي تشترك في كونها في حق الغير

هذا إن صح الاقتران لدى بني إسرائيل بين كلمتي «حق» و«غير»

إن الأغيار لدى بني إسرائيل لا يرقون أصلا لمنزلة البشر ليكون لهم حق أو حرمة

من هنا استحل بنو إسرائيل كل تعدٍ وإفساد وقالوا كلمتهم الجامعة المانعة

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾

ليس علينا حرج أو خشية مذمة أو حتى عتاب

هكذا ظنوا علاقتهم بغيرهم وعلى هذا الأساس كانت معاملتهم

فحقد وحسد وطمع فيما عند الناس مع عدم وجود أي رادع أو لوم أو شيء يؤرق الضمير عند التعدي على ما في أيدي غيرهم = أدى ذلك إلى القسم الثاني من جرائمهم

الجرائم في حق الغير...

أما جرائم بني إسرائيل المتعدية أو جرائمهم في حق الغير فمما تضيق به السطور والصدور

أن يستحلوا غيرهم من البشر بشكل تام فإن مؤدى ذلك هو سائر تلك الجرائم التي على كثرة وتنوع ذكرها بين دفتي المصحف = تعد شيئا يسيرا مما اقترفوه ويقترفوه وسيقترفوه

لا قيمة لعهد ولا معنى لأمانة ولا حرمة لدم أو عرض أو مال لمن هم أدنى من الحيوانات في نظرهم فليس عليهم فيهم سبيل

لذلك ستجد نقض العهود والمواثيق

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (البقرة آيه ١٠٠)

﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ ﴾ (المائدة آية ١٣)

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال آيه ٥٦)

وستجد استحلال الخيانة واستمراء الغدر

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ ﴾ (المائدة آيه ١٣)

وستجد إعلان العداوة والبغضاء ﴿ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾... (المائدة آيه ٨٢)

وستترجم هذه العداوة إلى إيذاء وضرر يبلغ حد التفريق بين المرء وزوجه عن طريق السحر واتباع الشياطين

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾... (البقرة آية ١٠٢)

ثم سيتطور الأمر إلى الاستحلال الكامل بالقتال

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ﴾ (البقرة آيه ٢١٧)

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]،

وليس شرطا أن يكون القتال بأيديهم ولكن أيضا سيكون قتالا بالوكالة عن طريق إيقاد الحروب الفساد في الأرض:

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ (المائدة آية ٦٤)

ثم يجمل كل تعديهم على الغير بقول جامع يلخص سعيهم كاملا

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

إن الفساد هو سلعتهم وتجارتهم والإفساد هو غايتهم ووسيلتهم

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

ولا تكاد تجد بابا من أبواب الفساد إلا وهم طارقوه والجوه بل وكثيرا ما تجد أنهم هم مبتدعوه وصانعوه

فإذا لم يتمكنوا من الإفساد ولم يستطيعوا تلويث من أرادوا تلويثه جاء دور الكذب والبهتان

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

ثم يبلغ تعديهم على الغير أقصى مداه ويصل فجورهم إلى منتهاه حين يمتد أذاهم إلى خير الناس وصالحيهم عموما والأنبياء والمرسلين خصوصا

فينال أذاهم الصالحين من الذين يدعون إلى الله ويأمرون بالعدل والإحسان كما أسلفنا

﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران آيه ٢١)

ثم يصل الأذى إلى الأنبياء والمرسلين

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (البقرة آيه ٦١)

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة آيه ٧٠)

ثم يبرز بعد ذلك القسم الأسوأ على الإطلاق من جرائم بني إسرائيل

إنها الجرائم التي اقترفوها في حق ربهم سبحانه

وعن جرائم بني إسرائيل في حق الله جل وعلا وفي حق كتبه وحدوده وحرماته = فحدث ولا حرج

لقد كان ذلك تقريبا هو الموطن الوحيد الذي عرف فيه بنو إسرائيل السخاء فما ادخروا تطاولا ولم يقتروا إنفاقا لسوء الأدب والوقاحة مع المولى جل وعلا

ولقد بلغ تطاولهم ووصلت وقاحتهم إلى صريح السباب والانتقاص

انتقاص ممن؟!

من ربهم الذي طالما نجاهم وعفا عنهم وفضلهم واختارهم

ربهم الذي رأوا منه ما قدمنا الحديث المستفيض عنه من معجزات وبينات وتفضيل وإكرام وإنعام

لم يشكل كل ذلك أي فارق أو يحول بينهم وبين ما أدمنوه من سوء أدب ووقاحة فقالوا يد الله مغلولة وقالوا: إن الله فقير وهم أغنياء وقالوا: عزير ابن الله وقالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا وقالوا عن تمثال أصم: هذا إلهكم وإله موسى وكانت تلك من المرات النادرة التي نسبوا فيها الإله إلى أنفسهم فقد كان كان الأسلوب الدائم في حديثهم لموسى عن الله هو «ربك»

ربك أنت وكأنه ليس بربهم ولا هم عبادا له

هكذا كان دوما تطاولهم وكذلك كانت الوقاحة أصلا راسخا في تعاملهم مع الله

لكن هذه الوقاحة وسوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى لم تكن هي أصل المرض بل الحقيقة أن أصل المرض كان يكمن في مكان أخطر من اللسان السليط والأسلوب المتطاول الحقير

لكن كان يكمن في القلوب

قلوب لخص الله حالها بأنها قد أُشربت العجل

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾

أُشربت الصنم وتشبعت بالوثن

أو بشكل أكثر تبسيطا = أُشربت الكفر

هكذا صرح القرآن في نفس الآية

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

تأمل.. بكفرهم

وفي غير آية تكرر التصريح بأصل الداء

الكفر

﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦]،

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران١١٢)

من هنا تنجلى حقيقة الوقاحة وتظهر بوضوح جذور الاجتراء الرهيب الذي خيم على أقوالهم وأفعالهم

اجتراء بلغ بهم أن عمدوا إلى كلام الله ووحيه لينالوه بالتحريف والتغيير والتبديل وليشتروا بذلك عرضا رخيصا من متاع الدنيا الزائل

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ النساء ٤٦

تصور إنسان يستمريء الكذب على ربه

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]

تصور أن يكتب الكتاب بيده ثم يقول هذا من عند الله... ولم؟! ليشتري ثمنا مهما عظم فهو قليل إلى جوار هذه الجريمة الشنيعة الكذب على الله..

لكن الجريمة الأكثر تكرارا في واقع بني إسرائيل والتي تطل بوجهها القبيح في جُل تفاصيل قصصهم المتنوع في القرآن وتكاد تكون العلامة المميزة لهم ولشخصياتهم مهما تجملت وتزينت وتنكرت وتطورت

التمرد..

العصيان..

الرفض التام لكل أشكال الاستسلام الطوعي التي هي المرادف الطبيعي للعبودية

تلك كانت هي الجريمة الأظهر والأخطر التي ارتكب بنو إسرائيل في حق ربهم

ولقد كنت دائما أتعجب من نموذج التمردالمستمر، والعصيان الدائم الذى ضربه الله فى كتابه ببنى إسرائيل!

قوم أجرى الله لهم كل ما قدمنا الحديث عنه من نعم وخوارق وآيات وأخذ عليهم العهود والمواثيق مرارًا، فلم يمنعهم كل ذلك أن يعلنوا تمردهم صريحا فجا بقولهم الفاصل:

﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

ومتى قالوه

مباشرة بعد معجزة رفع جبل الطور فوقهم كأنه ظلة وأخذ الميثاق عليهم

ميثاق بسيط لكنه على بساطته حازم حاسم

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ ..

اسمعوا أوامره وأطيعوا وامتثلوا

﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

هكذا بكل وضوح ودون مواربة

التمرد على الله والتعالي على شرعته في أوضح الصور وأفحش النماذج

القضية إذن ليست في مجرد العصيان فمن ذا معصوم بعد الأنبياء؟!

الكل يعصي ويزل ويخطيء

الفكرة في العصيان كمنهج

كعقيدة

كأسلوب حياة

سمعنا..

إقرار بالسماع وبلوغ العلم آذانهم

لكن لن يجاوز الآذان

لن يصل إلى القلب أو تمارسه الجوارح

وليس هذا عن تقصير يُرجى جبره أو غفلة يأمل المرء زوالها أو ضعف يُمني الإنسان نفسه أن يقوى يوما

بل هو عصيان مقصود وتمرد ممنهج وعن سبق الإصرار وسالف الترصد

ولعل أشد الأمثلة فضحا لذلك التمرد فى قصة بنى إسرائيل؛ هو موقف البقرة

ذلك الموقف الذى بدأ بأمر يسير للغاية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾

هكذا أطلق اللفظ بتنكيره الذى يفيد العموم؛

مجرد بقرة؛

أى بقرة!

مسألة بسيطة، واضحة، تخلو من التكلف، ومصدرها معلوم موثوق لا يوجد أدنى شك في مصداقيته ولا تعرف تهمة تقدح في عدالته أو تطعن على نزاهته

إنه نبيهم الذى رأوا على يديه آيات ومعجزات للأسف لم تشفع له لديهم حين أمرهم بذبح بقرة!

بل الحقيقة أنه ليس هو من أمرهم، هو فقط أبلغهم أمر ربهم

فكان رد الفعل السريع والفج حين قابلوا دعوته، وبلاغه بسوء ظن واتهام تجلى فى قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ !

نعلم جميعا ماذا حدث بعد ذلك؛ وكيف أنهم تكلفوا، وتنطعوا، وافتعلوا تشابها وهميا. فتارة يطلبون بيانها، وتارة يسألون عن لونها، ثم عن وصفها، وفى كل مرة كانت تأتى الإجابة مصدَّرة بالجملة البسيطة الواضحة تسبق الوصف الذى عنه يستفهمون..

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾

جملة متكررة بسيطة واضحة فيها التأكيد على أمرين؛ الأول = ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾

إن الآمر هنا هو الله ومصدر التلقى هاهنا هو النص الإلهى

الأمر الثانى = أنها مجرد بقرة

أى بقرة.

فافعلوا ما تؤمرون..

هذا هو المقصد الأسمى لجل التشريعات

افعل ما تؤمر

امتثل

استسلم

اعبد

المشكلة أنهم يدركون ذلك

ويصرون على ضده ونقيضه

لقد أصروا على افتعال اختلاف متكلف، وشددوا فشدَّد الله عليهم، وظهر ذلك جليا فى قولهم ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ﴾.

الحقيقة أنه لم يتشابه؛ لكن العلة الحقيقية كانت فى غياب إرادة الامتثال

في غياب العبودية والاستسلام الطوعي لله

في الاعتراف الداخلي أن هناك ملك وهناك عبد وأن للملك أن يأمر عبده وعلى العبد الطاعة

إن افتراض الاختلاف، واشتباه الأمر؛ لا يدعو أى عاقل إلي ترك الفعل نفسه، ولكن العبرة بالرغبة فى التنفيذ التى إن وجدت فإن الأمور بعد ذلك تكون يسيرة

يسيرة إلا على القلوب القاسية كالحجارة، أو أشد قسوة.

ولقد تبينت الحقيقة بعد ذلك وظهر أن العلة هي غياب إرادة الطاعة والامتثال وذلك في قول الله الجامع الذي أظهر من خلاله خلاصة الأمر وأصله وجذوره

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وما كادوا يفعلون

هاهنا مربط الفرس،

ومكمن المشكلة، وموطن الداء،
إن الخلل الحقيقي إنما هو في مدى إسلامهم لله جل وعلا،
في مستوى استسلامهم لأمره
في درجة امتثالهم لمراده

﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾

هي جملة جامعة مانعة، تُعبر عن مجمل خصالهم، ومختصر نعوتهم،
الحقيقة الجلية أنهم يرفضون حكم الله عليهم، ويجدون حرجًا في صدورهم من سلطانه، وضعفًا في اليقين بموعوده، فهم للأسف قوم متمردون،
عن أمر ربهم ناشزون،
شعارهم سمعنا وعصينا،
الفسق ديدنهم، والجدال والمراء والشبهة دأبهم،
فماذا تطمعون بعد كل ذلك منهم؟!



٥. مريم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

كان هذا قول الملائكة تكريما لتلك الصديقة

تكريما لمريم

اصطفاء من الله

تطهير

تفضيل

لكن هذا الإكرام والتفضيل والتطهير لم يكن بداية الأمر ولا مفتتح القصة

البداية كانت مناجاة!

كانت نذرا نذرته امرأة صالحة تقية خفية

امرأة على وشك الوضع تناجي ربها وتكلمه وتدعوه وتنذر ما في بطنها قربى له

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي﴾

لكن هذا النذر لم يكن مطلقا كما يبدو لأول وهلة

لقد كانت لهذا النذر صفة أو إن شئت فقل: أمنية

إنها الحرية

هذا المولود المنذور سيكون مُحَرَّرًا

محررا من كل شواغل الدنيا وعوائقها وعلائقها
محررا من كل آصارها وأغلال شهواتها وقيود أهوائها
محررا من الأحقاد الأرضية والآثام الدنيوية
هذا المولود سيكون خالصا له وحده
هكذا أرادت المرأة الصالحة
حرية خالصة لن تتحقق إلا بكمال العبودية
وإن هذا لن يكون إلا بإذنه ولن يحدث إلا إذا تقبل
﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾
لكنها جاءت أنثى!
وما البأس؟!
فليكن...
العبرة ليست أبدا في نوع الشخص أو لونه أو شكله
العبرة في القبول
وفي التحرر المنشود

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾

هذا أصل واضح لا يماري فيه عاقل
الله يعلم
وهي تعلم أنه يعلم
فلماذا قالتها إذا؟!
لماذا قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾

إجابة ذلك السؤال لن يستشعرها إلا قلب محب

قلب تذوق لذة المناجاة وتشرب متعة الكلام معه

مع حبيبه ومولاه

إن من ذاق هذه اللذة سيفهم جيدا لماذا قالت أم مريم تلك العبارة التي لم تضف معلومة ولم تحتو على مطلب

سيفهم أيضا لماذا فصل نبي الله موسى واستفاض في الإجابةحين سئل عما في يمينه فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: هي عصاي

لكنها المناجاة

وكذلك المحبين

يودون ألا تنتهي مناجاتهم مع حبيبهم ولا تنقضي تلك اللحظات التي يصلون ما بينهم وبينه

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾

تقرر أم مريم تلك الحقيقة الواضحة التي لا ينكرها عاقل

هناك اختلاف

وإن وجود الاختلاف والإقرار بأنه كائن لا محالة لا يعني ازدراء أحد المختلفين إلا في عقل يستحق هو هذا الازدراء

عدم التماثل بين الذكر والأنثى حقيقة واقعة لا تعني بحال أن الأنثى أقل أو أن قيمتها أدنى

الجميل أن الإقرار بتلك الحقيقة أتى في سياق الحديث عن امرأة كاملة بشهادة خير البشر

امرأة قال عنها الله أنها آية وأنها مصطفاة وأنها مطهرة

بل لما أراد الله أن يضرب مثلا للذين آمنوا اختار هذه التي ليست كالذكر

اختار مريم

واختار معها آسية امرأة فرعون

امرأتان جعلهما الله مثالا للمؤمنين جميعا وليس للمؤمنات وحسب

الأمر إذا ليس فيه أي انتقاص ولكنها الحقيقة التي ينبغي تقريرها

وقد فعلت أم مريم

لكن يبدو أن المرأة الصالحة كانت تميل لأن يكون المولود ذكرا لعله يكون أقدر على القيام بمهمات النذر الذي نذرته لله والذي قد تصعب بعض التزاماته على الأنثى

أو هكذا ظنت

فكأن عبارتها ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ كانت تحمل نوعا من التساؤل عن مصير ذلك النذر الذي كانت رغبتها فيه صادقة مخلصة

ولقد استجاب الله لها

وتقبلها

وهذا هو المهم

القبول

وحسن الإنبات

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

وعلى هذا ينبغي أن يدور دعاء الوالدين لمولودهما

القبول

وحسن الإنبات

ذكرا كان أو أنثى

المهم أن يتقبله الله ويحسن نباته

لكن للأسف جرت العادة أن الآباء والأمهات في نظرتهم لأبنائهم يشغلهم أمران أساسيان تتفاوت نسبة كل منهما بدرجات مختلفة ويظهر بوضوح في دعائهم لهؤلاء الأبناء والأمنيات التي تراود مخيلاتهم عنهم

الرجاء

والخوف

أما الرجاء فيدور غالبا حول المال والمنصب والمكانة وتأمين المستقبل الدنيوي

وأما المخاوف فتتركز على المرهوبات العاجلة كالفقر والمرض والضياع وما إلى ذلك

ولا بأس أن يدعو المرء بتمام الأولى ويتعوذ من الثانية
لكن أهل الدين يعتنون في المقام الأول بأمور أخري

وهذا ما قدمته أم مريم وضربت مثالا واضحا له
المرجوات والأمنيات كانت عندها تدور حول خدمة الدين والقبول والاستعمال فيما يرضي المولى تبارك وتعالى

والمخاوف كانت تتركز على الشيطان وطريقه وشراكه
لقد كان نذرها المحرر ودعاؤها بقبول مولودتها جنبا إلى جنب مع أمر آخر لم تغفل عنه
الاستعاذة
﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾
لقد أقلقها أمر الشيطان وتسلطه على صغيرتها لذا تعوذت ولجأت واحتمت
ولقد استجيب لها فأعيذت ابنتها وابن ابنتها وكان الشيطان أبعد ما يكون عنهما

هذا هو ما يشغل الصالحين ابتداء حين يفكرون في أبنائهم
بعد ذلك يأتي ما هو أدنى
لكن الدين يأتي أولا
وقبل كل شيء

حين يصدق المرء وتخلص تلك النية وتقدم هذه الرغبك والأمنية فالظن بالله أن يستجيب كما استجاب لأم مريم وتقبل نذرها

بل جعل ابنتها آية

نعم... لقد كانت مريم آية..

هكذا تكررت هذه الحقيقة في كتاب الله حتى تقررت

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء ٩١

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴾ المؤمنون ٥٠

هذه الآية لم تكن قاصرة على معجزة خلق وإيجاد المسيح عليه السلام في رحمها بغير أب وحسب

ولم تكن أيضا فيما تلى ذلك الإيجاد من آيات ومعجزات وكرامات أثناء ولادته وبعدها حين تكلم في مهده مبرئا إياها ومبينا حقيقة عبوديته منذ اللحظات الأولى لوجوده

الأمر كان يسبق ذلك بكثير

منذ صباها كانت مريم آية وكانت حياتها حاشدة بالكرامات

وكانت هذه الكرامات تبدأ من هنالك

من محل وجودها ومأوى عبوديتها

من المحراب

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾

قيل أنه كان يجد لديها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف وقيل كان يجد لديها الرزق بغير سبب معلوم ولا يعرف طريقة وصوله إليها لذا كان يسألها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾

فترد بيقين: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾

وإن شدة يقينها ورسوخ حسن ظنها بربها جعلا الأمل يتعاظم في صدر الشيخ الهرم واهن العظم الذي اشتعل رأسه شيبا فينادي هنالك

في نفس المكان الذي آوت إليه مريم واستقرت في ظلاله

في المحراب

من هناك يطلق زكريا عليه السلام نداءه الخفي: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

إنها لحياة مقترنة بالآيات مكتظة بالكرامات

لكن صاحبة تلك الكرامات لم تشغل نفسها بذلك أو تغتر به أو تظن أن المقام الذي بلغته والاصطفاء الذي نالته = مبرر للتكاسل أو علة لترك العمل ومغادرة المحراب فلقد نالت الدرجة وحصلت على المنزلة

فلتغادر المحراب إذن ولتلتفت إلى حياتها

لا

ليست هي من يفعل ذلك

حاشاها أن تفعل

إن كل تلك الآيات والكرامات والاصطفاءات والتفضيلات لم تكن إلا داعية للمزيد

المزيد من العمل

لذلك استجابت مريم للأمر المترتب على الاصطفاء

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

ولقد فعلت

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾

كانت من القانتين

وظلت كذلك

ولتضرب مثالا ساطعا آخر يرسخ لحقيقة كون المكانة مرتبطة بالمكان وأن مقام المرء عند الله يعرف بما أقامه فيه الله

ولقد أقامها الله في محراب عبادته

وفيه كان الابتلاء الأخطر والاختبار الأعظم في حياتها

- ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾

بهذه الكلمات صاحت بينما تنزوى بعيدا، متسترة بعفافها متسربلة بحيائها،

صاحت بها وهى التى كانت قد اعتزلت المخلوقين، وانتبذت حتى من أهلها مكانا شرقيا، محتجبة منعزلة، تخلو فيه بربها، وتأنس عنده بمليكها،

فإذا بها تفاجأ بهذا الغريب يدخل عليها!

من أين جاء؟

وكيف وصل إليها؟

ماذا يفعل هاهنا؟

وماذا يريد منها؟

وهل يُطمع فى مثلها؟!!

وهل يظن مخلوق أنها يمكن أن تُمس؛ وهى البتول الحصان الرزان التى لا تنفذ إليها ريبة،

إنها الكاملة المصونة، نذر أمها الصالحة المتقبل بقبول حسن،

إنها العذراء العفيفة، ما دنا منها إنسان وما مسها بشر،

العابدة الزاهدة الراكعة الساجدة القانتة، التى كملت من بين النساء،

كريمة النسب، سليلة الأنبياء عليهم السلام، المنسوبة لهارون تيمنا بعبادته وتنسكه،

هى تلك الناسكة التى أجرى الله لها ما أسلفنا ذكره من الكرامات والخوارق منذ نعومة أظفارها،

مريم البتول

تلك الطاهرة المطهرة الطهور

وكيف تحتمل مثلها وجود مخلوق لا تعرفه معها فى مكان واحد وهى على ما نعرفه من العفة والحياء؟!

كيف تحتمل العفيفة خلوة مباغتة مع هذا الشخص الغريب

من هنا كانت الصيحة الفطرية غير المتكلفة التي انطلقت من فمها مذكرة إياه مخاطبة فيه مروءته:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾

لعله بهذه الكلمة – التقوى– إن كان يريد شرا أن يقصر كما فعل صاحب الصخرة فقام عن المرأة التى راودها وهي أحب ما تكون إليه وذلك حين خاطبت تقوي نفسه بقولها: اتق الله..

لكنها قبل أن تخاطب مروءته وتستنفر تقواه مراقبته خاطبت مولاها

ناجت مليكها

عاذت بربها كما فعلت منذ سنين أمها

لجأت للرحمن وتحصنت بحماه

إني أعوذ بالرحمن

وكذلك ينبغي أن يكون المؤمن حال خوفه وعند فزعه

يلجأ أولا

يستعيذ ابتداءً

يتحصن ويأوي للركن الشديد

تلك هي حقيقة الاستعاذة وجوهر الاعتماد والتوكل

بعد ذلك تأتي الأسباب وتبرز الأقوال والأفعال

- ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾

رسول ربها؟

غلاما زكيا؟

ماذا يقول؟

عن أى غلام يتحدث؟!

يذكر مولودا لها وهى العذراء الشريفة الحيية، التى لم يمسها بشر قط!

لزوال الدنيا أهون من تصور بعض ما يقول،

الأمر صار يفوق الاحتمال،

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

هكذا صاحت مستنكرة،

هى لم تك يوما على ريبة، لم تنطق حرف النون فى كلمة «أكن» للدلالة على الامتناع التام، والبعد الخالص، عن مطلق فعل البغايا، وما أكثرهن فى بنى إسرائيل

أما هى وأمها التي نذرتها لله وأهلها وأجدادها = فما أبعدهم عن السوء

فعن أى غلام يتحدث الناموس؟!
وبأى عرف في الكون أو قانون أومثل هذا يمكن أن يكون؟!
﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾
الموضوع منتهٍ إذن
الأمر مقضى، والمعجزة تامة والله حكم وأمر، وهو الذى يقول للشئ كن فيكون

قد نفخت روح الغلام فيك يا مريم، وانتهى الأمر، وقضى الملك الحق أن تكونى من يحمل آيته ومعجزته

سيولد ولدك بغير أب، ومثله عند الله كمثل آدم ولد بغير أب ولا أم؛ خلقه من تراب ثم قال له كن فكان،
حقا إنه ابتلاء وأي ابتلاء، وحقا إنها محنة وأية محنة،
لكنك أهل لها يا مريم

ومن يكون أهلا لمثل تلك المحنة إن لم تكن مريم؟!
من يتحمل إن لم تتحمل هي ومن يصبر إن لم تصبر؟
إن نموذج السيدة مريم من النماذج التى تجعل كل عنصرى مغرض يدعي أن شقائق الرجال لا قيمة لهن ولا مقام = يبتلع لسانه وينزوى ببهتانه

إنها من القلائل اللائى أثبتن أن المرأة إذا صلحت وصدقت فإنها قد تعلو على آلاف الرجال

هي من اللائى أكدن معنى أن الله يتقبل أمته كما يتقبل عبده،
ألـم يصطفيها الله؟!
ألـم يطهرها ويفضلها على نساء العالمين؟!
بلى قد كان، وقد فعل الرازق الحكيم الكريم المنان.
الآن حان الوقت لتتعبد بالصبر، كما تعبدت فى محرابها من قبل بالقنوت والسجود والذكر والشكر
ستمر الأيام بسرعة، وستأتى اللحظات الحاسمة التى يظهر فيها معدنها النفيس

هاهو المخاض قد ألجأها إلى جذع النخلة
وها قد اقتربت اللحظة الحاسمة

وحدها في ظلها
لا رفيق ولا عضد، ولا أم تسعى، ولا قابلة تعين على آلام المخاض

لـم يكن لدعوة أحد من سبيل!

وكيف كانت ستخبرهم؟
إن الأمر معقد، وإن القوم بسطاء؛ لن يفهموا الآية، وحولهم من رعاع بنى إسرائيل من سيظل مجترئًا على القدح في عرضها، رغم ما جاءهم من الحق وعرفوه،
لقد كانت مضطرة إلي هذا المكان القصيّ، فلا أحد يدرك حقيقة حالها إلا هو

إلا ربها

هو حسبها وكافيها ووليها ومولاها

نعم الحسيب والوكيل ونعم المولى ونعم النصير

- ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾

ياله من حزن ذلك الذي يقطر من حروفها

هم وغم لا تقدره إلا العفيفات،

حزن وكرب لا تعرفه البغايا، ومن هانت عليهن أنفسهن، حتى رضين أن يكن سلعًا تباع وتشترى، وتُلتَهمها الأعين الجائعة وتتشممها الأنوف الشهوانية الماجنة

أما العفيفة الحيية؛ فالموت والنسيان أحب إليها من أن يصمها بريبة عربيد أو لا يقدرها قدرها فاسق مريض

- ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾

ما هذا الصوت؟!

واقع هو أم خيال؟

كيف، وقد انتبذت من أهلها مكانًا قصيًّا!

لا يوجد مخلوق في هذه المكان البعيد،

إنها المعجزة، وإنها الآية

إنه الغلام الذي لم يكد يخرج بعد..

يتكلم!

سبحان الفاطر الخالق القادر الحكيم!

ها هو النبع يتفجر من أجلها، لتجد الماء الذي ترطب به حر الألم، وشدة الجهد الذي ألم بها

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾

وهل مجرد هزة واهنة بيد نفساء ضعيفة، لجذع نخلة راسخة؛ تسقط ثمارًا يصعد الرجال الأشداء ليأتوا بها؟!

نعم، وما ذلك علي الله بعزيز، ولله في طلاقة قدرته آيات

إنها لعطية

وإنها لهبة من عند من يقول للشيء كن فيكون

وإنها لرحمة

رحمة تحف بمريم في خضم شدتها والبأساء التي ألمت بها فتسري عنها وتواسيها. وتتسرب إلى قعر بيت فرعون لتقر عين أم موسى ولا تحزن على بلائها

وتنفذ إلى إبراهيم بين ألسنة لهب مشتعل ليكون بردًا وسلامًا عليه

إنها الرحمة وإنه الرحيم جل وعلا

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾

أن يوجه الودود نواميسه ويحرك مخلوقاته ويسبغ جميل فضله ليقر عين عبده أو أمته

أن يعيد رضيعًا إلى حضن أم مكلومة
﴿ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ ﴾

أن ينطق وليدًا ويفجر عينًا ويقرب رزقًا لكي يسعد ويقر عين من يحبهم ويحبونه

تتأمل ذلك فلا تملك حينئذ إلا أن تذوب شوقًا لمثل هذا المقام الكريم والمكانة الجليلة

مقام أن يحبك الودود ويعلو مقامك عنده حتى يصير إقرار عينك وإسعاد نفسك وتفريج همك سببًا لبعض أفعاله جل في علاه...

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾

لم يعد إلا الصمت ملاذا

وماذا تملك أن تقول؟

وهل سيصدقونها مهما كان ما تقول؟

ليس أفضل من الصمت الآن والصيام عن الكلام، ولتدع المعجزة المتكاملة، والآية الباهرة التى تراها أمام ناظريها تفصح عن ذاتها بنفسها وبعين إبهارها، وببليغ حديثها عن بديع صنع ربها،

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ ..

كما هو متوقع بدأ الصراخ من أسرة مكلومة، تخشى الفضيحة، وتدرك فداحة ما ترى

أنت يا مريم؟؟!

أنت تفعلين هذا؟؟!

بدأت الاتهامات اللاذعة تنهمر على مسامعها

وبدأت النظرات القاصفة تخترق كيانها،

﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾،

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾،

نادوها مذكرين إياها بهارون،

أنت يا من كنت تشبهين هارون فى عبادته وزهده،

أنت يا من كنت آخر من نتوقع أن يصدر هذا منها،

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

غريب شأنهم!

أصدروا عليها حكمهم

وأبرموا فيها أمر قرارهم، رغم ما يعلمونه من عفتها!

عموما لن ترد هي عليهم،

لسوف تشير

فقط ستشير إليه، تاركة معجزتها تنجلي، مطفئة نار شكهم، مجهزة علي شرر اتهامهم

فأشارت إليه

إلى وليدها

إلى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾..

من؟؟

ماذا يحدث؟؟

أهو من يتكلم؟!

أرضيع يتحدث!!!

إن هذا لشيء عجاب!

إنه يخطب فيهم خطبة ما أفصحها وما أجمعها؛ فأول تصديرها تقرير العبودية لله؛

إنى عبد الله..

ما هو إلا عبد أنعم الله عليه،

إنه يستفتح حياته بإقامة الحجة، على كل من سيزعم ألوهيته، أو يدعى بنوته لله، أو يفتري فرية امتزاج لاهوته بناسوته، سبحان الله، جل في علاه

ما هو إلا عبد؛

بهذا بدأ كلامه فى الناس،

وهكذا استفتح حجته، وبرأ أمه الطاهرة النقية،

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾
﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾

ذلك ببساطة هو عيسى بن مريم،

فلم الجدال وعلى ماذا يدور المراء؟

هو عبد عابد نبى، مبارك حيثما حل، مأمور بصلاة وزكاة كسائر العباد

بشر يولد ويموت، وابن بار، وحامل رسالة ومبلغ كتاب،

هذا هو المسيح ببساطة ووضوح،

ليس إلها، ولا ابنا لله، وما قال للناس يوما: اتخذونى وأمى إلهين،

ظهر الحق للناس،

وظهرت براءة مريم، وأنجاها الله بهذه المعجزة، ووهبها أعظم الهبة، وأكرمها بولد بار

وبرسول نبي

بعبد لله

وما أشرفه من مقام

ذلك المقام الذي توارثوه وكان دوما سمة حياة مريم وأمها وولدها

مقام العبودية

أنعم به من مقام



٦. بلعام

مكانة عظيمة هي!!

ووصف مهيب وتزكية ربانية لا تدانيها تزكية مخلوق أو مدح فانٍ

﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾...

بذلك الوصف وتلك التزكية افتتح الله تلك القصة المهمة من قصص القرآن والتي هي رغم قصرها تحمل من المعاني والفوائد الشيء الكثير

الوصف والتزكية قيل أنهما في حق عالم كان مع القوم الجبارين الذين سكنوا الأرض المقدسة في الفترة التي أُمر فيها بنو إسرائيل بدخولها ولقد روي أن صاحب الوصف كان من العلماء الربانيين أطلعه الله على اسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى

لكن ثمة كلمات قرآنية معدودة كانت تفصل بين هذا الوصف الشريف وتلك التزكية العظيمة وبين النقيض تماما فبعد أن كان الوصف شريفا والتزكية ظاهرة تحول كل ذلك إلى وصف آخر وضيع وصار مثله كمثل كلب يسيل اللعاب النجس من بين شدقيه

وبعد أن كان كريما عالي الدرجات بعلمه صارت الغواية نعته والانسلاخ حاله والخزي مآله

ذلك لأنه غيَّر وبدَّل ولم يرع للنعمة حقها ولم يعرف للعلم مقامه ولا للآيات التي في صدره قدرها ففرط فيها واختار أن يخلد إلى الأرض ويتقلب في ترابها الحقير ويلهث خلف شهواتها الدنيئة

بلعام بن باعوراء...

قيل أن هذا هو اسم ذلك العالم من القوم الجبارين الذين سكنوا الأرض المقدسة إبان بعثة نبي الله موسى عليه السلام
وقيل بلعم وقيل أنه من بني إسرائيل

ولقد ورد ذكر ذلك وغيره في كثير من الآثار بعضها من الإسرائيليات التي نهينا عن تصديقها بإطلاق أو تكذيبها بإطلاق وورد كذلك في بعض الآثار عن الصحابة والتابعين منهم ابن عباس رضي الله عنهما ان هذا الرجل رغم علمه بآيات الله وقيل علمه باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب = قد أغراه قومه ليستعمل علمه الذي آتاه الله إياه في صدّ نبي الله موسى وقومه عن دخول الأرض المقدسة

لكن الرجل عالم بآيات الله ومدرك بوضوح أن موسى عليه السلام نبي مكلم وأنه على الحق

إلا إنه وعلى الرغم من كل ذلك سقط في الفخ وضعف أمام إغراءات الجبارين وقرر أن يستعمل علمه في صدِّ الحق والترسيخ للباطل بل والأدهى أنه أقدم على دعاء الله بأن ينهزم نبيه وأتباعه وأن يولوا الأدبار أمام القوم الجبارين

ولقد ورد في الأثر أنه فشل في مسعاه وكلما حاول أن يدعو على موسى صرف الله لسانه فدعا لموسى وقومه وكلما دعا لقومه الجبارين صرف الله لسانه فدعا على قومه حتى تدلى لسانه كالكلب اللاهث

لكنه لم يستسلم ولجأ إلى الحيلة والخديعة واستعمل علمه ومكره في الصد عن سبيل الله ونصرة الباطل وأهله = فقال لقومه أطلقوا عليهم نساءكم مزينات يروادن جند موسى عن أنفسهم فلئن فشت الفاحشة في جيش لم ينصرهم الله

وقد كان..

وبالفعل وقع كثير من بني إسرائيل في المحظور واستحبوا شهوة الدنيا العاجلة وأبوا أن يطيعوا أمر ربهم ونبيهم ثم قالوا كلمتهم الشهيرة: إنا هاهنا قاعدون؛ فكتب عليهم التيه كما في القصة المعروفة

وبغض النظر عن حقيقة القصة وهل صحت الآثار التي تتحدث عن بلعام بن باعوراء أم أنها مجرد إسرائيليات تُروى استئناسا = فإن ما يعنيني في هذه السطور هو النموذج المخيف الذي تطرحه الآيات

وهذا هو المناط الأهم في قصص القرآن وشخصياته

النماذجية التي تميز أبطال تلك القصص

وهاهنا نموذج العالم الفاسد الذي كان من الممكن أن يظل من

أرفع الناس شأنا فإن الله يرفع بآياته أقواما ويضع بها آخرين كما ثبت عن الصادق الأمين

لكنه أبى!

واختار التدني والتقلب في دركات الوحل

وانسلخ...

انسلخ ذلك العالم!

انسلخ عن آيات ربه التي فُضل بها وأُكرم بأن رزقها

والانسلاخ مصطلح يعبر به عادة عن مفارقة الجلد للحم لكنه ورد هنا في معرض الحديث عن مفارقة العبد لآيات ربه

وكأن في ذلك إشارة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المرء وآيات ربه التي أوتيها

علاقة قرب واتصال وثيق وتماسك شديد كما يكون الاتصال بين الجلد واللحم!

من ذلك يتبين معنى قولهم: «دينك دينك لحمك دمك»

ويعبر بكلمة السلخ كذلك عن استلال الليل من النهار ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ وهي حركة بطيئة تدريجية كما أن انسلاخ الجلد عن اللحم يكون تدريجيا بطيئا

وكذلك انتكاس المرء عن آيات ربه لا يحدث فجأة ولكنه ينسلخ عنها رويدا رويدا دون أن يشعر!

فيتساهل تارة..

ويتميع تارة أخرى..

ويقصر مرة ثم يتبعها مرات..

حتى يستمرىء الاجتراء ويتهاون في شأن الحرمات ولئن لم يستنقذ نفسه ويمن عليه ربه بيقظة تنبهه أو موعظة يستفيق بها فقد يتم الانسلاخ ويكتمل الانتكاس

حينئذ سيجد عدوه في انتظاره ليجهز عليه

وبعدها لن يكون وصفه كما كان قبلها

سيكون من الغاويين بعد أن كان من العلماء العاملين

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

وفي قصة بلعام وجريمة الانسلاخ عن آيات الله يوجد متهمان

المتهم الظاهر والمعين هو الشيطان

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾

لكنه ليس المتهم الأول أو الرئيسي

إن دوره هاهنا تابع أو ثانوي

من الذي انسلخ ابتداءً؟!

من الذي أخلد إلى الأرض؟!

من الذي اتبع هواه؟!

من الذي لم يرتفع بما أوتي من الآيات؟!

إنه هو..

هو من انسلخ

هو من أخلد إلى الأرض

هو من اتبع هواه

هو من قرر التخلي والتنازل عن آيات ربه

هو من غيّر وبدّل

ثم جاء دور الشيطان بعد ذلك

إنها إذاً جريمة أخرى من جرائم البشر لا يلعب الشيطان دور البطولة المطلقة فيها

بل ثمة متهم آخر

النفس

وهواها

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

كان هذا هو اختيار ذلك العالم

الأرض

الهوى

الدنيا

الشهوة

لقد اختار كل ذلك بدلا من الرفعة والسمو وقد كان يملك أسبابهما

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُ بهذا الكِتابِ أَقوامًا، ويَضَعُ بِه آخَرينَ**» صحيح الجامع

هكذا آيات الله ترفع أقواما وتضع آخرين

وأن تؤتى آيات الله فذلك = أعظم أسباب الارتفاع والسمو

وأن تتخلى عنها وتنسلخ منها فذلك = الدنو والتمرغ في وحل الأرض ومخاضة الانتكاس والتنازل والتفريط

ولئن لم يُتغمد المنغمس في تلك المخاضة برحمة من ربه تعينه على تدارك أمره والتعلق بحبالها للخروج من دنس تلك المخاضة المغرقة الجاذبة فإنه سيخلد إلى الأرض وسيغوص ويغوص إلى القاع

وما أدراك ما القاع

لتدرك طبيعة ذلك القاع تأمل جيدا إلى أي مدى غاص برصيصا «العابد» وبلعام «العالم»

تأمل واستعذ وابحث عن حبائل رحمة تتعلق بها لعلها تنتشلك يوما ما من قاع تلك المخاضة

وإن أعظم حبل تتمسك به كي تنجو من الغرق في وحلها = حبل الله الممدود

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**كتابُ اللهِ، هو حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ**» صحيح الجامع

فهل تمسكت به؟!

عليك أن تفعل وإن كنت قد فعلت فاثبت

إن عالما أوتي آيات الله ابتداءً فصار مثله ككلب يلهث انتهاءً!!

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾

إنه واحد من أخطر التشبيهات القرآنية وأهمها

لماذا الكلب تحديدا؟!

ألأن حاله إزاء الشهوات ولهاثه الدائم وراءها بعد أن استسلم لها وأخلد لسحرها أول مرة = يشبه حال الكلب اللهاث دائما وراء شهواته المجترح دوما لملذاته الذليل لغرائزه ومرجواته؟!

أم أن مشهد ذلك المنتكس بعد الانتكاس يطابق في عنته وعدم ارتياحه مشهد اللهاث الدائم الذي لا ينقطع مع كل حال سواء كان الكلب جائعا أو شبعان، مرتويا أو عطشان، مزجورا أو متركوا

دائما يلهث..

لا يرتاح من اللهاث أبدا ولا تجده هادئا ساكنا كسائر الحيوانات التي لا تلهث إلا إن جاعت أو سعت مسرعة لشيء أو فرت من شيء

أما الكلب وشبيهه المنتكس فلا سكن ولا هناء

ولا ارتياح..

فقط تلك الحسرة البغيضة والغصة المريرة وذلك الألم القاسي الذي يعرفه جيدا كل من ذاق وعرف ولم يغترف..

يعرفه كل من أبصر الطريق وأضاء له فمشى فيه ثم إذا أظلم عليه فقام وولَّى وأدبر واستكبر

يعرفه كل نكص على عقبيه واختار حوراً بعد كور وإعراضا بعد إقبال وتدنٍ بعد ارتقاء وبدّل نعمة الله وحشةً ونفورا وازدراء فذاق في الدنيا ضنكا وذلا وبُعداً بعد اقتراب

تلك الحسرة والغصة والألم والضنك = هي نتائج معتادة ومتوقعة ومتكررة ينبغي أن تجعل المرء يفكر كثيرا قبل أن يختار طريقها طوعا ويسلك سبيلها بإرادته حين يتخذ هذا القرار المؤلم ولو تدريجيا

قرار حياة تشبه حياة الكلاب ولهاث يحاكي لهاثهم

قرار الانتكاس

وكم في حياتنا من بلعام!!

بل كم في مراحل حياة الواحد منا من بلعام؟!

قبل سنوات كان البدء

وواهـًا لأيام البدء!!

أيام كان قلب هذا الشاب متقدا بالحماس وعيناه دوما مستعدة لذرف دمعات ساخنة

دمعات ندم وتوبة على فات واشتياق لما هو آت وخشية من حساب بعد الممات

كان ورعا يترك المشتبهات مخافة الوقوع في المحرمات

وكان شديد الحرص على إرضاء مولاه راميا بسهام خير في كل مرمى لا يحقر عبادة ولا يقلل من شأن قربى ولا يسمع عن باب طاعة إلا سابق إليه

كان إذا سمع النداء هب مسارعا للإجابة وإن فاتته الجماعة حزن واستغفر وعاهد الله ألا تفوته بعدها

ما غضب يوما من نصح ولا استكبر على ناصح بل كان هينا لينا في أيدي إخوانه محبا لهم راغبا في صحبتهم حريصا على مودتهم متلهفا للقياهم والاجتماع بهم في حلق العلم ومواطن الخير

كم كان رقيق القلب قريب التأثر وقافا عند حدود الله كم كان شغوفا بكتاب ربه مقبلا على حفظه وتلاوته وصحبته مشتاقا إلى حمله كاملا في صدره متخلقا به في جوارحه

كم كان غيورا على حرمات ربه مهموما بأمر أمته حريصا على رفعتها وراغبا في صلاح حالها وهداية أبنائها

كم كان رائعا!

لكن.. ماذا أصابه الشكل هو هو

والهيئة شبيهة

لكن العينين مختلفتان!!

بريق الحماسة قد انطفأت جذوته في مقلتيه حتى كادت تخبو

نعم هو نفس السمت إلا أنه صار كأنما هو قشرة تكاد تتشقق وعند أول محك تتصدع لتظهر عندئذ من تحت تلك القشرة أخلاق قديمة ظن أنها قد اندثرت منذ زمن بعيد

هل انسلخ؟!

لقد صارت دمعاته عزيزة واختلاجات قلبه عند الموعظة نادرة وصار الامتثال وتصحيح المسار أملا بعيد المنال

أين مصحفه صغير الحجم الذي ما كان يفارق يده أو جيبه؟

أين مسواكه وأوراده ونوافله؟

بل أين فرائضه؟!

ها هو النداء يعلو داعيا للفلاح لكن الهبة القديمة قد اختفت وحل محلها التثاؤب واستبدلت بالمعاذير والشواغل وها هي معايب إخوانه قد تبدت إليه وتعاظمت في عينيه ليحل التربص محل المودة ولتستبدل الأحقاد بالمحبة الإيمانية القديمة

ماذا حدث؟

ماذا دهاه؟

أفطال عليه الأمد فقسى قلبه وجفت عيناه وتبلدت مشاعره وبلي ثوب الإيمان في جوفه؟

أم أنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأسلم القياد لنفسه الأمارة وعدوه اللدود فانسلخ من الآيات التي أوتيها وصار من الغاويين

معقول؟!

ولماذا؟!

ما الذي غيره؟ وما الذي يستحق؟ وماذا ينتظر ليعود؟! وهل يضمن أن يمهل ليعود؟!

يعود لأيام البدء وما أجملها من أيام

ألم يأن بعد أن يعود إليها؟

وصديقه البلعام الآخر

ذلك الذي كان جُل كلامه منذ أعوام ينضح بذكر الله وطيب القول

كنت لا تخطىء حسن سمته وضبط ألفاظه وحرصه على قول التي هي أحسن

وإذا ندت منه غفلة وغلبت عليه لفظة من ميراث ما قبل الالتزام بحكم العادة فإنه كان يسارع للاستغفار معتذرا في حياء

ظل هكذا أعواما يجاهد لسانا يُكَب الناس على وجوههم يوم القيامة بحصائده ويضبط كلمات الواحدة منها في سخط الله فد تهوي به في النار سبعين خريفا

ثم استقام له لسانه وانضبطت كلماته وصار لا يعرف منه إلا الخير وإن لم تصبك منه ريح طيبة فلن يؤذي مسامعك من جهته لفظ خبيث

لكنه اليوم صار شخصا آخر

نادرا ما تمر عبارة من عباراته سالمة

لابد من ختم البذاءة في كل جمله أو جلها

لابد من تلميح إباحي هنا أو إشارة جنسية هناك أو سب والديْن هنالك أو لفظ خارج كان يوما إذا سمع أهون منه احمر وجهه وحمد بلسانه وقلبه ربا عافاه مما ابتلي به غيره

اليوم صارت مرادفاته فاجرة ومفرداته ماجنة ونعوت عباراته سافلة وتراكيبه فاحشة ومزحاته بذيئة فاسقة

نادرا ما تلمس في كلامه ذكرا لمولاه أو تصادف في تعليقاته تذكيرا بالله أو تجد في عبارته رفقا ومناجاة

لا تكاد تجد ثمة فارق بين ما يقول أو يكتب وبين ما يتكلم به أهل الفسق العتاة

من هذا؟

ماذا دهاه؟

ماذا تغير في وسيلته ومبتغاه؟

أين حسن سمته وطيب مسعاه؟

هل نادى منادٍ من السماء أن البغي اللفظي حلال والبذاءة مستحبة والفحش مستحسن والاستطالة في الأعراض لم تعد أربى الربا فلما سمع ذاك المنادي سارع إلى تلك البضاعة المزجاة؟

أم تراه قد زال عنه التكليف ورفع عنه القلم؟

أم أنها لعنة بلعام

وكل بلعام

تأمل ذلك البلعام الآخر..
أو إن شئت فقل سماحة الشيخ بلعام..
أو الإمام بلعام
العلامة بلعام
المفكر بلعام
المجدد بلعام
سمه كما شئت وصفه بما شئت فقد كان يوما ما قريبا من وصفك
حين كان من أكثر الناس حرصا على أمته وانفعالا بقضاياها
كان فؤاده يتقد بالحمية لدينه والرغبة في نصرته وكان يتلهف شوقا لهداية الخلق وانتهاجهم لشرعة ربهم
كان من الممكن أن تختلف معه أو تتفق لكنك لم تكن تملك إلا أن تعترف له بقوة الحجة وحسن البيان ودقة العرض وعمق الفكرة وأن تحترم قبل كل ذلك ثباته على موقفه ورسوخ مبادئه
كنت تختلف مقرا بعزة تقطر من كلماته وبغيرة على حمى الدين وحبا للشريعة وأهلها وحرصا على إعلاء الحق والصدع بكلماته
أوذي كثيرا وتحمل كثير لكنه انهار في النهاية
يبدو أن تلك المبادىء والثوابت التي طالما نافح عنها لم تكن بذلك الرسوخ الذي كانت تبدو عليه ظاهرا

لن تخطىء اليوم في كلامه نفسا مختلفا

ليس هذا هو ذات المنافح الجلد صلب المراس

لم يعد لكلامه نفس البريق ولم تعد لحجته تلك القوة

الليث المتحمس الموقن بما يقول = صار اليوم قطا أليفا يموء بهوان بين يدي خصومه بينما تحولت شراسته وقسوته إلى سياط تقرع رفاق الأمس ولا تمس من كان يعدهم يوما أعداء ملته ومفسدي أمته

لم يعد هو ذاك العزيز مرفوع الرأس

بل صار ذليلا مهزوما بين أيديهم تابعا لهم سائرا في ركابهم محاولا إرضاءهم بشتى السبل

حتى لو كان من تلك السبل أن يُستعمل سيفا مصلتا على رقاب أقرب الناس إليه

لابد أن يثبت في كل حين أنه (مش معاهم)

أنه مختلف عنهم

لابد أن يدافع عن نفسه دائما من تلك التي يراها تهمة

وعليه في سبيل ذلك ألا يخفي حساسيته تجاه جل ثوابتهم وأدبياتهم

ينبغي أن يسير على كل تراثه بممحاة وأن يتراجع عن صوابه قبل خطأه ليثبت دوما أنه قد تغير ولم يعد يطيق الماضي وأهله فقد صار اليوم مثقفا مستنيرا واعيا ولم يعد مثلهم

بالطبع فتحت له الأبواب وهش له خصوم الأمس وأفردوا له المساحات واحتفوا به أيما احتفاء لكنه ومع كل هذه الضجة والترحاب صار وحيدا تنكر لرفاق الأمس وتنكروا له فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير

ولقد أضحى يعرف وظيفته جيدا ويقوم بها على أكمل وجه
أو إن شئت فقل على أسوأ وجه

هل هي فتنة سراء بعد ضراء أم خشية ضراء بعد سراء؟!
أو ربما هي صدمات في أشخاص أو مواقف أو حظ نفس وانتصار لها
لا أحد يدري
الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تدركه وأنت تطالع نتاجه الجديد وثماره المحدثة أنك أمام شخص آخر بقلم مختلف ولسان مباين ونفس متغير
والشيء الذي تملكه حين تطالع سطحيته بعد عمق وركاكته بعد فصاحة وذلته بعد عزة هو أن تتعوذ كما يفعل نبيك من الحور بعد الكور وأن تدعو له لعله يوما يفيق من سكرته وينفض عنه غبار الهزيمة النفسية الذي تراكم على روحه وليسطع بريق الحق من قلمه ولسانه من جديد وليعود إلى قيمته الحقيقية ومكانه المستحق وتفارقه تلك الوساوس التي تنغزه وتسوقه باستمرار إلى نفي تهمة ليست كذلك إلا في رأسه ولم يتهمه أحد بها أساسا
وأن يتوقف عن لهاث بلعام
وكل بلعام

إن في قصة بلعام وكل بلعام معاصر أو من زمن خلى = رد واضح وعملي على أولئك الذين يظنون أنهم بمعزل عن أي فتنة أو أنهم كما كانوا يقولون قديما فى المثل الشعبي: مغسل وضامن جنة..

إنها كلمات بسيطة وذكية كعادة الأمثال المصرية تلخص رسالة يفترض أنها كانت مستقرة فى الوجدان المصرى - بل فى الوجدان المسلم بشكل عام-

رسالة مفادها أنه ما من أحد يضمن مصيره فضلا عن مصير غيره

لا أحد يمتلك القدرة على الحكم لفلان بالجنة، والجزم لفلان بالنار

معنى بدهى ومنطقى وأصل إسلامى يفترض أن يعلمه الجميع، أجملته تلك الكلمات البسيطة التى عبر المصريون من خلالها عن معتقد هام يظهر فى العديد من الآيات والأحاديث الصحيحة، معتقد: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾، ومسلمة أن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾.

لقد لخص النبى ذلك المعنى فى جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون، وجاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «**واللهِ ما أدرى - وأنا رسولُ الله - ما يُفعَلُ بى ولا بِكم**»، ورغم ما له من مبشرات ومنزلة عند ربه، إلا أنه على ما يبدو أراد التعميم لترك الأمر كله لله، وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق فى أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبى يفاجئهم بأنه ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى يمكننا من خلالها تبين

تلك الحقيقة، التى من المفترض كما قلت وكما بدا من المثل أنها بديهية ومنطقية.

لكن للأسف الشديد، أصحاب هذا السلوك قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة، وظهر من خلال لسان حالهم ومقالهم أنه قد تسربت إليهم دون أن يشعروا خصلة من خصال من قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. صحيح أنهم لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكنهم أكدوا معناها من خلال نفيهم المستمر لإمكانية فتنتهم أو فتنة من يحلو لهم تزكيتهم من سادتهم وكبرائهم ويصرون على إضفاء العصمة والقداسة على دينهم وعقيدتهم وكأنهم اطلعوا على ما في قلوبهم أو كأنهم اتخذوا عند الله عهدا، فيه ذلكم الجزم المزعوم أنهم أو سادتهم وكبراؤهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الضلال إلى يوم الدين!.

العجيب أن الصحابة أنفسهم كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة

بل وحتى الأنبياء كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات، واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عليهما السلام بالشيء الذى يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثانى الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا لمقلب القلوب كى يثبته على دينه. وتعوذ من الحور بعد الكور وتعوذ من الكفر ومن الشرك

فمن أين يأتى أصحاب ذلك النمط العجيب بكل هذا الأمن والاطمئنان والجزم الراسخ أنهم بمنأى عن الفتن؟

وناهيك عما فى تلك الأقوال من كبر وافتئات على علم الله بمآلات ومصائر العباد، فإن تلك المقولات والأفكار تنافى الواقع والتاريخ، فهل هناك شخص أو مجموعة أو حتى أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن التغير والتحول والتبدل؟

الجواب لا

كم من أناس كانوا على أعلى درجات التزكية ثم نكسوا على رؤوسهم وضلوا وأضلوا وفتنوا وفتنوا غيرهم ولعل من أوضح أمثلة ذلك = النموذج الذي نتحدث عنه بلعام الذي آتاه الله آياته لكنه أخلد إلى الأرض وانتكس وأيضا نموذج برصيصا الذي كان منقطعا للعبادة ثم زنى وارتكس وغيرهما

ببساطة الحي لا تؤمن عليه الفتنة

والمآل والمصير ومكنون الصدور وما تحويه القلوب كل ذلك = غيب لا يعلمه إلا الله

فلا أدري صدقا من أين يأتي أخونا المغسل وضامن الجنة بهذه الأطنان من التزكية للنفس وللغير والتي يوزعها يمنة ويسرة ويكأنه يوزع من إرث تركه له السيد الوالد

أيها المزكي لنفسك ولغيرك هون عليك واعرف قدرك فما نحن إلا عباد لله لا نملك لأنفسنا شيئا ولولا أن يثبتنا الله ويتغمدنا برحمته ويكلؤنا بفضله ما زكى منا أحد أبدا

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾

أخيرا أقول: إن نموذج الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها = يعد

من أخوف النماذج التي ذكرت في القرآن وأشدها إثارة للاعتبار والتأمل

لكنه أيضا من أكثرها منطقية ووضوحا

ذلك بأن الجاهل قد يعذر بجهله إن زل أو ضل

لكن أن يتخلى عالم عما أوتي من الفضل ويتنكر لما حباه به ربه من العلم ويترك السبيل الذي عرفه وخبره وفقهه = فتلك هي المصيبة التي يتناسب معها ثقل المثال والتشبيه

إن عظم المكانة والدرجة يستلزم تعاظم المسؤولية والتكليف ولئن تخلي العالم عن تلك المسؤولية فمن يقوم بها إذاً؟!

فكيف وإن لم يتخل فقط بل ضل وأضل غيره واستعمل علمه في تزيين الباطل وترسيخ أركانه كما فعل بلعام السابق ويفعل وسيفعل كل بلعام

إنها تظل نموذجا لكل من آتاه الله علما وأكرمه بآياته فنأى عنها وأعرض واستبدلها بعرض زائل فصار في النهاية مجرد
كلب...
كلب يلهث!



٧. السامري

شخصية السامري هي في الحقيقة شخصية محيرة جدا

رجل من بني إسرائيل تعرض لكل ما تعرضوا له

عاش معهم في مصر في فترة ثرية للغاية

رأى الآيات والمعجزات التي خوطب بها فرعون

ثم رحل مع موسى عليه السلام

عبر بحرا قد انفلق ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

وشهد غرق عدوهم الأكبر والأظلم والأطغى

وربما استمتع بالمن والسلوى ورأى تفجر الحجر باثنتي عشرة عينا وشهد رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة

ثم بعد كل ذلك قرر أن يكذب!

وليس أي كذبة

لقد قرر أن يكذب على من رأى منه كل تلك المعجزات

يكذب وهو يعرف أنه يكذب

يكذب وهو يدرك حقيقة كذبته منذ البداية

يكذب ويمعن في الكذب ويزينه

بعد كل ما سمع ورأى

أمر محير حقا..

لكن لماذا كذب السامري؟
وماذا كان يتوقع لكذبته؟

الحقيقة هذان السؤالان من أكثر ما يثير الدهشة في قصة السامري وكل سامري

أما عن السؤال الثاني وتوقعه لمستقبل كذبته فلربما ظن أن موسى لن يرجع من ميقات ربه ولن يكشف سذاجة كذبته بمنتهى السهولة بمجرد عودته
ولربما كان يتوقع أن ينتصر له قومه الماديون حتى إن عاد نبيهم

المشكلة فعلا في السؤال الأول
لماذا؟!
هل كان متآمرا مثلا يفعل ذلك لصالح أعداء بني إسرائيل؟!
ولكن من هم أعداء بني إسرائيل الآن
لقد هلك فرعون وهامان وغرق جنودهما وخسفت الأرض بقارون
لصالح من إذا يعمل؟!
يبدو أن نظرية المؤامرة لن تكون مقنعة هنا؟!
إذا فهي الزعامة وحب الترؤس
لكن هارون موجود

وموسى عائد

هل زعامة مؤقتة وتسلط عابر يستحقان أن يقدم المضل على مثل تلك الكذبة؟!

تزوير واختراع إله زائف وهو يعلم أنه زائف

إنها حقا من أكثر الكذبات إثارة للحيرة في تاريخ البشر

وما أكثر الكذبات المحيرة في هذه الدنيا

لكن بغض النظر عن السبب فالملفت حقا هو تلك النظرة الدونية التي نظر بها لبني إسرائيل

نعم

السامري في حقيقة الأمر كان يحتقر بني إسرائيل ويزدري عقولهم

هذا هو في رأيي التفسير الأكثر منطقية لإقدامه على فعلته الشنيعة

إنه يعلم جيدا أنهم قوم ماديون لا يؤمنون إلا بما يرون ويلمسون ولطالما سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة

إنهم يريدون إلها وفق تصوراتهم الضيقة وحواسهم القاصرة

فليقدمه لهم السامري إذا وهو يثق أن حماقتهم وضيق أفقهم ستجعلهم ينسون كل ما علمهم إياه موسى وسيتجاهلون كل ما سينصحهم به هارون وسيغضون الطرف عن كل ما شهدوه من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

وسيسارعون إلى تصديقه هو

تصديق من قدم لهم ما يطلبون وأسمعهم ما يحبون أن يسمعوا وأراهم ما يرغبون في رؤيته

سيصدقون السامري

وسيصدق أمثالهم كل سامري

حتى لو كان يحتقرهم بأكذوباته الساذجة وترهاته السخيفة وأساليبه المكشوفة

إنهم في الحقيقة يريدون ذلك

ويحبونه

يحبون السامري

ويشبهونه

ورغم فداحة الجرم الذي ارتكبه السامري ومدى الحيرة التي يسببها تصور وجود شخص لديه هذه الجرأة والقدرة على الكذب إلا أن جريمة مصدقيه لا تقل كثيرا عن جريمته

خصوصا في وجود هارون عليه السلام

- ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾

هذه والله كانت كافية لمن كان له قلب أو عقل

نبيهم الثاني -ويالحسن المعاملة والتفضيل ممن جعل فيهم نبيان- يقول لهم بوضوح هذه فتنة

هذا ضلال

هذا ليس إلهكم ولا إله موسى كما يزعم السامري

- ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾

ماذا يريدون أكثر من ذلك

وأي شيء لدى السامري يواجه به نبيا رأوا معه ومع أخيه من المعجزات ما لم تر أمة ما يشبهه

عجل!

مجرد عجل!

له صوت يشبه الخوار

أهذا ما أبهركم

أم لأنه ذهبي؟!

أأذهب بريقه عقولكم وأطاشت زينته وبهرجه منطقكم؟!

- ﴿ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾

ولماذا موسى؟!

ألم يستخلف هو بنفسه أخاه عليكم؟!

كل ذلك مجرد حجج واهية تخفي حقيقة واحدة

أنكم تكذبون وتحبون الكذب

تماما مثله

مثل السامري

وإجابة السامري لسؤال موسى عليه السلام عن حقيقة ما فعل كانت عجيبة أيضا

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾

من سول له كل ذلك؟!

من المتهم الأول في هذه الجريمة؟!

من الذي يتحمل المسؤولية العظمى هاهنا؟!

إنها نفسه

تلك النفس التي تعد المتهم الأول في كثير من الجرائم التي وقع فيها البشر منذ بدء الخليقة

أول جريمة قتل عرفها هذا المخلوق.. من المتهم الأول فيها

من الذي طوع لابن آدم تلك الجريمة؟

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾

إنها نفسه أيضا

كذلك جريمة قتل الناقة آية الله لقوم صالح

الأنفس هي المتهم الأول هنا كذلك

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾

الـ «هاء» هنا تعود على من؟

ذهب البعض إلى أن الضمير هنا يعود على أقرب مذكور النفس

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾

وماذا عن جريمة المراودة لنبي الله يوسف في قصته مع امرأة العزيز

هي النفس مرة أخرى

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ ﴾

حتى الوسوسة التي هي من خصائص الشيطان الوسواس الخناس فإنها أيضا وردت في القرآن منسوبة للنفس

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ ﴾

من يوسوس هنا؟

نفسه

والشح أيضا منسوب في القرآن للنفس

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ ﴾

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

فمقام النفس في الإفساد محفوظ إذاً كما هو واضح في تلك الأمثلة

فالحذر الحذر والاستعاذة من شرور النفس
خصوصا لو كانت كتلك النفس
نفس السامري

تلك النفس التي لا يناسبها إلا شعار واحد يرفع في مواجهتها

لا مساس

هكذا كان ينبغي أن يُعامل السامري!

وكل سامري...

حين تصل بالشخص جرأته إلى الحد الذي يكذب فيه على الله ويضل الخلق عن سبيله مع سبق الإصرار والقصد وتسول له نفسه أن يزين له الباطل ويبرز له بريقه فحينئذ.... لا مساس
لا تمسَّنا ولا نمسَّك
لا تلامسنا سموم لسانك ولا تقربنا خناجر كذبك

لكن لحظة
انتظر
قبل أن ترحل عنا ونرحل عنك هناك ما ينبغي فعله

ينبغي أن يُنسف إضلالك ويُسحق زيفك ويُباد كذبك وادعاؤك

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾

حرق ونسف

أمام أعين طالما تاقت لبريق الإله الزائف الذي أخرجته لهم لابد أن تظهر الحقيقة ويتضح للجميع أنه الحقيقة لا شيء ولا يملك شيئا

إنه مجرد عجل

وها هو يغرق في اليم كما غرق إله زائف آخر ادعى أنه رب أعلى

فهل فهم أتباع السامري؟!

وهل سيفهم أتباع كل سامري؟!

أم العكس هو ما يحدث للأسف

العكوف على السامري وعلى ما ينتجه السامري

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ ﴾

﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾

تكرار لفظ العكوف هنا عجيب للغاية

لقد عكف بنو إسرائيل على الإله المزيف

وكذلك عكف السامري

عكف المجرم على إلهه رغم علمه الراسخ أنه مزيف

ولم يرد عن بني إسرائيل عكوف أبدا فيما نعلم في غير ذلك الموضع

بنو إسرائيل عبدوا الله بعد ذلك وقبل ذلك

لكنهم حين عكفوا عكفوا على صنم

وكذلك فعل قوم إبراهيم عليه السلام

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾

وبذلك وصفهم إبراهيم

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾

والحقيقة أن هذا شيء يدعو أيضا للتساؤل والعجب

ما الذي يجعل هؤلاء يهوون العكوف على باطلهم لهذه الدرجة بينما لا يعرف عنهم مثل ذلك تجاه الحق؟!

هل هي ماديتهم الساذجة تتجلى من جديد

أم أن للأمر جانب نفسي يدفعهم للصبر على آلهتهم الباطلة رغم علمهم الداخلي ببطلانها ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾

أم أن للباطل بريقا لا نعلمه يتمم الفتنة ويكتمل به الاختبار

ربما كل ذلك وربما شيء منه لكن الحقيقة الواضحة أن للضالين قدرة وهمَّة تدفعهم للصبر على العكوف بين يدي آلهتهم خاشعين منصتين لوعظ زائف من السامري

ومن كل سامري

لكن قبل أن يتوجه موسى إلى السامري ويسأله عن جرمه وزيف إلهه المزعوم اتجه لأخيه

اتجه للمصلح

للمؤتمن على القوم المستخلف على هدايتهم
لحامل لواء الدعوة والنصيحة والعلم
اتجه لأخيه
هارون

- ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾

وها هنا ترتيب يستحق النظر
دائما ما يتوجه المصلحون باللوم إلى أهل الإضلال ابتداء ولا شك أنهم يستحقون كما استحق السامري
لكن قليلا ما يعاتب المصلحون أنفسهم أو حتى على الأقل يتساءلون عن أدائهم لواجبهم
قد فعل هارون ما ارتآه واجبه وحذر ونصح ثم اجتهد وقرر أن ينتظر عودة موسى كي لا يفرق القوم
فهل فعل المصلحون ما عليهم وحاسبوا أنفسهم قبل أن ينظروا فقط إلى ما هو متوقع من أشخاص كالسامري؟!
هل اجتهدوا في البيان والنصح موازنين بين ذلك وبين الحفاظ على القوم والحرص على عدم تفريقهم وتمزيق أواصرهم قبل أن ينشغلوا بالشكاية من وجود من هم مثل السامري؟!
من وظيفتهم استغلال الفتن وهوايتهم إضلال الخلق وغوايتهم

﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾

هكذا كان الترتيب في الخبر الإلهي

أولا فتنة

اختبار يوضع فيه القوم

امتحان عليهم اجتيازه

ثم يأتي دور السامري

المُضل

الشخص الذي يوجه الخلق للمسار الخاطيء أثناء الفتنة ويدلهم على كل إجابة إلا الإجابة الصحيحة

وهذا هو الإضلال

وظيفة السامري وكل سامري

ولقد حاول بنو إسرائيل أن يستغلوا هذا الدور حين سألهم موسىَ: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾

فكانت الإجابة

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾

هكذا حاولوا أن يعلقوا الأمر على شماعة المُضل الذي في الحقيقة لم يفعل الكثير

هو فقط ألقى ثم أخرج عجله فكان القول بعد ذلك منهم

هم من قالوا

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾

الفتنة إذا فتنتهم والخيار خيارهم

والضلال ضلالهم أن صدقوا من أرادوا تصديقه

صدقوا السامري

ولا يكاد يخلو زمان ومكان من شخصية تشبه السامري

شخص تسول له نفسه أن يُخرِج للناس ما يلتمع في أعينهم فيبرز لهم بريقه ويسميه بغير اسمه ويسوقهم لتقديسه وإجلاله!

ولكل سامري قوم لا يرتاحون ولا تطيب لهم نفس أو يهدأ لهم بال حتى يجدوا ذلك العجل الذهبي الذي تتوق إليه عقولهم الصدئة ويوجههم إليه سامريهم!

فتش عن سامريِّك -إن كان لك واحد- وانسف عجله في أقرب يمّ واطرده من حياتك وأفكارك واجعل بينك وبينه وبين كل سامري شعارا ثابتا لا تحيد عنه

لا مساس

لا مساس



٨. قارون

لقد كان قارون من قوم موسى
كان واحدا منهم
تجري في عروقه دماؤهم ويحمل وجهه شبها بملامحهم
لكنه في الحقيقة كان مختلفا!
فبخلاف المستعبدين المطحونين من قوم موسى كان قارون شيئا آخر على الأقل في الظاهر الملموس..

لقد مثَّل قارون الذراع الآخر لسلطة فرعون
المال..

لعل غناه والثراء الفاحش الذي كان يرفل فيه هو ما حجبه عما تعرض له قومه من الذلة والاستضعاف
لعل ذلك الثراء هو الذي دفع فرعون للتحالف معه ليقدما سويا صورة نمطية من صور التحالف العتيق الذي عرفته البشرية دوما

التحالف بين السلطة والمال

ولقد صنع مال قارون في بني إسرائيل ما لم يفعله سيف فرعون وسوطه!

هذه هي الحقيقة التي يخلص إليها من يتأمل قصة ذلك الثري المتكبر الذي استطاع بزينته أن يفتن قومه أو كثيرا منهم

كذلك فعل قارون

وكذا يفعل كل قارون

كل من بغى على قومه ليمتص من خلال بغيه كنوزا يستعملها بعد ذلك في مزيد من استعبادهم وتركيعهم ثم لا يكتفي بعد ذلك بالاستعباد والإذلال والظلم بل يتطور الأمر لأن يستعمل الأموال والكنوز في فتنة الخلق وإضلالهم

وما أكثر من ينجحون في ذلك

إن قصة قارون في القرآن ودوره في حكاية بني إسرائيل يمثّل بوضوح ما يمكن أن يفعله المال والزخرف والزينة في نفوس القوم

وليس أي قوم

إنهم أناس يحيا بين ظهرانيهم نبيان منهم رسول من أولي العزم ولطالما رأوا بين يديه الآيات والمعجزات وأبصروا كيف أحرج الطاغية فرعون وكيف أظهره الله عليه في كل مشهد

لكنهم رغم كل ذلك فتنوا بقارون وقالوا عنه ما لم يقولوه عن نبيهم المكلم

فبينما واجهوا نبيهم باللوم مرارا وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ وقالوا ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالوا ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ بل وتطور الأمر إلى أن وصل للإيذاء بالقول وربما لو تجرأوا على قتله لفعلوا كما فعلوا بغيره من الأنبياء فريقا كذبوا وفريقا قتلوا

بينما فعلوا كل ذلك مع نبيهن بل مع أنبيائهم كان رد فعلهم تجاه قارون مختلفا تماما

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

هكذا قالوها وكذلك كان تقييمهم لمن بغى عليهم وظلمهم أو كما يقال عن مثلهم كالقط يحب خانقه!

فقط لأن خانقه خرج بزينته

يالحماقتهم!!

وإن كثيرا من المفسرين ليرون أن الأحداث المتعلقة بقارون إنما حدثت في زمن التيه ويذكرون في إطار ذلك بعض الآثار عن حقد قارون على ابن عمه موسى وكيده له وأن الخسف حدث لأجل ذلك الكيد

والبعض يرى أن الأصح هو وقوع تلك الأحداث قبل خروج بني إسرائيل من مصر

وذلك الرأي الأخير هو ما أميل إليه وأرى أن السياق القرآني يؤدي إليه بقوة كما يدعمه النظر والمنطق إذ كيف يتصور في زمن التيه أن يصل قارون إلى ذلك الحد من الثراء أو أن تكون لديه مثل تلك الدار التي خسف بها بعد ذلك وأَنَّى له تلك الخزائن الهائلة التي تنوء بحمل مفاتحها العصبة أولو القوة؟!

أين تلك الموارد التي وفرت له هذه الثروات في صحراء التيه

وكيف خرج بهذه الخزائن وعبر بها البحر مع موسى إن قلنا أنه حصلها في مصر؟

أضف إلى ذلك اقتران اسمه المتكرر في القرآن بضلعي البغي الآخرين فرعون وهامان بل وتقديم اسمه على اسميهما في سورة العنكبوت

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

كذلك ما نزل في سورة غافر من إجابة مشتركة أجابها الثلاثة على دعوة موسى واشتركوا من خلالها في تهديد من آمن معه بالقتل

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾

فهل يتصور أن يهدد قارون موسى بمثل ذلك بعد عبور البحر والغياب في التيه؟!

الحقيقة أن ما يؤكده السياق وترتاح إليه النفس هو ذلك القول بأن قارون كان ضلعا من أضلاع المثلث الباغي في مصر

كان ذراعا من ذراعي فرعون

ذراع المال جنبا إلى جنب مع ذراع النفوذ والتخطيط والتنفيذ وهو ذراع هامان

والله تعالى أعلم

و ثراء قارون لم يكن أبدا ثراءً عاديا أو مألوفا

إن التعبير القرآني عن ثراء قارون يُعد من أعجب التعابير وأكثرها إبهارا

لم يحدثنا الله عن وزن الكنوز نفسها ولا عن حجم خزائن أمواله الطائلة

ولكن حدثنا عن المفاتح وهي جمع مفتح أي أداة الفتح

وسواء كان القول بأن مقصود الآية هو المفاتح فعلا أم أن الكلمة استعملت وأريد بها الخزائن فإن المحصلة في النهاية أن الكنوز كانت هائلة

عصبة من الرجال الأقوياء لا يكادون يستطيعون حملها

قيل العصبة من ثلاثة إلى عشرة وقيل أربعين رجلا وقيل ستين وقيل غير ذلك

هذه المفاتح فقط

فكم يكون عدد الأبواب التي تفتحها؟!

وكيف يكون ما يقبع خلف الأبواب؟!

هذا المال الوفير والثراء الفاحش جاء ذكره بعد شيء آخر امتلكه قارون

البغي

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾

هل كان البغي سبب الثروة

هل كان ظلمه لقومه ومساعدته في استعبادهم طريقا لتحصيل أمواله

أم كان نتيجة لها

هل بغى وظلم لأنه امتلك المال وعلا؟

ربما هذا وربما ذاك

حرف الواو الذي فصل بين الأمرين لا يمكن من خلاله الجزم بالإجابة

لكنه يدلنا على الاقتران بينها لدى قارون

بين المال والبغي

الثروة والتعدي

الكنوز والظلم

وسواء كان الثراء سببا أو نتيجة فإنه قد اقترن به..

بالبغي!

ويبدو أن ثمة وعي وحراك دعوي ومساعٍ إصلاحية كانت موجودة بين القوم حيث ذكر القرآن في بداية الأمر أَن القوم لم يسكتوا عن بغي قارون

لقد نصحوا له

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

قومه..

هكذا عمم القرآن في البداية ولم يخصص

بعد ذلك سيحدث التخصيص وسينسب النصح لأهل العلم ممن فهموا وأدركوا ما نزل على موسى وقاموا بأداء أمانته ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾

لكن البداية كانت تعميمية مطلقة

إذ قال له قومه

كأن ذلك الفهم كان الأصل العام الذي يمكن إطلاقه على جميع القوم حتى لو لم يكونوا كلهم قد شاركوا في نصح قارون لكن ذلك كان الوعي الظاهر فيهم

حتى حدثت الفتنة واستطاع قارون أن يعمل فيهم سيف زينته ورماح أبهته وسهام زخرفه وبهرجه فافترقوا...

وبعد أن كان القوم على قلب ووعي واحد صاروا بعد فتنة المال

فريقين... فريقا أراد الدنيا وفريقا أوتي العلم العلم وأراد به الدار الآخرة!

ألم أقل لك عزيزي القاريء أن فعل مال قارون ببني إسرائيل كان أشد من سيف فرعون وسوطه

- ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾

هكذا وجه الناصحون كلماتهم لقارون

لا تفرح

لا تتكبر بدنياك

لا تزهو بمالك ورياشك وسلطانك

ماذا يقولون؟!

بل كيف جرءوا أن يوجهوا خطابهم إليه بهذا الوضوح الحاسم؟!

إنها عزة الإيمان وقوة المعتقد حين تتعاظم في نفس صاحبها فتصغر في مواجهتها كل زينة وتتضاءل أمامها كل قوة ومنعة

إن الفرح لا يكون بمثل هذه الأشياء التي يفرح بها قارون وأمثاله

الفرح الحقيقي إنما يكون بفضل الله وبرحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

يكون بنصر الله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾...

أما الكبر والبطر والأشر والتعالي والبغي والتعاظم بماديات الدنيا فليس من الفرح في شيء إلا اسم لا يحمل من حقيقته مثقال ذرة

إنه فرح بالباطل كفرح المخلفين

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾...

سميت تلك المشاعر فرحا لكنه فرح زائف لا قيمة له

فرح كفرح قارون لا يحبه الله

ولا يرضاه

- ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾

هكذا تنهمر قذائف الحق على مسامع قارون متوالية

واضحة

قوية

معبرة

حاسمة

إنهم يطالبونه بالقصد

إنهم يطالبونه بالميزان الحق والقسط

يدعونه للمنطق البسيط الذي لا يحتاج إلى كثير تعقيد أو تفلسف

أن يعطي للدنيا قدرها، وللآخرة قدرها، وشتان ما بين القدرين!

حين ذكروا الآخرة طالبوه أن يبتغى بما عنده إياها؟

هكذا بإطلاق

بدون تقييد

وحين ذكروا الدنيا نصحوه ألا ينسى نصيبه منها

لا ينسى؟!!

كيف لا يقولون كما يعتقد البعض في التعامل مع الدنيا: انهل وانهش والتهم مفاتنها؟

فقط.... لا تنس!!

ومن ذا الذي تختزل علاقته بالدنيا لدرجة أن يحتاج تذكرة بألا يذر نصيبه منها

إنهم أولئك الذين جعلوا الآخرة همهم

أولئك الذين صح لديهم القياس واستقام الميزان وعرفوا للدارين قدرهما

دنيا فانية، وآخرة دائمة باقية

دار زوال، ودار قرار، وبقاء ودوام سرمدي..

هكذا يقيس العقلاء

وهم مع انحيازهم للآخرة وتفضيلهم لعملها وحملهم همها = فإن لديهم من الحكمة ما يجعلهم يؤدون حق دنياهم ولا ينسون نصيبهم منها

أما قارون وكل قارون فلا يعرفون شيئا عن ذلك
إنها فقط دنياهم ونصيبهم منها
بل فوق نصيبهم يريدون أن ينالوا
المهم أن تأتي الدنيا بحذافيرها
الدنيا..
وحسب

ثم تستمر موعظة الصالحين لقارون ويظهر في كلامهم أكثر فأكثر ذلكم المنحى المنطقي الرائق والحجة التي لا تُرَد

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

عبارة على قصرها فما أجملها وأجمعها
إنها تلخص بسهولة ويسر تلك العلاقة بين المعتقد والعمل
أنت تعتقد أن ما بك من نعمة فمن الله
أن كل خير أنت فيه إنما هو محض إحسان منه

فهل يقابل الإحسان إلا بالإحسان؟!
في شأن قارون كان الأمر له علاقة بأصل المعتقد كما سيأتي في تبريره ونسبه الفضل لعلمه
لكن ماذا عن غيره
ماذا عني وعنك ونحن نؤمن أن ما نتقلب فيه من النعم إنما هو محض فضل منه وإحسان؟!

لماذا إذاً لا نحسن كما أحسن ويحسن إلينا؟!

أهي الغفلة؟

أم هو التغافل؟!

أم أننا قد نسينا في خضم الانغماس والانشغال بالأسباب وتحصيلها أنه هو صاحب الإحسان وأن الفضل كله إليه؟!

- ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

كانت تلك النصيحة هي التي ختم بها القوم موعظتهم الجامعة لقارون

فبعد أن أمروه بابتغاء شيء = نهوه عن ابتغاء نقيضه

أمروه بابتغاء الدار الآخرة ونهوه عن ابتغاء الفساد

إنها الإشارة الواضحة لذلك الاقتران المتكرر بين وجود المال وورود الفساد والإفساد

إن العلاقة بين المال والفساد علاقة طردية في الغالب إلا من عصمهم الله

ذلك لأن المال يمثل ترخيصا مفتوحا يسمح لصاحبه باقتحام كثير من الأبواب المغلقة ما دام يملك الثمن

لذلك كثيرا ما يصمد الخلق أمام اختبار المنع بينما يرسبون عند امتحان العطاء

حين تفتح الدنيا وينهمر المال فيصير كل شيء سهلا ويصبح الفساد قريبا ميسورا

وطبيعة الخلق أنهم لا يميلون للوحدة ومن ثم يبتغون الإفساد بعد تورطهم في الفساد وذلك لإرضاء أرواحهم المنهكة وإقناع بقايا ضميرهم أنهم ليسوا وحدهم يتقلبون في مخاضة الفساد

فليفسد الخلق معنا ولا أحد أحسن من أحد ولتترسخ القاعدة التي يحاولون دوما إثباتها

الكل قديس حتى تأتي العاهرة!

من هنا يقترن الفساد بالإفساد ويمهد طريقهما ذلك الذي امتلكه قارون فأفسده وأفسد به

والله لا يحب المفسدين

ولا يصلح عملهم

- ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾..

كانت هذه الجملة المختصرة هي كل ما ورد في القرآن من كلمات منسوبة إلى قارون وحده

جملة على قصرها تلخص الأمر كله

هذا هو قارون

وتلك فتنته

هذه الأموال والكنوز والخزائن هي بفضلي أنا

بذكائي

بقدراتي وإمكانياتي

بتحصيلي وإدراكي

بجهدي وبذلي
أو هو علم الله بما عندي من أسباب الاستحقاق
ولذلك أعطاني
لأني ببساطة أستحق ولأنه يعلم ما عندي

كل ذلك أو غيره التفاصيل لا تهم

المهم عندي
أن يعود الضمير على شخص واحد
أنا
أنا محور الكون ومركز كل شيء
أنا... وحسب
هكذا كان لسان حال قارون
وكل قارون
إن ذاته قد تعاظمت و(أناه) قد تضخمت لدرجة ابتلعت معها كل الذوات والأشياء المحيطة التي اقتصر دورها في نظره على (التخديم) على تلميع ذاته وإنزالها منزلتها وإعطائها قدرها
ولابد أن تكون ذاته المتضخمة و(الأنا) المتعاظمة حاضرة بقوة في كل مقام ومقال

تلك الذات التي تبهره ويشعر أن واجب الخلق الرئيسي هو أن ينبهروا بها مثله وأن يقفوا إلى جواره مشدوهين بروعته الفائقة وعبقريته الفذة

أما أن ينسب الفضل لربه

أن يقر بأنه وكل ما عنده نفحة من نفحات عطاء وفضل ربه

وإلا فمن علمه؟

ومن وهبه عقلًا يتعلم به؟

ومن خلق ذلك العلم أصلًا؟

أوليس الله رب العالمين؟!

ألا يعلم أن الفضل كله بيده يؤتيه من يشاء؟

أولم يتدبر ما حل بمن هم أقوى منه وأغنى وأكثر؟

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾

لكنه الإجرام إذا بلغ بالعبد درجة التعالى على مولاه وخالقه، فكيف يُسأل عن باقى طوامه وآثامه؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

ولعل أعظم الفوارق بين العبد الشكور والعبد الكفور هو ذلك الإحساس والشعور القلبي بنعمة الله واعتراف المرء داخليا بذلك

فالشكر ليس فقط كلمات يتمتم بها اللسان دون أن يدرك لها معنى أو يستشعر لها أثرًا

الشكر حالة وشعور يملأ كيان العبد ويسيطر على وجدانه ويخفق به قلبه وتتسامى به نفسه وتهفو به روحه

والاعتراف بالفضل هو أول درجات تلك الحالة النورانية

ولذلك تجد أن أخطر ما وقع فيه قارون كنموذج لعبد كفور جاحد هو رفض هذا الاعتراف وإنكار ذلك الفضل الذي تجلى في قوله ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾

شتان الفارق بينه وبن عبد آخر شكور كيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين شكر في موضع ابتلاء وهو خلف جدران السجن إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾

لقد نظر يوسف دومًا للنعمة حتى في خضم النقمة ونسب الفضل لصاحبه حتى آخر لحظة وبعد موجات الابتلاء المتوالية

تجده لا يقول مثلًا: وقد ابتلانى -ولو قال لما جاوز ما حدث- لكنك لا تراه إلا معترفًا بالفضل لله لا يرى فضلًا لسواه قائلًا: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾

وكذلك فعل سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين عاين النعم فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ ﴾

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تجده يعلنها جامعة محكمة فيقول عن مولاه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾

هؤلاء جميعًا وغيرهم من الشاكرين بحق لم يتكلفوا تلك الكلمات وإنما خرجت من قلوب لم تر للنفس فضلًا ولم تشهد إلا فضل الله ونعماءه

كم من أناس -وأنا أولهم- بحاجة للتخلص من ذلك الخلق القارونى الذميم الذي تسرب لنفوس البعض دون أن يشعروا

خلق ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾

وإن نصح الناصحين ووعظ الدعاة الحريصين لم يشكل فارقا لدى قارون

فبعد أن أعلن قولته الشنيعة وزكى نفسه ونسب ما به من نِعَم لعلمه = استمر قارون في غيه وبدأ أخطر مرحلة من مراحل إفساده

المرحلة التي استطاع فيها أن يؤثر على بني إسرائيل ويغير تصوراتهم وليبدأ الانقسام وتتغير الأوصاف ويتحول القوم إلى فريقين

فريق قاصر النظر يريد الدنيا ويحكم على الأشياء بمعاييرها المادية الظاهرة

وفريق أوتي أهله العلم والحكمة فأدركوا حقائق الأشياء وفهموا مآلات الأمور فلم تبهرهم زينة قارون ولم يؤثر بريق زخرفه على بصائرهم

كل ذلك حدث لما بدأ في مخاطبة الأعين السطحية والعقول الخاوية وخرج في زينته

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ ﴾

ترى كيف كانت تلك الزينة وكم بلغ ذلك البهرج؟!

يقينا بلغ مبلغا يكفي لزلزلة الأفكار وإعادة ترسيم التصورات

﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾

هكذا تحدث الذين يريدون الحياة الدنيا وقد سال لعابهم حين عاينوا زينة قارون وأطلت من أعينهم الأطماع العارمة والشهوات الجارفة التي تمنى أصحابها أن يكونوا هناك

مكانه

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

لقد صار معيار التقييم مختلفا عما علمهم إياه موسى

لم يعد للدين أو الصلاح أو التقوى مكانا في نظرتهم بل حلت الدنيا محل كل ذلك وصارت أبهتها معيار الحكم على الأشخاص ومن ثم صار قارون رغم جحوده المعلن وبغيه الظاهر = هو الأفضل مكانا والأوفر حظا

المحزن حقا أن ذلك التأخر الحادث في منزلة الدين قد تسرب إلى كثير من الناس عند تقييمهم للأشياء أو اتخاذهم للمواقف والانحيازات

أقول «تأخر» وهو لفظ مخفف وإلا فإن حقيقة الأمر تصل لدى البعض إلى الاختفاء الكامل والتام من معاييرهم وخياراتهم وولائهم وبرائهم كما فعل المنبهرون بقارون

لذلك تصير مهمة المصلحين أصعب ولعل أشق ما فيها ستكون إعادة الدين إلى المعادلة ومواجهة التقييم الذي يقع فيه هذا الصنف الذي خاطبه قارون بخروجه المقصود والذي يحرص على مخاطبته كل قارون

الذين يريدون الحياة الدنيا
الذين رضوا بها واطمأنوا بأسبابها
الذين يبتغون العاجلة ويذرون الآخرة
هؤلاء من أثرت فيهم فتنة قارون
وكل قارون

أما الذين أوتوا العلم فقد كان لهم قول آخر

﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

هكذا واجه أهل العلم ذلك البريق الذي خطف أبصار القوم وزلزل أفكارهم وشوَّش على استقامة معاييرهم

إلا أنه لم يزل هناك رجال لم تفتنهم تلك الزينة، ولم تخلب لبهم الزخارف، ولم يخطف أبصارهم بريق الجواهر، ولا أرهبتهم القوة أو أسكتهم الجاه

أى رجال هؤلاء، ومن أى معدن نفيس قدت قلوبهم؟!
إنهم الذين أوتوا العلم
وأتبعوه بالعمل

لقد نغصوا على قارون فرحته وحاولوا جاهدين صد هجمته على نفوس مريدي الدنيا حين بينوا أنها ليست المنتهى وأن ثمة ثواب آخر ودار أخر خير وأبقى

لكن السياق القرآني لم يذكر رد فعل مريدي الدنيا الآن
لم يظهر تجاوبهم مع موعظة أهل العلم أو استجابتهم لتذكيرهم
يبدو أنهم كانوا بحاجة لأمر أعظم أثرا وأشد وطأة من النصيحة
فهؤلاء قوم ماديون يرجع تقييمهم لمعيار وحيد سبق أن أشرنا إليه
معيار ما تراه أعينهم وتلمسه أيديهم

وقد كان...

- ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾...

قالها الذين يريدون الحياة الدنيا

قالوها وأدركوا معناها بعد أن كانوا منذ قليل يتمنون مكان قارون ويرجون ما عنده ويظنون أنه ذو حظ عظيم

تغيرت مدلولات النعم والمنن وانتقلت من المادية الحقيرة والتقييم على أساس المظاهر الجوفاء والزخرف الزائل = إلى مجرد النجاة من كل ذلك!

﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾..

المنة هنا أن أمنيتهم التي أرادوها منذ قليل؛ ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ = لم تتحقق

المنة هنا أنهم لم يمتلكوا خزائن تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة

المنة أنهم حرموا من مسببات الكبر ونسب الفضل للنفس فنجوا من مصير صاحبها

تلك هي المنة التي أدركوا أخيرا أنها منة!

لكنهم للأسف لم يدركوا ذلك بنصح الناصحين ولا بتذكير الصالحين

لم يدركوا لم يفيقوا إلا بعد ثمن فادح دُفع أمامهم وآية لا يرسل الله مثلها إلا تخويفا

لقد أدركوا وأفاقوا.... بعد الخسف!

وما بعد الخسف يختلف تماما عما قبله!

لن يتمنى أحد بعد اليوم مكان قارون

لن يطيق أحد ما حل به أو يطمع فيما هو فيه

أين الخزائن ومفاتحها؟!

أين الأموال والكنوز

الحلي والجواهر

الجاه والسلطان؟

أين ملكه، أين عزه أين كنزه؟

هل نفعه؟!

وهل سينفعه فيما هو مقبل عليه؟

هل سينفعه في الدار التي لم يؤمن بها ولم يبتغها فيما عنده؟!

لا

أبدًا

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والسماء لا تمطر ذهبًا ولا لبنًا
ماذا زرعت، وماذا أنت حاصد غدًا؟!

لقد زال وزال معه قصره وأبهته
كل شيء ضاع!
ابتلعته الأرض
خسف به!
فأين هو الآن؟
وأين كل من تكبر وعلا
إنهم جميعا هناك
تحت التراب حيث لا ينفعهم إلا العمل وابتغاء تلك الدار التي لا يجعلها الله إلا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

وإن المعيار هنالك واحد، والمقياس متفرد، عدل لا يحابي، لا يتبدل ولا يتغير، وليس لقارون ولا لأمثاله فيه مكان
ولا لامتداد عظيم شأنه في الدنيا وجود ولا كيان

فهل تحسب أن تجد هناك غير ما هاهنا كان؟



٩. رجل يسعى

لم تكن الحاجة إلى ذلك الرجل ماسَّة..
ولم يكن الأمر متعينًا عليه
إن في مدينته أنبياء
ليس نبيًّا واحدًا ولا اثنين بل كان هنالك ثلاثة أنبياء!

وهو رجل عادي من عوام الناس فماذا عساه أن يزيد عليهم أو أن يضيف؟

ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانا وأبلغهم حجة ومنطقًا؟!

وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة على التأثير؟!

ربما دارت كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار بينما هو في طريقه من أقصى المدينة ساعيًا مُجِدًّا في سيره ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم
ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون واحدا تلو الآخر من عنت وصدود وتكذيب حتى تم التعزيز برسول ثالث ورغم كل ذلك جحد الناس بل وهددوا رسل ربهم بالقتل رجما

لعله قد دارت بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقى هو ما لقيه أئمة الحق أو أشد لكنه مع ذلك ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه والدلالة على الخير والدعوة إلى أهله كانت هي مطلبه ومبعث رضاه

لذلك جاء..

ومن أقصى المدينة سعى..

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾..

لكن ما صفة أولئك المرسلين الذين يريد من القوم اتباعهم؟!

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

صفتان جعلهما مؤمن سورة يّس المعروف بـ «حبيب بن مرّي أو حبيب النجار» = جعلهما علة الاتباع الذي ينصح به قومه وبين أنهما حجة وصيته لهم

عدم سؤال الأجر

والهداية

وهاتان الصفتان من أهم مناطات الاتباع على الإطلاق

أن يكون الاتباع للمخلصين الذين لا يطلبون شيئًا لأنفسهم
أي شيء..
لا يسعون لجاه ولا يطمعون في مال ولا يبتغوة شهرة ولا ثناء بدعوتهم فسؤال الأجر لا يشترط أن يكون مالًا كما يظن البعض
الأجر قد يكون جاهًا أو مكانةً أو منصبًا أو ثناءً
حتى الرغبة في الاتباع الأعمى من المدعوين قد يكون أجرًا لصاحب الدعوة
وكل ذلك مما يعكر نقاء تلك الدعوة ويهز مصداقيتها وقد يقدح في إخلاصها
ويبقى شعار الأنبياء عليهم السلام ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ ناصعًا نقيًّا نافيًا انتظار الأجر..
أي أجر

وإن من أبرز موانع القبول ومن أشد أسباب النفور من الدعاة = ضد تلك الصفة ومقابلها

أن يشعر المدعو أن الداعي يريد شيئًا منه
يريد شيئا لنفسه
يريد من المدعو ماله أو ثناءه أو حتى انقياده وتهليله لكل خطواته

أن يشعر أنه يريد دنيا أو شيئًا من عرضها الزائل ووجاهتها الفانية

ولقد سأل حبيب النجار الرسل الثلاثة عن الأجر الذي يريدونه مقابل دعوتهم فأجاب الرسل كما أجاب كل من قبلهم وبعدهم من الرسل: أنهم لا يبتغون أجرا من البشر وقد ورد ذلك في العديد من الآثار وكان ذلك بداية تأثر حبيب النجار بهم واقتناعه بدعوتهم خصوصا بعد أن تبين الصفة الأخرى

الهداية

﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

ومحل الهداية الوحي المنزل ﴿فِيهِ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾

فالمستحق للاتباع هو ذلك المهتدي بنور الوحي والمسترشد بتوجيهات التنزيل

إذاً فهم المخلصون المتجردون المهتدون

هم الهادون المستغنون عن الناس والمفتقرون لرب الناس

و هؤلاء هم الأحق بالتصديق

حين أدرك ذلك وفهمه لم تكن دعوة حبيب النجار لنفسه

ولم يكن مطلبه لذاته

ولم يجعل مسعاه لمصلحته

بل قد أعلن تجرده في مفتتح كلامه قائلًا: اتبعوا المرسلين

لم يقل اتبعوني فأنا العبقري الأوحد

ولم يزعم أنه الملهم الفذ الذي لا ينبغي أن تنصرف أعين الخلق عنه

ولم يدع لنفسه الفضل ولم يوح إليهم بوجوب إعلائه وتعظيم جنابه

بل أشار إلى المعصومين وأهل الوحي المرسلين وأخبر دونكم هؤلاء فاتبعوهم فهم الأحق بالاتباع

كم كانت دعوته متجردة نقية

كانت صدعًا بحق خالص لا تشوبه من شوائب حظ النفس شائبة

فهؤلاء المرسلون الذين لا يسألونكم أجرًا ولا يطلبون شيئًا لأنفسهم هم الأولى بالاتباع،

كان هذا لسان حال حبيب النجار وما لخصه لسان مقاله في كلماته التي خلد ذكرها المولى في كتابه قائلًا:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

لقد كان تجردهم قدوة لتجرده وإخلاصهم أسوة لتفانيه ولذا لم يطلب هو الآخر أجرًا ولا طمع في مقابل وهو يضع نفسه كجزء من منظومة الصدق المتكاملة التي كان هدفها الأوحد إعلاء كلمة الله وتوحيده بالعبادة والقصد وبذل الوسع لإبلاغ الرسالة

بلا أجر ولا مقابل لدى الناس

فقط الأجر لدى رب الناس

ولقد جاء..

جاء حبيب النجار من أقصى المدينة

وجاء من قبله المرسلون

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

ومن قبلهم ومن بعدهم جاء المزيد من النبيين والمرسلين

﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

في هذه الآيات وغيرها كثيرًا ما يستعمل لفظ «المجيء» ومشتقاته عند وصف حركة الداعين إلى الله وأصحاب الرسالات

إنهم قوم لا ينتظرون في بيوتهم أو على أرائكهم الوثيرة

إنهم قوم لا يكتفون بتلك الدعوة الوجيهة التي يُتصدر بها المجالس وتحتشد بالمريدين والمحبين ويشار إلى صاحبها الوجيه المهيب بالبنان

للأسف البعض ظن أن هذا المشهد الأنيق الوجيه للمحاضر الذي يلتف حوله المريدون = المشهد الوحيد والمبتغَى لمن سلك سبيل الدعوة إلى الله

وهذا وإن كان مقبولًا في مواطن التعلم الأكاديمي فإنه لا يصح أن تقتصر عليه النظرة والتصور

خصوصا في شأن البلاغ والدعوة إلى الله سبحانه

إن حملة الرسالة الصادقين يتحركون لبلاغ رسالتهم ويأتون أقوامهم ويبحثون هم عن المدعو حيث كان ولا ينتظرونه حتى يأتيهم راغبًا وحده

تلك الحركة والإتيان والمجيء هي الأقرب لهدي الأنبياء والمرسلين

وهي سلوك من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من أولئك الغيورين الباذلين المضحين

ثم يستمر حبيب النجار في دعوته مزينا تلك الدعوة بألطف الألفاظ وأرق المعاني

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾

إنه يخاطب هاهنا الفطرة ويحاور المنطق ويمس أوتار الفكر بأسلوب غاية في التواضع والدماثة حيث يوجه السؤال لنفسه مشيرا إلى أنه أول مخاطب بما يتكلم به

كيف لا أعبد خالقي وبارئي من أوجدني من العدم؟!

كيف لا أوحد من صورني فأحسن تصويري؟!

من الأحق أن أوجه له خالص حبي وحقيقة تعبدي؟!

وخوفي ورهبتي

﴿ تُرۡجَعُونَ (٢٤٥) ﴾

إنه هنا يشير ببساطة ويسر مختصر إلى أمر جلل

أمر الآخرة

وأجلُّ ما فيه أنه رجوع إليه

إلى الملك الحق

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾

كيف ولماذا؟!

وبأي حق يكون هؤلاء آلهة وهم لا يضرون ولا ينفعون؟!

بل... ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾

ثم يستمر خطابه لنفسه ومن ثم لمن يسمعونه

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

كلمات نورانية رقراقة تخاطب العقل والروح معا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلى منه منزلة وأجل قدرا

ثم يعلنها مدوية وليسمعها الجميع

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾

هكذا صاح بها حبيب النجار

فاسمعون..

فاسمعون أيها المرسلون واشهدوا لي بها عند ربكم يوم لقائه

فاسمعون أنتم أيضا أيها المكذبون واعلموا أنها ساعة المفاصلة ولحظة إعلان البراءة منكم ومما تعبدون بعد أن آمنت بربكم الذي به تجحدون

اختلف المفسرون فيمن وجه إليهم حبيب تلك العبارة

هل هم الرسل الثلاثة يطلب منهم أن يشهدوا له أن قد وفَّى وأدى؟!

أم هم قومه يختم حججه عليهم

والقولان لما وجاهة والجمع بينهما أولى

خصوصا أن قومه قد سمعوه

ولم يتمالكوا أنفسهم فوثبوا إليه ليسكتوه

وليكتموا صوت الحق الصادع من فمه

وليقتلوه

أورد ابن كثير عن ابن عباس: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول ذلك، فقتلوه رحمه الله.

قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره، وألقي في بئر وهي الرس وهم أصحاب الرس.

وفي رواية أنهم قتلوا معه الرسل الثلاثة.

وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي حتى قتلوه.

وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما.

وقال الحسن: حرقوه حرقا، وعلقوه من سور المدينة وقيل:

نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها

كل ذلك وهو يردد جملة واحدة لا غير

اللهم اهد قومي

فإنهم لا يعلمون...

إن من الناس من يظن أن قول ما يراه حقًّا والجهر بما يعتقده صوابًا وصدقًا إنما هو مرتهن بمظنة استجابة الناس له وطلبهم لسماعه وقبولهم لقوله، فإن غلب على ذلك الظن أنهم سيستجيبون = نطق.

وإن آنس منهم رغبة في سماعه = تكلم ونصح، وإن كانت الأخرى سكت وكتم وأعرض؛ قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات «لا فائدة» ومهدئات «هلك الناس» ونسي أو تناسى أن المرء إنما يدعو لينجو، وإنما ينصح ليُرضي ربًا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلى النطق بالحق والجهر به ممن يسمعونه سواءً استجابوا له أم لم يستجيبوا

ولئن كان من متعذر عن الدعوة للخير والنصح بالحق لوجود مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة = لكان رجل يعيش بين قوم كذبوا ثلاثة أنبياء ولم يقبلوا منهم حقا ولم يصدقوا منهم حرفا وما استجابوا لهم = هو أولى الناس بذلك التعذر واستسهال السكوت

لكان هو أولى الناس بأن يقطع الطمع في هداية الخلق أو أن يفقد الأمل في هدايتهم إلى الحق

لقد كان في قوم لم يكذبوا نبيًّا واحدًا ولا نبيين بل كذبوا ثلاثة أنبياء فلم يقبلوا منهم حقًّا ولم يصدقوا منهم حرفًا وما استجابوا لهم فيستطيع أن يركن لذلك وببساطة... يسكت

لكنه لم يفعل..
ولم يتعذر ولم يتلكأ
لم يحقر نفسه ولم يتحجج بعدم أهمية قوله أو يحتج بقلة قيمة صدعه
بل جاء من أقصى مدينته وسعى وتكلم ونصح ووعظ..

ولقد أعذر

فأي همة تلك؟!
وأي إصرار هذا الذي استقر في نفسه؟
وأي حرص ذاك الذي بدا على كلماته وأفعاله؟!
إنه الحرص على أن يعلم الناس عن ربهم مهما كان الثمن
ولقد دفع الثمن عن طيب خاطر
وكان الثمن حياته..

ومن بعيد وجد ريحها

وفي الأفق بدت أبوابها
باهرة هي تلك الأبواب قد تلألأت وأزهرت
إنها تقترب..

نعم هي التي تقترب.

بأبوابها الهائلة وقصورها المنيفة وشذا نسيمها العطر ونعيمها المقيم

لم يعد بينه وبين ولوجها إلا طرفة عين وانتباهتها

قيل: ادخل الجنة..

ها قد جاء الإذن وتم الفضل واكتملت النعمة

أدخل الجنة؟!

الحلم الذي طالما راوده والأمل الذي لم يغادر فؤاده والغاية الذي لأجلها عاش وعليها مات

قد صارت الآن رأي العين

قد كلل مسعاه بالنجاح وتوج جهده بالراحة والفلاح

أوحقًّا يا أذنيه ما تسمعان

يدخل الجنة؟!

الآن؟!

يا لفرحة قلبه ورضا نفسه

﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾...

يا ليتهم يعلمون

يا ليتهم يدركون

يا ليتهم يفقهون

قومك؟!

أوتسأل حقًّا عن قومك؟

أوتأبه بهم صدقًا؟

أتلتمس حالهم وتبتغي علمهم؟

أولئك الذين استضعفوك وآذوك

بل قتلوك

أم تراك قد نسيت؟

لماذا تسأل عنهم؟!

ليس عليك هنا تكليف ولا ثواب أو عقاب فما دافعك للسؤال؟

ما محرك رغبتك في الدعوة والبلاغ وحرصك على هداية الناس؟!

أهو دأب الصالحين الذين هم كالنحل لا يضعون إلا طيبًا؟!

أم هو حرص المؤمنين الذين يحبون للناس ما يحبونه لأنفسهم؟

أم تراها المعرفة؟!

معرفة الله عَزَّوَجَلَّ التي متى خالطت القلب بشاشتها نضحت على الجوارح وتهللت بها الأسارير وانعقد عليها العزم واجتمعت عليها النية صار لصاحبها هذا السمت

سمت العارفين الذين ذاقوا فعرفوا وعرفوا فاغترفوا ففاضت معرفتهم وخرجت لتظهر على أقوالهم وأفعالهم

وبدون تكلف أو افتعال

هكذا كان في الدنيا حين جاء من أقصى المدينة يصيح داعيًا قومه

دون تكلف

ولا افتعال

فقط ذلك الحرص والرغبة في الهداية للجميع

ولعل أكثر ما يثير الدهشة والعجب في قصة حبيب النجار وذاك الموقف القرآني الباهر = هذا الموطن الذي قيلت فيه تلك الكلمات ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾..

لقد قالها الرجل في دار غير الدار وحال غير الحال

قالها وهو يكاد يدلف إلى الجنة!

خرجت منه تلك العبارة بعد أن دفع الثمن بالفعل

قالها بعد أن قتله قومه ونال على أيديهم الشهادة

رغم ذلك كان كل همه أن يعلموا!

كانت رغبته وما يشغل ذهنه أن يدرك الناس ما عند الله من المغفرة والإكرام

إنه مشهد يجسد حرصا غير عادي وتفانٍ منقطع النظير ورغبة عارمة في هداية الخلق وتعريفهم بالحق..

حتى بعد موته ظلت رغبته في هداية الناس يقظة وحرصه على نصحهم وإرشادهم متأججا فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة:

﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

في ذلك المقام الذي كان من الممكن أن ينشغل فيه عن كل ذلك بالطيبات التي بها أُكرم وينسى واجب البلاغ.

لكنه أيضا لم يفعل، فلم ينقطع أمله في قومه ولم يتكاسل عن نصحهم وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض

بل استمر على شأنه هذا حتى بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض!!

بعد انتقاله إلى دار القرار!

نموذج عجيب ونمط فريد

لكنه ليس النموذج الوحيد

فلطالما كان رجال لم يحقروا أنفسهم بل قاموا وقالوا الحق كما قاله هو

ولطالما وُجد الفتيان الذين لم يخافوا في الله لوم اللائمين ولا رفض الجاحدين أو إيذاء الفاسدين والمفسدين

ولكم تكرر هذا المعنى في كتاب رب العالمين

ولكم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين

ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والقيام بالحق والرغبة في هداية الخلق بغض النظر

عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة وبدون تعليق الأمر على مظان الاستجابة من عدمها

إنها قيمة غرس الفسيلة حتى لو كان ذلك بين يدي الساعة وتيقن استحالة إدراك الثمرة

بتلك القيمة ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وبتلك القيمة أيضا خلد ذكر أولئك الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت

وعلى الدرب نفسه سار من قبلهم مؤمن آل فرعون

ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفا من بطش الطاغية مدعي الألوهية

لكن تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الجهر والحرص على الأخذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحان موعدها ومن ثم تكلم الرجل وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدى خوفه على قومه ورغبته في هدايتهم

وهكذا كان رجال من عموم الناس دعوا للحق في كل زمان ومكان ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم الحق والقيام بالأمر وعدم كتمان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم

لم يشترطوا على ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم، فكان حالهم ومآلهم نموذجا عمليا وتطبيقا واقعيا لتلك القاعدة الربانية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

فما بال أقوام يتعذرون ويتلكؤون، وعن دعوة الحق والقيام بالنصح هم معرضون، ورغم الحاجة إليهم هم مبتعدون، وعن قومهم هم محتجبون، ولحق أمتهم هم مهملون، فمتى يظهرون، وإلى ربهم يعذرون، ولأمتهم ينصحون، وللواء قضيتهم يرفعون؟!

متى عساهم يشعرون ويحيون بقيمة: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾

حتى وإن كذبوني وقتلوني

أكثر المفسرين على أن حبيب النجار قد قُتل بأيدي القوم الذين كانوا محل دعوته وموطن نصيحته كما سبق وبيّنا

وقال بعض المفسرين أن القوم قتلوه وقتلوا الرسل معه

وسواء كان القتل بالحرق أو بالرجم أم بالتردي أم بالضرب كما تعددت بذلك الروايات = فإنه يظل قتلا وليس قتلا عاديا بل قتلا بشعا يحمل تنكيلا وتعذيبا

والقتل يعد عرضا ظاهرا للكره والشقاق فما بالك إن كان بهذا الإمعان في العذاب؟!

إذاً فقد شاقه قومه ولم يحبوه وأظهروا تلك البغضاء بشكل عملي بأن قتلوه تلك القتلة الشنيعة

ورغم كل هذه المشاعر العدائية والشقاق الظاهر إلا إنه لم يقطع الطمع في هدايتهم ولم يختر اليأس من إصلاحهم حتى بعد موته على أيديهم فتمنى أن يعلموا حقيقة الأشياء وعظم الجزاء وحفاوة الإكرام الإلهي للصالحين

﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾

هذه المشاعر البغيضة لدى القوم لم تكن موجهة لحبيب النجار وحسب بل هي للأسف كثيرا ما تواجه السائرين على الدرب نفسه ومع وجودها كانت تقابل بنفس ما قابلها به حبيب النجار

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

شقاقه؟!

عداوته وبغضاءه وفراقه

هكذا عامله قومه

وهكذا علم شعيب عليه السلام مشاعرهم تجاهه

جهروا له بالعداوة وأظهروا الرغبة في المفارقة وأبدوا البغضاء والكراهية

لكن مع هذا الشقاق وتلك العدواة لم يزل الحرص ولم تغادر نفسه الرغبة في هداية قومه

لم يتحول عداؤهم له وبغضهم إياه إلى رغبة انتقامية أو نزعة

عقابية في نفسه مباشرة بل بقيت مهمته الأساسية ورسالته الرئيسية ماثلة أمام عينيه مهمة الهداية والإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا

لم تكن قضيته شخصية ولم يجعل ذاته محورا للمعاملة مع المدعويين ولم يعتبر عداوتهم إياه وشقاقهم له سببا كافيا لإنهاء مهمته العظمى

بل استمر الخطاب الحسن والموعظة الحكيمة التي تقطر حرصا على من يعادونه وخوفا على يجهرون بمفارقته من مصير محتوم يؤدي إليه ما يفعلون

لا يحملنكم شقاقي على أن تهلكوا أنفسكم وتنالوا مصير الأمم السابقة

لا تدفعكم عداوتي وبغضي إلى أن تجرموا في حق أنفسكم وتسلكوا سبيل العذاب لا تجعلوا مشكلتكم معي سببا وعلة لترككم الدين وبعدكم عن رب العالمين

هكذا كان تجرده وهكذا يحدث الإصلاح

حين يتجاوز حامل الرسالة شخصه وينظر فقط إلى هدفه ولا يجعل ذاته محورا تدور حوله معاملاته وأحكامه على الناس

ولقد كانت شخصية مؤمن آل ياسين من أوضح النماذج القرآنية التي يتجلى من خلالها هذا المعنى الغائب وتبرز تلك القيمة المندثرة

قيمة الدعوة...

الدعوة المتجردة المنطلقة التي لا تعرف عوائق ولا تعطلها شبهات أو عراقيل متوهمة لعل أهمها عدم استشعار المسؤولية وعدم توقع حدوث التأثير أو انعدام الحاجة إلى قيام المرء بتلك القيم والمصطلحات العتيقة التي غابت عن أذهان الكثيرين قبل أن تغيب عن واقعهم

تلكم القيم التي تصدعت في نفوس جمع لا بأس به من الخلق بعد أن كانت يوما على ألسنتهم وفي قلوبهم وضمن همومهم

كلمات ك «الدعوة» و«الداعي» و«المدعو»

فقط أولئك الذين يحملون هم الأمة ويعنون بشأن المسلمين ويحيون بقيمة حمل الرسالة يدركون وقع تلك الكلمات جيدا

يدركون ذلك الهمّ الذي كانوا يحملونه تجاه الناس ورغبتهم الصادقة في أن يذوقوا مما ذاقوا ويغترفوا مما اغترفوا ليس استعلاءً أو تفضلا ولكن إيمانا علامته أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه كما أخبرنا قدوتنا ﷺ

والمرء يحب لنفسه مرضاة الله والجنة

وكذلك كان يوما يحبهما للخلق
وإن جفوه وأنكروه وآذوه = فمعذرة إلى ربهم ولعلهم يتقون

اليوم تهاوت تلك القيم العظيمة في أنفس الكثيرين واستُبدلت

بعداوات عامة شملت الفاسد والمفسد وعمت الرأس والذيل وغمرت التابع والمتبوع وأُطلقت على الضال والمضل والجاهل ومن جهَّله

صار تمني الهداية وصلاح الحال وتبدل المآل = مندثرا في غياهب أنفس قررت تعميم الكراهية

لا شك أن هناك مضلين ومفسدين

وهناك من يستحق العداوة والبغضاء وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله

وهناك من لابد من مفاصلته مفاصلة تستبين على إثرها سبيل المجرمين

لكن هل هذا يشمل الجميع؟!

هل رُفع التكليف بالبلاغ وبطُل أمر هداية الناس الذي أوصى به النبي ﷺ في مقام مقارعة يهود خيبر قائلا لقائد جيشه علي رضي الله عنه: «**لئن يهدي بك الله رجلا واحدا خير لك من حمر النعم**»

الجواب: لا

لم تزل الدعوة مطلوبة ولم تزل الأمة مبتعثة ولم يزل التكليف قائما - بلغوا عني ولو آية

وهذا التكليف لابد أن يقوم على شعور بالحرص والرغبة الصادقة في هداية الخلق

أو على الأقل جزء من الخلق
جزء هو أحوج ما يكون للهداية التي قد يجعلك الله سببا فيها
أنت... أنت أيها القاريء الكريم
نعم أنت قد تكون سببا في هداية إنسان وتغيير واقع علاقته بالله إلى الأفضل

فقط إن حملت ذلك الهم الذي طالما حمله الأنبياء والصالحون المصلحون من قبلك والذي كان نموذجه الواضح الناضح بحب الخير لقومه هو ذلك الذي ذكرناه في السطور السابقة

الذي الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لذلك الخير وتلك الهداية

نموذج حبيب النجار
فسلام على من حملوا تلك القيمة وتحملوا هذه الرسالة

سلام على النبيين وسلام على الصالحين المتجردين في كل وقت وحين

وسلام على مؤمن آل ياسين



١٠. أصحاب الكهف

قصص وأبطال لم يذكروا من قبل ولا من بعد في أى موضع من كتاب الله

أحداث متفردة ومناطق مختلفة لن تجدها إلا في هذه السورة

سورة الكهف

فقط في سورة الكهف ستجد قصة صاحب الجنتين وستطالع ذكر الخضر وقصة ذي القرنين وطبعًا خبر أصحاب الكهف والرقيم الذين سميت السورة باسم كهفهم

كل هؤلاء لم يشر إليهم ولو إشارة في أى موضع آخر

وإن من أبرز ما تشترك فيه تلك القصص الأربعة وأبطالها الحركة المستمرة

السعي الدؤوب

الحركة لدين الله

حركة تجعل القلب يلهث وهو يتحرك مع أصحاب الكهف إلى كهفهم هجرة بدينهم وما يلبث أن يستريح حتى يلهث مرة أخرى مع الرجل المؤمن وهو يدخل على صاحب الجنتين يدعوه ويعظه ويذكره بالله ثم يهرع القلب سريعًا مع نبي الله موسى وفتاه في رحلة

طويلة حتى مجمع البحرين يجوب قفارها موسى عليه السلام طالبًا للعلم والفهم وتتلاحق الأنفاس أكثر مع رحلات الملك العادل ذى القرنين وهو يجوب مشارق الأرض ومغاربها لنشر العدل ونصرة المظلوم حيثما كان

حركة دؤوبة ومتنوعة ما بين هجرة لإقامة الدين إلى دعوة وأمر بمعروف ونهى عن منكر إلى طلب للعلم وارتحال وبذل لأجل تحصيله ثم جهاد ونصرة وتفع للناس

مع كل ظرف وتحت أي ضغوط أو مؤثرات هناك حركة من نوع ما

إنها رسالة واضحة مفادها أن هذا دين حركة وعمل وبذل ودأب ليس دين دروشة أو راحة وكسل

في كل مقام وفي كل حال هناك نوع من الحركة المطلوبة
عند الاستضعاف هناك حركة وتكليف بالصدع
﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾
تأمل قيامهم وقولهم
ثم تأمل المفاصلة الواضحة في قولهم
﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

ثم تأتي الهجرة للنجاة بالدين بعد انقطاع السبل واستحالة الظهور ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

وعند ظهور المعاصي والغفلات هناك حركة دعوية حوارية ظهرت جلية في الحوار المستمر بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن وتكرار لفظ وهو يحاوره يبين تلك الحالة النابضة والسعي الحثيث للتغيير والنصح

وعند وجود نوع من الاستقرار يسمح بالحركة في طلب العلم والاستزادة من المعرفة النافعة نجد موسى يجوب الفيافي والقفار معلنًا نيته وعزمه وإصراره على بلوغ غايته العلمية: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾

إن الإصرار بلغ به استعدادًا لأن يظل سائرًا لأحقاب طويلة وأعوام مديدة وأزمنة مديدة لا لشيء إلا ليتعلم
ويعرف

وحينما يدرك بغيته تجد التعليم العملي من خلال الحركة المستمرة أيضًا والتي تظهر في لفظ متكرر ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ وإذا بالحركة التعليمية العملية تستمر من قرية لأخرى وعبر البحر والبر والمتعلم يتواضع ويتصبر

وعند الرخاء والتمكين واكتمال الأسباب المادية والقوة

السلطانية لن تجد في السورة الإخلاد إلى دعة القصور وسعة حدائقها الغناء ولذاتها ومتاعها

بل ستجد حاكمًا عادلًا وسلطانًا قويًا متحركًا يجوب مشارق الأرض ومغاربها لينشر العدل في ربوع المعمورة وينصر المستضعفين ويكف أذى المفسدين والظالمين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾

حركة عالمية كبرى لا تعرف حدودًا ولا تحصرها قوميات

فقط الحق والعدل واستعمال ما أوتي من أسباب لأجل ذلك

المهم أنه دائمًا كانت هنالك حركة وبذل من نوع ما

صورة رائعة للمجتمع المسلم المطلوب

مجتمع متحرك عامل مهما تباينت الأحوال ومهما تغايرت الأوضاع والمؤثرات

يظل الأصل أن المؤمن متحرك إيجابي نافع حيثما حل وارتحل

ولقد كان يغلب على ظن كل بطل من أبطال قصص سورة الكهف أنه بعد انتهاء مهمته = سيرجع

رغم التضحية والبذل والمشقة إلا إنه سيرجع

حتى لو طال الزمن به في رحلته فإن شاء الله سيرجع

سيعود إلى وطنه وأهله وماله
ستنتهي رحلته في النهاية وسيأوي إلى سكنه

الرجل المؤمن الذي دعا صاحبه الثري المتكبر وحاوره = سيرجع

نبي الله موسى بعد رحلته الطويلة لطلب العلم = سيرجع
ذو القرنين بعد جولاته العالمية في مشارق الأرض ومغاربها لنشر العدل وإحقاق الحق = سيرجع
كلهم سيرجعون

إلا الفتية

هؤلاء الشباب حين خرجوا إلى الكهف وهاجروا بدينهم لم يعلموا أن ثمة عودة أو رجوع

بل غلب على الظن أنهم لو عادوا فثم الهلكة

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

إذن فقد خرجوا في رحلة ذات اتجاه واحد ليس فيها تذكرة عودة
رحلة تضحية من نوع خاص
تضحية بكل شيء
بكل متاع الدنيا

بالمنصب والمكانة والمال ورغد العيش

وما البديل؟!
كهف مقفر بارد مظلم

لأجل تلك التضحية المدهشة استحقوا أن تحمل السورة اسم ذلك المأوى الذي اختاروه على ديارهم وثراء أهليهم
وليسعهم الكهف ويتسع لهم ما دام في طاعة الله
وفي سبيله

لكن هل يمكن أن يسمى الكهف بالمأوى؟؟!
كهف بارد مظلم في سفح جبل وعر لا مرافق فيه ولا متاع ولا أمن ولا أمان
كهف لا باب له ولا سكن فيه قد تسعى بداخله هوام الأرض وتغشاه وحوش البرية أو يقتحمه اللصوص وقطاع الطرق
أومثل هذا يقال له مأوى؟!

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾
﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

هكذا تكرر لفظ المأوى مع هذا المكان الموحش في قصة أصحاب الكهف

الجواب إذن = نعم

يمكن أن يكون الكهف المقفر الموحش مؤى وملاذا
ذلك حين يعِد الله ويريده أن يكون كذلك
﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾

لقد صدر الوعد بالرحمة من الرحمن الرحيم

سيتحول إلى مأوى بإذن الله وستتغير نواميس الكون كرامة لهؤلاء الشباب المضحين وحفظًا وإيواءً لعلية قوم تركوا ثرواتهم ومناصب آبائهم لا لشيء إلا إيمانهم

سترى الشمس تميل عنهم عند احتدادها ثم تقرضهم شيئًا من دفئها قبل غروبها

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ﴾

سيقلَّبون في حركة مستمرة تقيهم قرح الرقاد الطويل وسترى أعينهم مفتحة فلن تتعود الظلام فينطفيء نورها وسيحسبهم الصائل مستيقظين فلا يغير عليهم وكلبهم متأهب الهيئة يحميهم من الكواسر والهوام

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾

حتى نواميس الزمن ستتغير لأجلهم فسيعيشوا حتى يهلك أعداؤهم المتربصون وربما يهلك أبناؤهم وأحفادهم

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾

لقد صار الكهف المقفر الموحش= ملاذا آمنًا مطمئنًا وتوافرت به مرافق العيش وكل ذلك كرامة لأولئك المضحين الذين نالوا الوعد بالرحمة فبلغتهم في قعر القسوة

وصار الكهف مأوى!

والسر..

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾

تلك كانت البداية الحقيقية للقصة

الإيمان

الهداية

معرفة الحق وسلوك طريقه

هذا كان فعلهم

ثم جاءت أفعال الرب جل وعلا

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

إنه الجزاء الأول للهداية = مزيد من الهداية

مزيد من القرب وشرح الصدر

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

إنه التثبيت والربط على القلب في مواجهة ما سيأتي

وما سيأتي لو تعلمون عظيم

لذلك كانت الحاجة ماسة لذلك التثبيت ودعم القلب خصوصا حين قرر الفتية أن يقوموا لله قومة وأن تقترن القومة بالقولة قولة الحق

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾
﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

لقد قالوا كل شيء وأعلنوا كل شيء

أعلنوا توحيدهم وجهروا بمعتقدهم وتبرأوا مما سواه من الشطط والافتراء والظلم

قالوا وأعلنوا وحان وقت تحمل نتيجة ما قالوه وأعلنوه

ولقد فعلوا

مخطىء من زعم أو ظن أن أصحاب الكهف كانوا مجرد نموذج للعزلة أو السلبية الهروبية التي يحلو للبعض أن يجعلهم قدوة لمن انتهجها

أصحاب الكهف لم يعتزلوا أو يأووا إلى كهفهم إلا اضطرارا وبعد أن أدوا ما عليهم وقاموا قومتهم وصدعوا بقولتهم

لقد جاء ذكر العزلة والأمر بالإيواء إلى الكهف مباشرة بعد بيان صدعهم وبراءتهم من شرك قومهم وافترائهم

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾

وحتى هذا الاعتزال والإيواء إلى الكهف كان يمثل حركة وعملا يناسب طبيعة المرحلة التي فرضت عليهم

لقد كان هجرة لإقامة الدين

كان حركة للحفاظ على الفئة الموحدة وهذا مقصد أسمى يغفل عنه البعض

هذا المقصد هو الذي لأجله هاجر رسول الله إلى المدينة وسمح من قبلها لأصحابه بهجرة إلى الحبشة

إنها إذا ليست عزلة اختيارية واستراحة مترفة واختيارا سهلا ولكنها عمل وتكليف تبع عملا آخر له ضريبة وله ثمن

ثمن الحق والاستعلان به

وهذا ما تحمله أصحاب الكهف عن طيب خاطر وتحمله من قبلهم ومن بعدهم كثير ممن عرفوا ما عرفوه وصدعوا به

﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾

أكان هذا رأيا قاله أصحاب الكهف أو خلص إليه بعضهم؟!

أم أنه كان إلهاما أُلقي في روعهم؟!

المعلوم أن أصحاب الكهف لم يكونوا أنبياء ولم أقف على أحد قال بوحي أوحي إليهم

إذن فمن قائل هذه العبارة

ما هو مصدر تلك المعلومة المستقبلية التي قيلت بصيغة جازمة قطعية

﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾

هذا غيب لا يعلمه إلا الله

وتفاصيله تخالف طبيعة الأشياء كما سبق وبينت أن المعتاد ليس كون الكهف محلا للراحة أو يحتوي على مرافق الحياة

وما سنراه بعد ذلك هو تحوله فعلا لموضع رحمة وامتلاءه بمرافق الحياة التي حفظت الفتية وكلبهم

الشمس تميل عن كهفهم في شدتها ثم تقرضهم شيئا من ضيائها النافع حال خفوت قسوتها والأعين مفتحة كي لا يخبو ضياؤها أو يجترىء عدو أصحابها والأبدان تقلب يمنة ويسرة درءا لتقرحها والكلب إلى جوار الرعب على مدخل الكهف يحرس تلك الأبدان ويكلؤها

هل علم الفتية كل ذلك قبل أن يأووا إلى الكهف وهم كما قلنا ليسوا بأنبياء ولا مرسلين؟!

الإجابة = كلا

لم يعلموا

رغم ذلك كان القول الأول والأصل الموثوق به

﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾

إنه الظن الحسن

الظن بالله الذي هو عند ظن عبده به

وسواء كانت تلك كلماتهم أو كلمات تصف حالهم فالمآل واحد وما أجمله

مآل الظن بالله رب العالمين

لكن أصحاب الكهف لم يكتفوا بالظن هاجرين العمل

نعم كان ظنهم بالله ألا يضيعهم وأنه سينشر لهم في الكهف من رحمته وسيهيىء لهم من أمرهم مرفقا كما سبق وأوضحنا

لكنهم أتبعوا هذا الظن الحسن بعمل

والعمل هنا كان الدعاء والطلب

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾

هل هذا مجرد إطناب وتكرار للمعنى

معاذ الله

لا شك أن ثمة فارق بين الأمرين إذن

ليس معنى إحسانك للظن - وهو أمر مطلوب مستحسن - أن تترك التكلم بهذا الظن معه..

مع ربك

أن تناجيه وتضرع إليه

يا رب أنا موقن برحمتك محسن الظن بأفعالك ومع هذا ها أنا ذا أدعوك

أتوسل إليك ضارعا أن تتم علي تلك الرحمة وأن يكون المآل كما ظننت فأنت القائل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء

وأنا أظن بك الخير

كان هذا لسان حال أصحاب الكهف الذي نستقرئه من لسان مقالهم

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال كل من أحسن الظن

فأحسن العمل

وأحسن الطلب

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

أعوام طويلة مرت

عشرات بل مئات السنوات مضت منذ أوى الفتية إلى الكهف

ما يزيد عن ثلاثة قرون قضاها أصحاب الكهف في سبات عميق

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾

أجيال رحلت وأجيال أتت وممالك سقطت وأخرى قامت وهم في كهفهم لا يعملون شيئا عن كل ما تموج به الدنيا من أحداث

ثم كانت العودة

فجأة عادت الحركة إلى أطرافهم والحيوية دبت من جديد في عروقهم

لقد بعثوا

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴾
إنها الآية والكرامة تحدث وإن لم ينتبهوا لها بعد
لكن سرعان ما سيفعلوا
مجرد التعرف إلى ذلك الحال الجديد والهيئة التي صاروا إليها بعد مرور كل تلك السنوات على سباتهم سيجعلهم ينتبهون إلى حقيقة أن غفوتهم ربما لم تك مجرد يوم أو بعض يوم
الأفضل إذن أن يرجعوا لعادتهم المنبثقة من عقيدتهم
عقيدة العبودية الكاملة والتسليم المطلق لله رب العالمين
سيتركوا الأمر هذه المرة أيضا له
لربهم
وهو الأعلم بهم
﴿ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾
ولعل أول ما شعر به أصحاب الكهف من مشاعر إنسانية بعد تلك النومة الطويلة كان الحاجة إلى الطعام
إنهم بشر
وإن المعجزة قد تمت وعادت خصائصهم البشرية للعمل من جديد
لكن هذه الغرائز الطبيعية لم تكن أبدا بمعزل عما لأجله ضحوا بكل شيء
دينهم

﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا ﴾

إنهم يصرون رغم حاجتهم إلى الطعام على أن يكون هذا الطعام هو الأزكى

الأطهر

الأحلَّ

رغم أنهم كما رُوي كانوا من أبناء الأمراء والوزراء وعلية القوم إلا إنهم حين ابتغوا طعاما لم يقولوا ائتنا بالأفخم أو الألذ طعما أو الأغلى ثمنا

بل طلبوا الأزكى

قال ابن عباس: أزكى أي أحل ذبيحة؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم.

وقيل ﴿ أَزۡكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أكثر بركة

لم تحملهم غرائزهم أو يدفعهم جوعهم أو تضطرهم شهوتهم إلى نسيان حقيقتهم

﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾

إنهم قوم أصحاب عقيدة ودين

قوم يتحرون الحلال في كل شيء ويقصدون إلى الأطهر من كل شيء ويعمدون إلى الأزكى بين كل شيء

قوم يحركهم الدين ويضبط حركتهم الشرع

وحتى في أحلك المواقف وأصعب الأحوال يظل المقام محفوظا

مقام لا يتقدم عليه شيء ولا يعلو فوقه شيء

﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

كانت هذه وصية أصحاب الكهف لمن أرسلوه ليأتي لهم بالطعام من المدينة

التلطف

عدم إشعار أحد بهم

إنهم إذن يخططون ويدبرون

بل يعلمون ويدركون جيدا حقيقة الأوضاع المحيطة بهم قبل دخول الكهف

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

استقراء للواقع وإدراك كامل لحقائق الأشياء والأشخاص يبنى عليه بعد ذلك تدبير وأخذ بالأسباب وحيطة

هل ينافي ذلك التوكل والاعتماد على الله والثقة به؟!

ينافيهم فقط في عقول قاصرة تصر على تصدير تلك الصورة النمطية التي بدأت بها لذلك المتدين الساذج المغلوب على أمره

المتدين الذي لا يعرف شيئا عن الأسباب والأخذ بها ولا يفقه شيئا عن التدبير والإحسان وأخذ الحيطة والحذر ولا يدرك حقائق الواقع المحيط به ولا يعرف تشخيصا صحيحا لما يدور حوله

هذا فقط هو المتدين المراد

وهذا عندهم هو المتدين الطيب

درويش ساذج لا يفقه أمر دنياه ولا يحكم أموره الحياتية أو يحسن إدارة واقعه

غر يسهل خداعه ويستطيع أي فاجر أن يتسلط عليه ويفعل به ما بدا له

تلك هي الصورة النمطية التي يحلو للبعض الركون لها واستدعاؤها عند تخيل أهل الدين وأرباب العبادة والزهد

لكن أصحاب الكهف كانوا أبعد ما يكونون عن تلك الصورة الحمقاء التي يصدرها البعض أو يتخيلون أنها الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه العباد فيبيتون مغلوبين ويحيون مضطهدين بدلا من أن يفكروا ويخططوا ويحسنوا تدبير شؤونهم ظنا منهم أن (البخت) لمن بات مغلوبا ولم يبت غالبا!

تخطيط وتدير وعلم وإدراك كامل للواقع المحيط وحسن تعامل مع هذا الواقع

هكذا ينبغي أن يكون المتدين

ولقد تكرر لفظ «أعلم» مرات أربع في سورة الكهف كلها وردت في شأن أصحاب الكهف

في شأن المدة التي قضوها في الكهف وفي شأن عدتهم وفي شأن خبرهم بشكل عام

﴿ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾
﴿ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ ﴾
﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ ﴾
﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾

هذا التكرار لذكر علم الله المطلق بعد كل جدل في شأن أصحاب الكهف يرسخ لأصل مهم في شأن التعامل مع تلك الأمور الغيبية الخارقة للنواميس والمعجزة للعقل البشري

إنه التسليم والاعتراف بأن للعلم البشري حدوده التي لا يستطيع تخطيها وأن علم الله هو الأوسع والأعظم وهو الذي ينبغي أن يرجع إليه الأمر حين تحار العقول وتقصر الأفهام ويصير الأمر إلى مراء لا طائل من ورائه

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾

إن سياق الآيات يوجه الأذهان إلى الاعتناء بما ينفع وما ينبني عليه عمل وهذا ما فعله أصحاب الكهف بعد أن عجزوا عن تحديد مدة مكثهم

لقد أوقفوا الجدل فيما لم تبلغه عقولهم ولم تدركه علومهم وأعلنوا هذا الأصل الذي نتحدث عنه فقالوا: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾

ثم توجهوا لما ينفعهم ويصلح واقعهم

﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾

إنها الواقعية والعملية في واحدة من أوضح صورها

واقعية منبثقة من عقيدة هادئة مطمئنة تغني العقول عن الانصراف إلى الترف الفكري القائم على المراء فيما لا ينفع ولا ينبني عليه عمل

وإن سورة الكهف قد احتشدت بنماذج لمن ثبتوا في مواجهة أعتى فتن الدنيا

ففيها فتنة المال في قصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن الذي لم يتأثر بتلك الفتنة

وفيها فتنة العلم في قصة موسى والخضر والتحذير المتضمن من الاغترار بهاتين الفتنتين والاستعلاء بسببهما

ثم فتنة القوة والسلطان والتمكين في الأرض في قصة ذي القرنين

لكن ثمة فتنة أخرى كانت هي الأهم والأخطر وهي التي سميت السورة باسم من تعرضوا لها

إنها فتنة المرء في نفسه وأمنه

فتنة التهديد والقمع ليذر الإنسان مبادئه ويتنازل عن الحق الذي يحمله

فتنة ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾

إما أن يرجعوا عن الحق ويعودوا إلى الباطل وإما الرجم

ألا يوجد خيار آخر؟!

الإجابة لدى أهل الباطل دوما واحدة

لا..

لا يوجد إلا هذين الخيارين

العودة إلى الباطل

أو القمع

تلك هي فقط بضاعتهم وذلك هو ما يملكون.. وحسب

قالها الملأ لشعيب عليه السلام

﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [سورة الأعراف ٨٨]

وقالها فرعون لموسى عليه السلام

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٢٩]

وقالها قوم لوط عليه السلام حين أصر ذلك الأخير على الطهر والبعد عن دنس القوم وفحشهم

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [سورة النمل ٥٦]

وكذا قيل لإبراهيم عليه السلام

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾ [سورة العنكبوت ٢٤]

وقالها الكافرون لجميع الرسل تقريبا

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة إبراهيم ١٣]

دوما خياران لا ثالث لهما

العودة لمثل حال المبطلين

أو القمع بصوره المختلفة

وإنها لفتنة ليست كأي فتنة

والثبات فيها لمن ثبته الله وربط على قلبه

تماما كما ربط على قلوبهم

قلوب أصحاب الكهف

ولأن أبطال قصص سورة الكهف خصوصا أصحاب الكهف قد ثبتوا أمام كل تلك الفتن وضربوا أروع الأمثلة في تفضيل مرضاة الله على فتن الدنيا ومغرياتها فإن ذلك الثبات العظيم يناسب الفضل الذي روي لهذه السورة من حفظ الله لقارئها وعصمته من أشد وأخطر فتنة تشهدها البشرية وهي فتنة الدجال

ذلك لأن طريقة هذا المجرم في إضلال الخلق وفتنتهم لن تخرج عن الإبهار بدنياه وما أوتي من قوة وتمكين وما يعد أولياءه من ثواب زائف أو ما يتوعدهم به من عذاب خادع

لذا فإن من يعي ويدرك جيدًا أبعاد تلك الفتن المذكورة في السورة ويدرب نفسه على اتقائها فحري به أن يوقى فتنة الدجال إن أدركها

ومن باب أولى حري به أن يوقى ما هو أدنى من الفتن

فاللهم اعصمنا وثبتنا

إن ما حدث لأصحاب الكهف هو بلا شك أمر خارق للطبيعة والناظر إلى توقيت نزول تلك الآيات منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام حيث لم يعرف حينها ما يعرف الآن من خيال الأدباء الخصيب الذي أغرق المكتبات بروايات السفر عبر الزمن وأطروحات الخيال العلمي التي لاقت قبولا حولها بعد ذلك لأفلام سينمائية ومسلسلات تلفزيونية تتحدث عن تلك النظرية والتصور وتشحذ المخيلات لتصور مسافرين عبر الزمن من الماضي السحيق إلى الحاضر أو المستقبل وكيف ستكون ردة فعلهم حين يعاينوا تلك التغيرات التي طرأت على العالم من حولهم

حين نزلت سورة الكهف وقرأ المسلمون خبرهم لم تكن تلك الأطروحات قد راجت بل ربما لم تكن بعد قد خطرت على بال بشر

وإن هذا وجه من وجوه عظمة أحسن القصص

قصص القرآن

إنها قصص لا تخلو من المبهرات والعجائب التي تأسر الأذهان وتدهش العقول والأفهام

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

نعم والله كانوا من آيات الله عجبا

وكذلك سائر القصص القرآني دائما كان يحوي عجبا

عجبا في إحكامه

عجبا في بيانه

عجبا في تفاصيله

عجبا في مآلاته وفوائده ولطائفه وأحداثه

لكن للأسف أكثر الناس يستبدلون الذي هو أدنى بالله هو خير

ثم تأتي في النهاية خارطة طريق الثبات

اتل..

اصبر..

قُل..

لا تطع..

ثلاث أوامر ونهي واحد

أتى ذكر تلك الأوامر والنهي تعقيبا على قصة أصحاب الكهف وثباتهم المبهر

إن هذه التوجيهات الأربع تمثل خارطة طريق يبتغى من خلالها الوصول لمثل ثبات أصحاب الكهف

- الارتباط بالوحي
- الصبر على صحبة الخير
- الحذر من الغافلين وضرورة مخالفة سبيلهم

- قول الحق والصدع به بغض النظر عن الاستجابة من عدمها

هذا هو ملخص هذه التوجيهات التي تمثل كما قلت خرطة طريق الثبات

أولا الارتباط بالوحي

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾

إن هذا الارتباط بتلاوة ما أوحى به الله إلى المصطفين من عباده يعد الحصانة الأولى من أي منهج باطل أو شبهة تؤثر في ثبات المرء وهذا ما ظهر واضحا في حجة أصحاب الكهف على شرك قومهم

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾

إنهم دوما كعادة المرتبطين بالوحي يطالبون به لإثبات أي دعوى ويدحضون به أي افتراء كاذب

السلطان البين

وأين ذلك إلا في الوحي المنزل

إن قوما هذا شأنهم مع الوحي حري بهم ألا تذهب بهم شبهة وتأتي بهم أخرى

لا يذهب بهم ولا يأتي إلا البينة والدليل

الوحي

ثانيا الصبر على صحبة الخير

هذه الصحبة التي تعين المرء على الطريق وتهون عليه ما يعتري هذا الطريق من مصاعب ومشاق ونتوءات ومحن

إن صحبة الخير هي أحد أهم أسباب الثبات التي ينبغي أن تقدر بعظم قدرها وألا تهمل أهميتها

تلك الأهمية التي جعلت التوجيه لراعيتها يبدأ بلفظ عجيب الصبر

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

وهل صحبة الأخيار تستلزم صبرا

الجواب نعم

إن اختلاف طبائع الخلق قد يورث شيئا من النفور وإن قوما ليسوا معصومين قد يرتكبوا ما يزهد في صحبتهم

لكن إن كانوا حقا ممن يريدون وجه الله ويغلب عليهم الصلاح فينبغي ملازمتهم وهنا تبرز قيمة الصبر لتتخطى مصاعب الاختلاف وتذلل نوازع النفور

وليس الصبر وحسب بل لابد من الملازمة حتى بالنظر

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

هكذا فعل أصحاب الكهف مع بعضهم البعض وهكذا ينبغي أن يكون التعامل مع صحبة الخير

بينما في المقابل لابد من الحذر من الفئة الأخرى

أهل الهوى والغفلة

أولئك الذين صار أمرهم فرطا فلا ينبغي التهاون معهم ولا التساهل في مجرد طاعتهم وهذا هو التوجيه الثالث

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

أما التوجيه الرابع والأخير فهو القول

قول الحق والصدع به بغض النظر عن الاستجابة من عدمها

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾

قضية الداعي أو الصادع ليست في نجاحه أو فشله الذي يحدد لدى البعض بمعايير الاستجابة

الفكرة في القول نفسه

في الحق الذي هو قيمة قائمة بذاتها بغض النظر عمن يعتنقها

وهذا أيضا فعله أصحاب الكهف

قاموا وقالوا وصدعوا ونصحوا

ولم يستجب لهم

فهل قلل ذلك من شأنهم أو أدنى درجاتهم

الجواب لا

العبرة كانت بقولهم وفعلهم وليست في استجابة الناس لهم فهؤلاء الناس ليسوا أبدا مكرهين

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾

لكن ماذا لو كانت الأخيرة

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾

الامر إذن ليس تخييرا مفتوحا بل ثمة مصير ومآل ينبغي أن يتقى

وهذا أيضا ما فعله أصحاب الكهف وحذروا منه قومهم ثم تحملوا النتيجة

وثبتوا

لأجل كل هذا ثبتوا

وأنا وأنت أيضا يمكننا ذلك

لكن بالاستجابة لما استجابوا إليه وطبقوه

الوحي والصحبة والصدع

خارطة طريق الثبات

فاللهم ثبتنا وأعنا وقنا الفتن ما ظهر منها وما بطن



١١. ذو القرنين

أكان ملَكا (بفتح اللام) أم كان ملِكا (بكسرها)؟!
أم أنه كان ذو القرنين نبيا مكلما؟!

سواءً كان ملَكا أو ملِكا أو نبيا فإن ذا القرنين بلا شك كان شخصية ثرية مبهرة تدعوك لتأملها بغض النظر عن ذلك الخلاف الشهير حول حقيقته

لقد كان ذو القرنين نموذجا للوجه غير المعتاد للسلطة والقوة والتمكين حينما يؤتاهم بشر!

أما الوجه المعتاد والمتوقع فهو وجه فرعون والنمرود!
وجه سادة عاد وملوك ثمود!
وجه بختنصر وكسرى وقيصر
وجه جُل ملوك الأرض وسلاطينها

فالأصل أن القوة والسلطان يغران صاحبهما وغالبا ما يفسدانه ويكونان ذريعة لتجبره بعد ذلك واغتراره بل ربما تألهه
ولقد استدل فرعون على ألوهيته بتلك القوة والملك والسلطان ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾
وتوهم النمرود أن ملكه يؤهله ليكون صاحب تصرف في حياة العباد فقال: أنا أحيي وأميت

هذا هو للأسف الأصل المطرد في ملوك البشر وأغنيائهم وأقويائهم لذا كان الإمام العادل من ضمن سبعة يظلهم الله بظله فهو استثناء نادر يستحق صاحبه هذه المنزلة والمقام والمكانة والمكان ظل العرش

حين تجتمع القوة مع الصلاح والإيمان فتكون المحصلة المبهرة والاستثنائية

ولقد كان عهد ذي القرنين أحد تلك العهود الاستثنائية

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾

تمكين كامل

ملك لما بين المشرق والمغرب

أسباب متوفرة

فهل اغتر وتكبر؟!

هل طغى وتجبر؟!

هل ظلم أو فجر؟!

أبدا...

لم يفعل وحاشاه أن يفعل!

القوة والسلطان والصولجان والأسباب المتوفرة لم تغير من نفس ذي القرنين ولم تغره أو تعكر صفو تواضعه وتجرده

بل استمر في سيره الدؤوب لنشر العدل في ربوع الأرض و...
أتبع سببا

وكما سبق وأوضحنا لم يرد ذكر ذي القرنين في أي سورة في كتاب الله إلا سورة الكهف

تلك السورة التي هي بلا شك أنسب السور لتلك الشخصية التي يميزها أبرز ما ميز قصص أبطال سورة الكهف الآخرين

ولقد أسلفنا أن أبرز ما تشترك فيه تلك القصص الأربعة وأبطالها هي الحركة

الحركة المستمرة

السعي الدؤوب

العمل لدين الله

إنها حركة تجعل القلب يلهث وهو يتحرك مع أصحاب الكهف إلى كهفهم هجرة بدينهم وما يلبث أن يستريح حتى يلهث مرة أخرى مع الرجل المؤمن وهو يدخل على صاحب الجنتين يدعوه ويعظه ويذكره بالله ثم يهرع القلب سريعًا مع نبي الله موسى وفتاه في رحلة طويلة حتى مجمع البحرين يجوب قفارها موسى عليه السلام طالبًا للعلم والفهم وتتلاحق الأنفاس أكثر مع رحلات الملك العادل ذى القرنين وهو يجوب مشارق الأرض ومغاربها لنشر العدل ونصرة المظلوم حيثما كان

حركة دؤوبة ومتنوعة ما بين هجرة لإقامة الدين إلى دعوة وأمر

بمعروف ونهى عن منكر إلى طلب للعلم وارتحال وبذل لأجل تحصيله ثم جهاد ونصرة وتفع للناس

مع كل ظرف وتحت أي ضغوط أو مؤثرات هناك حركة من نوع ما

إنها رسالة واضحة مفادها أن هذا دين حركة وعمل وبذل ودأب
ليس دين تنطع أو راحة وكسل

في كل مقام وفي كل حال هناك نوع من الحركة المطلوبة
عند الاستضعاف هناك حركة وتكليف بالصدع
﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾
تأمل قيامهم وقولهم
ثم تأمل المفاصلة الواضحة في قولهم
﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾
ثم تأتي الهجرة للنجاة بالدين بعد انقطاع السبل واستحالة الظهور
﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

وعند ظهور المعاصي والغفلات كانت هناك حركة دعوية حوارية ظهرت جلية في الحوار المستمر بين صاحب الجنتين وصاحبه

المؤمن وتكرار لفظ وهو يحاوره يبين تلك الحالة النابضة والسعي الحثيث للتغيير والنصح

وعند وجود نوع من الاستقرار يسمح بالحركة في طلب العلم والاستزادة من المعرفة النافعة نجد موسى يجوب الفيافي والقفار معلنًا نيته وعزمه وإصراره على بلوغ غايته العلمية: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾

إن الإصرار بلغ به استعدادًا لأن يظل سائرًا لأحقاب طويلة وأعوام مديدة وأزمنة مديدة لا لشيء إلا ليتعلم

ويعرف

وحينما يدرك بغيته تجد التعليم العملي من خلال الحركة المستمرة أيضًا والتي تظهر في لفظ متكرر ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ وإذا بالحركة التعليمية العملية تستمر من قرية لأخرى وعبر البحر والبر والمتعلم يتواضع ويتصبر

وعند الرخاء والتمكين واكتمال الأسباب المادية والقوة السلطانية لن تجد في السورة الإخلاد إلى دعة القصور وسعة حدائقها الغناء ولذاتها ومتاعها

بل ستجد حاكمًا عادلًا وسلطانًا قويًا متحركًا يجوب مشارق الأرض ومغاربها لينشر العدل في ربوع المعمورة وينصر المستضعفين ويكف أذى المفسدين والظالمين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ ﴾
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ ﴾
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ﴾

حركة عالمية كبرى لا تعرف حدودًا ولا تحصرها قوميات
فقط الحق والعدل واستعمال ما أوتي من أسباب لأجل ذلك

المهم أنه دائمًا كانت هناك حركة وبذل من نوع ما

إنها صورة رائعة للمجتمع المسلم المطلوب
مجتمع متحرك عامل مهما تباينت الأحوال ومهما تغايرت الأوضاع والمؤثرات
يظل الأصل أن المؤمن متحرك إيجابي نافع حيثما حل وارتحل سواء كان في أقصى المشرق أو المغرب
المهم أن يتحرك لدين الله
وأن يتبع سببا
تماما كما فعل ذو القرنين
وكما فعل أشباه ذي القرنين في كل زمان

....

أثناء رحلته الطويلة في أرجاء الأرض الشاسعة التي كان أحد أربعة ملوك ملكوا ما بين مشرقها ومغربها وجد ذو القرنين قوما...

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾

ويبدو أن الظلم كان قد تفشى بين هؤلاء القوم الذين سكنوا أقصى الغرب الذي استطاع ذو القرنين بلوغه

وقد خُير ذو القرنين في التعامل معهم..
﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾
هل كان التخيير من الله
هل كان بوحي فيترجح قول القائلين بنبوته وبورود الوحي عليه
أم كان عبر نبي آخر عايشه ذي القرنين
ربما كانت هذه أو تلك لكن ما يعنينا هنا في هذه التأملات = إجابته!

تلك الإجابة التي ترسخ لمبدأ عدل باهر على بساطته ووضوحه فلطالما افتقرت إليه البشرية

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾
﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

هكذا كان رد ذي القرنين

ومن رده تُتبين تلك القاعدة القرآنية العظيمة ويظهر من خلالها

المبدأ الثابت والأصل الراسخ: لا عقوبة إلا مقابل خطأ وبما يوازي الخطأ والمتسبب في الخطأ عليه أن يتحمل مسؤوليته ويسدد (فاتورته) بما يوازيه

أن تُعرف أسباب المشكلة ومحل الخلل وموطن الخطأ وأن يتحمل المخطىء تلك المسؤولية المادية أو المعنوية عن الخطأ الذي قام به ويدفع من ظلم ثمن ظلمه

فقط من ظلم

هذا هو الأصل والقاعدة الشرعية الواضحة

حتى على مستوى الأعراف البشرية الطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة على التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن ذلك المبدأ هو الأصل

المنصفون كذي القرنين في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان بل يُفَصِّلون ويميزون ويفرقون بين الصالح والطالح وبين المحسن والمسيء ويرفعون دوما ذلك الشعار القرآني الجليل ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ولو افترضنا جدلا وقوع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم فلتكن المحاسبة من نصيب مقترفه فقط عملا بتلك القاعدة القرآنية التي تكررت بنفس اللفظ خمس مرات في كتاب الله

قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته صار يغيب عن أذهان كثير من الناس اليوم فيعتمدون خطاب الجمع والتعميم ويختارون ثقافة السلة الواحدة التي هي ثقافة مريحة بلا شك لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق الظالم شيئا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص)؟!

وإن ذكرته بأنه ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ و«إن أعظمَ الناسِ فريةً الشاعرُ يَهجو القبيلةَ بأسرِها».. تأمل.. القبيلة بأسرها!!

إلى آخر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل = فإن تذكيرك لهذا الصنف بها سيصطدم للأسف بحواجز مصمتة وضعها على عينيه مروجو تلك الثقافة

ثقافة السلة الواحدة والتعميم المقيت ومبدأ السيئة تعم والعقوبة على المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون عقولهم في تأمل مآل تلك الطريقة لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك على سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلى بكاء حين يكتشفون مدى الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف يحاسب كل أسمر على خطيئة من يشاركه لونه وكيف يعاقب كل أشقر على جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا يُلام سمين على كل ذنب اقترفه سمين مثله

مشهد هزلي هو لكنه للأسف يحدث يوميا

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجما مخالفه بصيغة الجمع قائلا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء تلك الثقافة

ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة وعمومها وشمولها

ذلك المبدأ الذي حذر منه يوسف عليه السلام بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا من أخيهم فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

فقط من وجد المتاع عنده

تماما كما قال وفعل ذو القرنين

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾

فقط من ظلم..

.....

وثمة قيمة راقية أخرى يعلمنا إياها الملك العادل والعبد الصالح ذو القرنين أثناء رحلته إلى أقصى الغرب

قول اليسر!

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾
﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ليس فقط بالجزاء المادي يكافأ المرء
لابد من الكلمة الطيبة
من القول الحسن
لقد بين ذو القرنين أنه سيجازي المؤمنين الصالحين أو أن ربهم سيجزيهم الجزاء الأوفى لكن الأمر لم يقتصر على الجزاء
إنه سيقول أيضا
سيتكلم
سيثني ويشكر
ولا يشكر الله من لا يشكر الناس
هكذا علمنا نبينا ﷺ
وكذلك أمر المتحابين في الله أن يفعلوا
مر رجلٌ بالنبيِّ ﷺ وعنده ناسٌ فقال رجلٌ ممن عنده إني لَأُحِبُّ هذا للهِ فقال النبيُّ ﷺ أَعْلمتَه قال لا قال فقُمْ إليه فأَعْلِمْهُ فقام إليه فأَعلَمَه فقال أحبَّكَ الذي أحببْتني له قال ثم رجع إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَه بما قال فقال النبيُّ ﷺ أنت مع من أحببتَ ولك ما احتسبتَ
رواه أحمد والحاكم وصححه الذهبي وحسنه الألباني

و عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال:«**إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**» (رواه أحمد وغيره) وفي رواية عن أبي ذر: «**إذا أحبَّ أحدُكمْ صاحِبَه فلْيأْتِه في مَنزِلِه، فلْيُخبِرْه أنَّهُ يُحِبُّه للهِ**»

تخيل

يأتيه في منزله لا لشيء إلا لأجل هذه الكلمة الطيبة

أحبك لله!

إنه قول اليسر والكلام بالتي هي أحسن الذي أوصانا به ربنا ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾

مبدأ قرآني نبيل يفعِّله ذو القرنين بشكل واضح ومباشر فياليتنا نقتدي به... ونقول يسرا

....

وتستمر رحلة ذي القرنين الذي لم نعرف عنه من خلال القصة القرآنية أنه مكث بمكان واحد أخلد فيه إلى الراحة والدعة وتصل بنا رحلته الطويلة إلى مكان آخر عجيب يبدو أن له علاقة بمشرق الشمس قيل هو أقصى المشرق وقيل هو مكان يطول فيه النهار عن طبيعته المعتادة

في هذا المكان وجد ذو القرنين قوما ليس لهم ساتر من الشمس ولقد تحدث المفسرون طويلا حول طبيعة هؤلاء القوم فمنهم من قال أن أرضهم لم تكن تحمل بنيانا يقيهم حر الشمس وليس فيها جبل أو شجر يستظلون به فكانوا إذا طلعت الشمس تغوروا في المياه أو دخلوا في أسراب، فإذا غربت خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾

ومن المفسرين من رأى أن هؤلاء القوم كانوا من القبائل البدائية التي لم تعرف التحضر وأنهم لم يكونوا يستترون ببناء ولا حتى بثياب تكسوهم والبعض ذكر أنهم من الزنج والبعض زاد بروايات بعضها لا يخلو من أساطير

خلاصة كلام المفسرين أنهم كانوا قوما ذوي طبيعة خاصة ومختلفة وأن ذا القرنين بلغ أرضهم ضمن ما بلغ ملكه الشاسع

الملفت في هذه المرحلة من رحلته ليس عجب المكان ولا طبيعة السكان

الملفت هو تلك الجملة التي تلت تلك المرحلة التي يخيم عليها بعض الغموض وشيء من روح الاستكشاف التي قد تكون من أسباب العلو لدى من يصل إليه

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾

الكلام هنا من الملك الحق سبحانه وتعالى

من اللطيف الخبير عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

أحطنا بما لديه خبرا

اطلعنا على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء مهما بلغوا من شأن

مهما اكتشفوا من أعاجيب

وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض

لم يخرجوا عن الإحاطة الربانية ولم يتفلتوا من المعية الإلهية والإدراك الكامل والمراقبة المحكمة

هذا في شأن ذلك الملك الذي ملك ما بين المشرق والمغرب ضمن قلة فعلوا عبر العصور

فما بالك بمن هم أدنى وأضعف

فياليت كل من أوتي ملكا وسلطانا أو سببا من أسباب القوة والتمكين يتأمل تلك الإشارة ويتدبر تلك الحقيقة = لكان وفر على نفسه وعلى العباد كثيرا من الغي والجبروت الزائف

فقط لو تذكر حقيقة الإحاطة

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

وفي خاتمة الرحلة ذات المسافات الشاسعة التي جاب فيها ذو القرنين الأرض من مشرقها إلى مغربها سيلتقي الآن بأناس يصعب التفاهم معهم

إنهم قوم ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

البعض ذهب أن ذلك لعجمة في ألسنتهم ولغة غريبة غير متداولة كانوا يستعملونها في التفاهم والبعض الآهر ذهب إلى أن عدم فقههم بسبب علة في عقولهم إما لطبيعة فيهم أو لما أصابهم من أهوال على يد المفسدين في الأرض يأجوج ومأجوج

المهم هنا أن التواصل معهم كان صعبا
لكنه فهمهم
وأدرك شكواهم

لعله صبر عليهم ولعله استعان بلغة الإشارة كما قال بذلك بعض المفسرين

المهم أنه صبر وتمهل وبذل ما في وسعه حتى فهم..

فهم قوم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾

ومن لا يفقه يصعب عليه جدا أن يفقه غيره ما يريد

لكنه نموذج آخر من نماذج عدل الحكام كما ينبغي أن يكون يضربه لنا ذو القرنين

ليس كما يتململ كثير من ذوي القوة والمنصب والسلطان من شكاوى الخلق ومطالب البسطاء أو يأنفون من التواصل مع المساكين والعامة ممن لا يجيدون أساليب النخب وطرق التواصل التي يحبها أهل الجاه والصولجان

لم يكن ذو القرنين يأبه بكل ذلك

هؤلاء قوم لهم مطلب وهذا وحده سبب كاف ليسمعهم...

وليفهمهم..

لكن لماذا ذو القرنين؟!

لماذا توجه له المظلومون طالبين النجدة والنصرة؟!

لماذا كان بمجرد بلوغه منطقتهم بين الجبلين العظيمين = ملجئا لهم ومحلا لشكواهم من إفساد من ظلموهم؟!

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

هل هي سيماه التي كانت على وجهه والتي يعرف بها الصالحون كما عُرف يوسف في السجن فقيل له: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أم هي سمعته في الذود عن المظلومين وأنباء عدله التي تناقلتها الألسنة؟!

ربما هذا وربما ذاك لكن الخلاصة أنهم أحسنوا الظن وأجادوا الاختيار

ولقد كان عند حسن ظنهم

بل في الحقيقة كان أحسن كثيرا من ظنهم

فبالمعايير المادية المعتادة فإن لا شيء بدون مقابل

لا أحد يفعل شيئا عظيما أو يُسدي خدمة لأحد دون أن ينتظر منه أجرا

هكذا يقيس الأمور كثير من الخلق

بمنطق المصلحة المتبادلة والنفعية الصارمة التي لا هوادة فيها

شيء مقابل شيء وخدمة نظير أجر

هكذا فعل القوم مع ذي القرنين وكذلك كان ظنهم به

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

هل نجعل لك أجرا عظيما ومالا وفيرا مقابل تلك المساعدة في إنقاذنا من المفسدين وعزلنا عنهم بسد منيع

كان ذلك عرضهم

وكانت تلك إجابته

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾

إجابة مفاجئة لمن لم يدرك ذلك المعيار الآخر

معيار طلب رضا الله وابتغاء ما عنده

المعيار الذي به يقيس الصالحون الأشياء

ليس معنى ذلك أنهم يحرمون ما أحل لهم الله من اتخاذ الأجر مقابل العمل

لقد قبله موسى عليه السلام وهو من هو من الصلاح والتقوى

لكن إن كان الله قد كفاني وأغناني فلماذا المزيد؟!

لعل هذا ما فكر فيه ذو القرنين

ولعل مثله ما فكر فيه سليمان عليه السلام حين جاءته هديه أهل سبأ فقال بحزم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.

ومثله ما ورد في كلام كثير من الأنبياء عليهم السلام

المال خصوصا

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

هكذا أعلنوها مرارا ناصعة نقيَّة نافية لانتظار الأجر..

أي أجر

فالقضية ليست عند الصالحين كمسألة حسابية لابد فيها من طرفين مستويين وشيء لزوم الشيء

القضية لها مقاييس أخرى عندهم

مقاييس أخروية

شعارهم فيها ولسان حالهم ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

هكذا يفكرون

وكذلك يفعلون

....

ثم يأتي أوان الإنجاز الأشهر والأعظم في حياة ذلك الملك العظيم ذي القرنين

السد...

لقد صرح القوم بطلبهم وبينوا أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لدفع شر أعدائهم وعرضوا المال والخراج على ذي القرنين ليبنيه لهم

ولقد رفض الأجر كما بينا واكتفى راضيا بنعم الله عليه

لكنه مع ذلك لم يسارع للتنفيذ، رغم قدرته على ذلك وهو الذي أوتي من كل شيء سببًا

لقد قال لهم وهو المُمَكَّن القوى: فأعينونى!

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾...

أعينوني؟!!
وهل يحتاج من أوتي من كل شيء سببا لعون؟!
إنها قيمة أخرى يغرسها ذو القرنين

لقد أشركهم معه وغرس فيهم قيمة العمل والبذل
ثم هو لم يكتف بذلك، وما زال بهم حتي علمهم صناعة سبيكة الحديد والنحاس، وأطلعهم على سر بناء السد المتين، الذي يصمد ويقوي علي حجز قوم يأجوج ومأجوج

يمكنك أن تقول إنه لم يعطهم سمكًا، ولكنه علمهم كيف يصطادونه بأنفسهم
وكذلك فعل يوسف عليه السلام حين أوَّل رؤيا الملك فلم يكتف بالتأويل الخبري بل نصحهم ودلهم على خطة محكمة لمواجهة المجاعة المقبلة بأنفسهم

وكذلك كل قائد متجرد
ليست قضيته أن يظل الأتباع عالقين به لا يتحركون إلا بأمره، ولا يرون في الكون غيره فلا يتمحورون إلا حوله ولا يدورون إلا في فلكه ولا يفعلون شيئا إلا التصفيق له والتهليل لعظمته والانبهار الدائم بذكائه وعبقريته

القائد الحقيقي لا يعنيه كل ذلك

إنما يعنيه أن تكون لديهم القدرة على العمل والحركة والتغيير والبناء.

به أو بدونه..
فهو في حقيقة الأمر مجرد لبنة...
لبنة في بناء كما وصف النبي ﷺ نفسه
وهو فى النهاية ميت وإنهم ميتون
هذا هو التوسط والقصد
لا بأس من وجود القادة والرموز
بل لا غنى عن وجودهم

لكن لا يصح أبدًا أن تتمحور الحياة فقط حولهم، وتختزل في أشخاصهم حتى يتحولوا في ميادين النفس إلى أوثان كبيرة، تنتهى إليها الأحداث، وتدور في فلكها الوقائع

فليكن القادة
وليحترموا، وليقدروا، ما داموا على الجادة..

لكن الأهم أن تكون معهم، وإلى جوارهم، وبمحاذاتهم الأفكار، والرؤى، والمناهج،والمؤسسات،
و ليحاكم كل ذلك إلى موقعه من موافقة الحق أو مخالفته
وليرتبط الناس بالحق والعلم والعمل

وليس بالأشخاص

ثم بُني السد...
وماذا بعد أن تم البناء واكتمل الإنجاز؟!

لم يقل ذو القرنين هذه عبقرية مني

ولم يتحدث عن مدى قوته وتمكنه

ولم يدع أن هذا بفضل علمه بصناعة السبائك المعدنية والتقدم العلمي والمعرفي الذي بلغته حضارته

ولم يدندن حول شعارات الإنجازات الوطنية العظيمة أو يدغدغ مشاعر التشنج القومي التي يهواها البعض في مثل تلك المواقف فيصمون الآذان بالأغاني والأشعار وهتافات الثناء على السواعد الفتية والمجهودات العلية لمن قاموا ببناء السد المهيب

لم يفعل شيئا من ذلك

جملة واحدة اكتفى بها في قمة تمكينه وفي خضم إنجازه الهائل ببناء السد الشاهق

﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ ﴾

من الله
محض فضله وبركته وتيسيره

ورحمته

وهو على قوته وصلابته ليس بخالد ولا منيع أمام إرادة الله وقضائه

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾



١٢. شخصية صاحب الجنتين

كانا صاحبين..

بل قيل أنهما كانا أيضا شريكيْن

بل وورد أنهما كانا شقيقين

ثم افترقا..

مع ما كان بينهما من صحبة أو أخوة أو شراكة = فإن ثمة مواقف محورية تصير فيها المفارقة والمفاصلة مآل ومصير لابد منه ولا محالة من الوصول إليه مهما بلغت درجة القرب أو الصحبة الموجودة قبل تلك النقاط المحورية واللحظات الفاصلة والمواقف الكاشفة الفاضحة

في مثل ذلك دعا موسى عليه السلام ربه جل وعلا أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

وفي مثله افترق الصاحبان اللذان نتحدث عنهما

صاحب الجنتين المجرم

وصاحبه المؤمن

وثمة شخصيات لا تذكر في القرآن ضمن سياق منفصل عن

مقابلها أو نقيضها فبضدها تتمايز الأشياء وتظهر الخصائص المميزة لكل نقيض

من أوضح نماذج ذلك الاقتران بين متناقضين = هذا النموذج الذي بين أيدينا في هذا الفصل

نموذج صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن

في الموضعين اللذين وردت فيهما قصتهما في سورة الكهف وسورة الصافات فإن هذين النموذجين ورغم التضاد الواضح والتناقض الصارخ بين خصائص كل منها إلا أن أحدهما لم يذكر أبدا في سياق منفصل عن نقيضه

نقيضه الذي كان يوما صاحبه

حتى جاءت لحظة المفاصلة التي نتحدث عنها

عندئذ افترقا..

لكن هذا الافتراق لم يحدث إلا بعد حوار ولم يسارع إليه المؤمن إلا وقد استنفذ قبله سبل الإقناع وطرق أبواب النصح واستعمل ما استطاع من وسائل الدعوة ترغيبا وترهيبا وبيانا وتذكيرا كما سيأتي في السطور القادمة إن شاء الله

لم يركن الصاحب المؤمن لبرج عاجي يسهل من فوقه تقييم الخلق ومحاكمتهم دون بذل الجهد لتغييرهم ولم يكتف بأداء تكليف ثقيل يحوله الاستثقال إلى واجب جاف ودعوة لا روح فيها وكلمات جوفاء لا طعم لها

لقد اختار أن يحاول
أن يحاور ويجادل بالحسنى
وأن يدخل لصاحبه..

لقد دخل عليه في جنته وبذل لصاحبه نصيحته في عقر داره وبلغت كلماته مسامع المستكبر داخل حديقته
وكذلك ينبغي أن يكون الداعية الحقيقي

لا يكتفي بالتقييم المستعلي والنقد السهل من بعيد ولا ينتظر المدعو ليأتيه راغبا ويسارع لتقبيل يديه ثم يجلس تحت قدميه منتظرا أن يفيض عليه من علمه

الداعية الصادق يبحث عن المدعو..
يطرق أبوابه..
يحاول الدخول إليه من مداخله..
يحدثه بما يفهمه ويسعى للوصول إلى مفاتيح عقله ويجتهد لفتح أقفال قلبه..

حتى لو اضطره ذلك لأن يأتيه في آخر مكان يمكن أن يتوقع إتيانه فيه

في ناديه!
هكذا كان رسول الله ﷺ

جاءت نفر من قريش يوما إلى أبي طالبٍ فقالوا أرأيتَ أحمدَ يُؤذينا في نادِينا وفي مسجدِنا فانهَهُ عن أذَانا

فقال يا عَقيلُ ائتِني بمحمدٍ فذهب إلى النبي ﷺ فأتى به إلى أبي طالب فقال: يا ابنَ أخي إنَّ بني عمِّك زعموا أنك تُؤذِيهم في ناديهم وفي مسجدِهم فانتَهِ عن ذلك

فحلقَ رسولُ اللهِ ﷺ ببصرِه فقال ما أنا بأقدرُ على أن أدعَ لكم ذلك على أن تُشعلوا لي منها شُعلةً يعني الشَّمسَ

إنه إصرار الداع إلى الله في أوضح صوره وعزيمته التي لا تنكسر كما ينبغي أن تكون..

سيظل على طريقته وسيأتيهم في ناديهم ومسجدهم يسمعهم ما يريد الله لهم أن يسمعوا ويدعوهم ليغفر الله لهم

هذه سبيله وتلك طريقته وطريقة من يتبعه على بصيرة

وهو لا يقدر على ترك تلك السبيل إلا كقدرتهم على إيقاد شعلة من الشمس

وهم لن يقدروا على ذلك أبدا

وهو أيضا لن يقدر إلا على الاستمرار

لما رأى أبو طالب منه ذلك الإصرار ولمس تلك العزيمة ما كان منه إلا أن يرجع لقريش قائلا بحسم: ما كذب ابنُ أخي فارجِعوا

هكذا كان هديه صلوات الله وسلامه عليه وكذلك كان هدي من سبقه ممن حملوا هم تلك الدعوة كذلك الصاحب المؤمن

وهكذا ينبغي أن يكون حال من اتبع بإحسان

وما أبعد صاحب الجنتين المجرم عن هذا المسلك

لقد كان هذا الشخص مثالا عمليا لما يمكن أن يفعله الاغترار بالنعم

إنها إحدى أخطر إشكاليات عدم فهم المعاملة الربانية بإغداق النعم

أن يحدث الاغترار

أن يقع الافتتان

إنها فتنة السراء في أوضح صورها

فانهمار النعم في الدنيا قد يورث في قلب غافل لا يفهم السنن الربانية = نوعا من الركون لوجود تلك النعم ويظن أن ذلك هو الأصل الدائم في معاملة الله له ثم يتطور الأمر بعد حين ليصير إلى أمن من مكر الله يتحول بعد ذلك إلى غرور وتزكية للنفس فيصبح وشعاره كشعار من قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾

وبالطبع لا يتصور أبناء الله وأحباؤه أن يمسهم العذاب ولئن مسهم فمجرد أيام معدودات

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ ﴾

هذا نفسه هو ما حدث مع صاحب الجنتين

لقد غرته النعم المنهمرة وظن أن وجودها ثابت لا يتغير في الدنيا وسيمتد ثباته للآخرة إن كانت ثمة آخرة أصلا فجنة مثله في الدنيا فقط وبالتالي لا يرجون آخرة وإن رجوها فما رجاؤهم إلا أماني خاوية وتألٍ وقح يبدو صارخا في قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

إنه الاغترار في أفحش صوره

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

إن عدم إدراك حقيقة كون الإنعام = نوعا من الاختبار والابتلاء يورث هذا الركون والتزكية المبالغ فيها للنفس ويجعل المغتر يقطع باستحالة زوال تلك المعاملة ولا يتصور أبدا أنها قد تكون معاملة مؤقتة ستزول إن لم يرعها أهلها حق رعايتها وبالتالي يتعامل كأنه تلقى عهدا من الله بتلك النجاة الأبدية وما ذلك في حقيقته إلا محض تقول على الله بغير علم

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذه هي ببساطة حقيقة الاغترار بالنعم وهذا نفسه ما اعترى قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ﴾

لكن هذا الاغترار بالنعم إنما يصيب من تغافلوا وتعاموا عن تلك

الحقيقة التي طالما نُبه إليها من أصيبوا بتلك الآفة ووجهت أنظارهم لتأملها

حقيقة إحتمالية تعرض النعم للزوال بل والاستبدال بالعذاب إن لم تقابل بالشكر والعمل الصالح

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

لكن قلة من الناس من يشكر

وصاحب الجنتين للأسف لم يكن من هذه القلة

وأكثر ما ورد من الروايات عن حقيقة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن يدور حول وجود تماثل سابق في أصل الغنى إما بسالف شراكة كانت بينهما ثم اقتسما المال بالتساوي بعد انتهاء تلك الشراكة وذلك على قول من اختار أنهما كانا شريكين

أو بميراث من أبيهما على قول من أثبتوا أنهما كانا أخويْن..

ثم اتّجر أحدهما واستثمر المال وتزوج به نساء ذوات منصب وغنى ونسب فازداد ماله وتضخمت ثروته وكثر ثمره والجنتان كانتا بمثابة درة تلك الثروة الطائلة

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾

بينما اختار الآخر تجارة ربحها الأكبر آجل وثمرتها العظمى تُرى في حياة أخرى فسُلط على هلكة ماله في مصارف الخير ووجوه البر فأطعم المساكين وأعان المكروبين وكفل اليتامى والمعدومين

لقد اختار تجارة تنجي من عذاب أليم واستثمر ماله مع الكريم الرحيم

في ظاهر الأمر بدى أن هذا الأخير لم يعد نظيرا لصاحبه ولا مكافئا له في ثرائه الفاحش بل في بعض الروايات أنه احتاج إلى عمل فذهب إليه يلتمس سابق مودة بينهما لعله يوفر له وظيفة تغنيه عن المسألة وتكسبه قوته من عمل يده.

لكن عالي الشأن في الدنيا كان دني النفس فقير الأخلاق فتعالى عليه وسعى لإذلاله وتبكيته واستدل بسعة ماله على تفضيله وعظم مكانته ثم شكك في دين صاحبه الصالح وادعى أن دين هذا الأخير قد أفلسه وأن إلهه قد أفقره فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث

ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما وها قد أغناني صنمي وأفقرك تصديقك بإلهك

هنا قرر المؤمن أن يقدم دعوته على حاجته وقال: والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه وورد أن مما وعظه به قوله: يا أخي إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أو عقابا لكافر.

ثم كان بينهما ما سيأتي من حوار وتفصيل

وسواءً صحت تلك الروايات أم لم تثبت فإن ما يعنينا هو السياق القرآني الذي لم يصرح بسابق حال كل منهما لكنه بين شيئا مهما يمكن استقراؤه من خلال الحوار القرآني الذي دار بين الرجلين..

إنها عزة نفس المؤمن وقوته في الحق

عزة لم تنل منها فاقة وقوة لم تنقصها حاجة ولم تهزها ضائقة خصوصا حين برز مقام إظهارها عندما حاول الطرف المقابل أن يستغل تلك الضائقة والحاجة أو يشير إلى وجود الفاقة ليعلو الكفر على الإيمان وترتفع المعصية على الطاعة

هنا لا ينبغي للمؤمن أن يقبل الذلة ويرضى بالمهانة التي لم تبلغ في هذا المقام شخصه وحسب وإنما تكاد أن تطال دينه الذي هو أغلى من لحمه ودمه

كان من الممكن أن ينكسر طمعا في دنيا أو يركن إلى السكوت عما يقوله الغني الفاجر الذي ستظهر الآيات بعد قليل أن فجوره قد تحول إلى كفر بيِّن

وكان من الممكن أن يتغاضى مؤقتا عن باطله حتى وإن لم يجامله أو يقره على هذا الباطل

البعض يفعلون هذا

بل يفعلون ما هو أعظم

لكن الرجل المؤمن كان صاحب دعوة وحامل رسالة

لذا لم ينكسر ولم يسكت على ما يسمعه من الباطل ناهيك طبعا عن أن يجامل أو يداهن

في جميع الأحوال وعلى كل الروايات والاستقراءات فإن الصاحب المؤمن كان عزيزا بدينه واثقا من عقيدته مستيقنا تماما أن ما عند الله خير وأبقى وأن وجود الدنيا أو ذهابها ليس دليلا على أي شيء من أمر الآخرة التي لا يُنال رخاؤها إلا بالإيمان..

والتقوى..

....

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾..

كانت هذه هي البداية

وكان هذا هو محور التحول في حياة صاحب الجنتين

وما بعده لم يكن كما كان قبله

لقد جاء هذا الخبر منفصلا عما سبقه من بيان ما في الجنتين من نخيل وأعناب وزروع وأنهار

هنا نُسب الثمر للرجل بينما كان السياق القرآني واضحا في نسبة كل ما كان قبله لله رب العالمين وفي بيان أن كل ما كان في الجنتين من أسباب هو نتاج لأفعال الخالق وحده

﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾، ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾

تأمل الأفعال مرة أخرى..

جعلنا.. وحففناهما.. وجعلنا.. وفجرنا

على من يعود الضمير في كل هذه الأفعال؟
الله وحده
هو الذي جعل الجنتين وهو الذي حفهما بالنخل وهو الذي أنبت النخل وهر الذي فجر النهر

ثم كانت الحصيلة للرجل
الثمر الذي هو في حقيقته محض رزق من الله هو الذي سبب أسبابه وهو الذي يسر خروجه وهو الذي أجرى الماء الذي سقاه وهو الذي أنبت أشجاره لتؤتي أكلها ولا تظلم منه شيئا
هذا الثمر صار الآن في يد الرجل
في حيازته وملكيته
صار له
لكن هل هو من فضله هو وبكسبه وأوتيه على علم عنده
الجواب رغم وضوحه لم يصل لذلك القلب القاسي الذي حواه صدر ذلك المستكبر الغافل
بل على العكس ما ترتب على هذا الثمر كان آخر ما ينبغي له أن يكون عاقبة وجوده

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾..

حرف ال «فاء» هنا والذي يقتضي لغة الترتيب والتعقيب = ورد مباشرة بعد وجود الثمر

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾

هذا القول الذي يقطر الكبر والخيلاء من حروفه المستعلية كان النتيجة المباشرة التي ترتبت على وجود الثمر وأعقبت تنزل النعمة

وهذا للأسف ما يحدث لدى كثير ممن يغفلون عن مصدر النعم

من يتناسون حقيقتهم ويتغاضون عن بشريتهم ويظنون أن لهم من الأمر شيء

أولئك من تضلهم النعم وتفتنهم الدنيا إذا ما أقبلت ويظنون أنهم قادرون عليها وينسون ماهيتها وكونها لا تساوي جناح بعوضة وهي أهون على الله من جثة جدي متعفنة وهي مع هوانها ليست من كسبهم ولا بأمرهم

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس ٢٤]

تأمل.. لقوم يتفكرون

وما أندر ذلك الصنف الذي يعي ويتفكر

جل الناس ينسى أو يتناسى تلك الحقائق ويأبى تذكرها ومن هنا يأتي الكبر والتعالي

وما يتبعه أخطر

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[سورة الأنعام ٤٤،٤٥]

وواهم من يظن أن الشيطان سيرضى من ابن آدم بما هو أدنى من الكفر

غاية ما في الأمر أن لذلك الملعون وسائله وطرقه التي يعد أحد أهمها وأخطرها = التدرج

إن الأمر لا يحدث فجأة وقد لا يقع المرء في الدرك الأسفل من مراد الشيطان بين عشية وضحاها

الأمر يحتاج إلى خطوات

هذه الخطوات التي تمر عبر طريق منحدرة في نهايتها تقبع الغاية العظمى للشيطان

الكفر

ولقد سلك صاحب الجنتين هذا المنحدر وسار بخطى ثابتة على الخطوات التقليدية التي رسمها له الشيطان بعناية بالغة

في البدء كان الكبر

التعالي والغرور

تلك المعصية المفضلة لدى إبليس والتي تذكره بماضيه الأسود

إنها المعصية الأولى التي بدأ بها الأمر كله

﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

بهذه العبارة خطّ إبليس السطر الأول في كتاب الكبر الذي سود المستكبرون صفحاته من بعده عبر العصور

لعل من أول ما سطر في هذا الكتاب قول قوم نوح لنبيهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾

ولقد شارك فرعون بمشاركة مهمة في هذا الكتاب حين قال: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ ؟

ثم ختم الفصل الخاص به في كتاب الكبر الأسود بقولته الأشهر: ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾

وزاحمه النمرود بقوة حين قال لإبراهيم عليه السلام كلمته المثيرة للشفقة: ﴿ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ ﴾

ولم يدخر قارون جهدا في وضع كلماته المستكبرة لتجوار كلمات أساتذته: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾

وعاد كان لها فصل مهم أيضا في ذلك الكتاب المخزي وصدروه بقولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ ﴾

وإن صاحب الجنتين لتلميذ نجيب

ها هو يصيح بمثل من سبقوه: ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾

ها قد أتم الخطوة الأولى بنجاح واتخذ لنفسه مكانا بارزا بين إخوانه المستكبرين

إذن فقد حان الوقت وصار جاهزا ليخطو خطوة أخرى جديدة على درب أستاذه الذي لم يكتف منه بعد

ولن يكتفي

بعد أن ظلم صاحب الجنتين نفسه بالمعصية وخطى خطوة الغرور وتدنى في دركة الكِبر كان على الشيطان أن يقود صاحب الجنتين إلى خطوة أخرى

أن يحوِّل الغرور إلى اغترار وأن يطوِّر الكبر إلى أمن من مكر الله

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾

كانت هذه هي الخطوة التالية

لقد اغتر صاحب الجنتين بقوته وظن أنه قادر على جنته

وهذا يكاد أن يكون أصلا مطردا في تعامل ناقصي العقول من المتكبرين مع ما تكبروا به

أن يظنوا قدرتهم ويركنوا إلى دوام قوتهم

أو الأصوب أن نقول: إلى توهم قدرتهم وتخيل دوامها

هذه هي الحقيقة التي لا يلحظها من ركن لوجود النعمة

أن تصور دوام النعمة ونسيان أن زوالها آت لا محالة = مجرد وهم

خيال

أحلام تنسجها عقول حمقاء تحاول تناسي أن كل نعيم دنيوي هو لا محالة زائل

الدنيا نفسها زائلة فكيف بمكوناتها

لأجل ذلك لا يحب أولئك الغافلون الراكنون إلى نعيم الدنيا سيرة الآخرة ولا يطيقون من يذكرهم بها وبحقيقة أنها المآل والمصير

بل ربما يتطور الأمر ويتمادى الشيطان في خطواته ليصل الأمر إلى تمام الإنكار

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

هذا في تصوره أفضل بلا شك

الساعة بالنسبة لصاحب الجنتين وأمثاله من الغافلين هي نهاية هذا النعيم الحسي

فلينكرها إذن

فليجحد حدوثها

فلينف وقوعها

هذا هو الحل الذي تبادر لذهنه القاصر لتدوم جنة الكافر ولا ينتهي سجن المؤمن

الدنيا..

هذا أفضل له بلا شك

وثمة حل آخر تفتق عنه ذهنه المريض بوحي من أستاذه الناري الذي يرسم له خطواته

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

كيف؟

ولماذا؟

وما أمارة ذلك؟

وما الذي قدمه؟

كل ذلك لا يهم

المهم أن يطمئن وتستمر حالة الركون

ما دام قد أعطاني في الدنيا فكيف سيحرمني في الأخرى؟

إن وُجدت أخرى أصلا فهذا مشكوك فيه لدى من هم مثله

لكن من هم مثله يشتركون معه في هذا التصور الإرجائي الأحمق

هاهو نموذج الكافر في سورة مريم يردد نفس التصور

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

كفر ويزعم أنه سيؤتى الخير

والتسلسل نفسه وجد في سورة فصلت

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

نفي للساعة ونسب الفضل للنفس

ثم يأتي دور الإرجاء وحسن ظن أبعد ما يكون عن مسبباته وأصوله الراسخة وأهمها حسن العمل

﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾

ما أحسنه من ظن فقد لو اقترن بعمل

لكن يقترن بكفر ورغم ذلك يتبجح؟!

شيء عجاب

لذا جاء التعليق الختامي

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت ٥٠]

هنا تكلم صاحبه

تكلم المؤمن

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾

هل كان الصاحب المؤمن يتدخل فيما لا يعنيه حين ولج حديقة صاحبه المغتر الجاحد وحاوره وسأله؟

هل كان هذا الرجل الصالح متجاوزا وهو يسأل صاحبه هذا السؤال ناصحًا ومنبها إياه من مآلات كلامه ومغبة كبره وعناده؟

هل كان بذلك يزايد على صاحبه كما يحلو للبعض أن يصوروا الدعوة والدعاة والنصح والناصحين؟!

إن موقف هذا الرجل الإيجابي الحريص على النصح والحوار يعد حجة قرآنية دامغة تجعل الرافضين للدعوة والمحتقرين للنصيحة والمهاجمين للتذكير في موقف صعب وتجعل ادعاءاتهم المشيطنة للنصيحة والذكرى في مهب الريح

فلو أنهم هاجموا ذلك الرجل المؤمن ورفضوا حواره طبقًا لمذهبهم الخبيث فإنهم يرفضون بذلك مثالًا قرآنيًّا بديعًا ورد في سياق المدح والترغيب وحكم ذلك الرفض معلوم طبعًا

ولو أنهم أقروا أنه مثال يُقتدى به ونموذج يُقتفي أثره كما هو حال تلك النماذج الطيبة في القرآن الكريم لبطلت حجتهم وطاشت شبهتهم ووقعت دعواهم بين شقي الرحى
رحى المعاني القرآنية المحكمة

ولقد كانت دعوة الرجل المؤمن في قصة صاحب الجنتين = نموذجا من أكمل النماذج في الخطاب الدعوي وأكثرها توازنا وضبطا للغة الحوار مع المخالف مهما بلغت الدركات التي تدنى إليها ذلك المخالف

ابتداءً كما سبق وأشرنا لم يختر المؤمن الهجر أو المفارقة الكلية بل يبدو من ظاهر الآيات كما سبق وأشرت أنه قد دخل لصاحبه جنته وأن الحوار دار بين جنبات تلك الحديقة وليس خارج أسوارها ذلك لأن قولة الكفر التي تفوه به صاحب الجنتين وردت بعد قول الله ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾
إذن فحديثه عن عدم زوالها وعدم قيام الساعة كان بعد أن دخل
كيف إذن علق صاحبه المؤمن على ذلك القول إن لم يكن قد دخل معه؟

نحن إذن بصدد رجل يذهب بدعوته إلى من يحتاج إليها ويحمل رسالته على كاهله حيثما حل أو ارتحل

لكنه رغم ذلك لا يداهن أو يجامل في الحق ولا يأبه بجاه مضيفه أو غناه فيجعله ذلك ينكسر أو يذل في خطابه إذا كان الأمر يقتضي عزة وقوة في هذا الحق

ويبدو أنه قد قدر أن مدى الكبر والغرور الذي بلغه صاحب الجنتين يحتاج إلى صدمة مبدئية..

من هنا اختار أن يكون سؤاله الأول حاسما كاشفا قويا صادما

أكفرت؟!

بهذا السؤال بدأ المؤمن مظهرا حقيقة هذا الذي قاله صاحب الجنتين

لم يزين الباطل ولم يلوِ عنق الكلام ليجامل الغني ويهون عليه جريمته

لقد بدأ بالوضوح الذي تفوح منه العزة والكرامة وعدم الانكسار لإبهار المادة وبهرج الغنى

ثم بعد تلك البداية الحاسمة جاء الترقيق والتذكير بفضل الله ونعمته منذ البداية

منذ الخلق

﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾..

إنه تذكير بالنعم الأصلية التي لا تعد جنته شيئا إلى جوارها
استدعاء لذلك الحين من الدهر الذي لم يكن فيه شيئا مذكورا
ثم تأتي العزة من جديد
العزة بالله
بدينه
بعقيدته

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

وما مقام ذكر الشرك هنا؟
صاحب الجنتين لم يذكر آلهة يعبدها أو أوثان يشرك بعبادتها فلماذا الشرك في هذا السياق؟
إنها الإشارة لأصل العلة وموطن الداء
عبودية غير الله واتباع غير سبيله القويم ومنهجه السليم وصراطه المستقيم
ولقد كان المنهج البديل هنا = الدرهم والدينار
أسر الدنيا والانسحاق أمام زينتها
هذه هي حقيقة قولك يا صاحب الجنتين
وهذا ما لم يقع فيه الصاحب المؤمن

لكن الخطاب لن يقتصر على التقييم والتشخيص والوعظ والكشف

لابد من توجيه ونصح وعرض لحل

والحل سهل..

﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾

أرجع الفضل لصاحبه

علق القلب بالمنعم

اعرف حقيقة النعمة وأنها محض مشيئة إلهية

واعرف منبع القوة ومصدرها

وقل ذلك معتقدا إياه

ذلك هو الحل ببساطة

ثم ليأتي الترهيب من جديد

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

إن أمثال صاحب الجنتين ممن لا يفهمون إلا منطق القوة ولا يعترفون إلا بمعيار الأسباب المادية يحتاجون إلى ذلك الترهيب الصريح لاسيما في شأن أهم ما يحركهم ويخشون فواته..

الدنيا

هذه الدنيا التي تتحرق نفسك شوقا إليها

ما أهونها على الله

وما أيسر زوالها

وما أسهل نزعها من يدك وإعطاءها لغيرك

لابد أن يترسخ ذلك المبدأ وأن يوضع في حسبان عبيد الدنيا

وقد كان..

لقد ترسخت تلك الحقيقة في العقل الباطن لصاحب الجنتين لكنها اتخذت مكانا منزويا بعيدا أصر على حبسه فيه

ولقد خرجت إلى لسانه يوما

لكن بعد أن كان الأوان قد فات..

هل أُرسِل على جنته حسبانا من السماء؟

هل طاف عليها طائف ليلا فأصبحت كالصريم؟

هل أصابتها ريح عاتية أو داهمها طوفان مدمر؟

هل جف نهرها وصار ماؤها غورا فلم يستطع له طلبا؟

ربما كان هذا أو ذاك

وربما كل ذلك قد وقع بجنته؟

وربما شيئا غيره قد حل بها؟

المهم هو المآل

المصير..

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾

هذه الجملة القرآنية القصيرة لخصت الفاجعة وبينت القارعة التي أصابت جنته بما صنع

الإحاطة

لا مهرب ولا ملجأ ولا مناص

لم يعد له إلا كفين يقلبهما ذاهلا لا يكاد يصدق أن هذا الخراب المحيط به والمحاط به كان يوما جنته التي طالما تباهى بها وتفاخر وعلا وتكبر

أين النخيل والأعناب؟

أين الأشجار والثمار؟

أين الزروع والأنهار؟

أين ما أنفقه عليها وما بذله فيها؟

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾

كل شيء زال وفنى وليس حوله الآن إلا الخراب والأرض الخالية من أي لون من ألوان الحياة المبهجة

والآن سيتكلم

سيتذكر

سيستدعي موعظة صاحبه المؤمن من محبسها في خبايا نفسه

وسيربط ما أصابه بهذا الذي اقترفه

بشركه

﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

قد عرفت إذا تلك الحقيقة التي طالما أنكرت وجحدت وطالما ينكر غيرك ويجحد

عرفت أن الزيادة قرينة الشكر

وأن الزوال مآل الكفر

وأن الشرك لظلم عظيم وأن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة

لكن المعرفة جاءت متأخرة والاعتراف جاء على ما يبدو بعد وقوع القضاء فالأمر قد حسم ونتيجة الحرب قد ظهرت

حرب مع الخالق

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

هذه هي الخلاصة

وتلك هي النتيجة الدائمة والنهائية

لم ينتصر

ولن ينتصر..

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

خلاصة العبرة من قصة صاحب الجنتين تجملها الآية التي تلت القصة مباشرة مبينة حقيقة الدنيا بكل بهرجها وبريقها الأخاذ

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

هذه هي النهاية وإن بعدت وذاك هو المآل وإن تأخر

هشيم تبدده الرياح إذا اشتدت به في يوم عاصف

النبات الذي يهيج ثم يصفر ثم مآله حطام

جناح البعوضة

الجدي المنتن الأسك

متاع الغرور القليل

العرض الزائل

اللعب واللهو

المظهر الزائف

الزخرف الفاني

هكذا عبر القرآن وتكلمت السنة عن تلك الفتنة المؤقتة المسماة: دنيا

وبفهم تلك الأمثال المضروبة ينجو الإنسان من مصير صاحب الجنتين

حين يعرف أن هذه الدنيا المبهرة بكل ما فيها من لذات وشهوات هي مجرد زينة لا تلبث أن تزول

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

وعندها سيدرك الحقيقة الختامية التي أدركها الصاحب المؤمن ولم يدركها صاحب الجنتين الجاحد

حقيقة أن..

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

...

ثم ينتقل مشهد الصاحبين المتناقضين عبر أزمان وأجيال لا يعلم عددها إلا الله

الموقف الدنيوي برمته قد حسم وانقضى الأمر هاهنا في هذه الدار

لكنه لم ينته بعد في الدار الأخرى

سينتقل المشهد إلى دار القرار

إلى الحياة الحقيقية

إلى الآخرة..

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴾

هاهو المؤمن يسأل في ذلك المقام العظيم عن صاحبه القديم

صاحب الجنتين الذي طالما حاول تشكيكه وزعزعة إيمانه

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴾

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

هكذا كان يحاول بث الشبهات والشكوك في صدري

ترى أين هو الآن؟

كيف صار حاله؟

أين ذهب ماله الوفير ونفره العديد؟

هل نفعه هاهنا؟

ها هو قد رُد إلى ربه فهل وجد ما كان يزعم أنه ينتظره إن كان ثمة ساعة؟

هل وجد خيرا منها منقلبا؟!

﴿ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾

سأل المؤمن هذا السؤال باحثا عمن يعرف صاحبه القديم أو يطلعه على مصيره

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

من هنا نعرف أن صاحب الجنة لم يوفق لتوبة تقيه العذاب الأخروي

إذن فقد كانت كلماته: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ = بمثابة صرخات متأخرة بعد فوات الأوان ووقوع العذاب

تماما ككلمة فرعون بين غمرات الموج العاتي ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

وكأني أسمع نفس الرد الإلهي

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

لم تعد التوبة مباحة وقد قضي الأمر ونزل العذاب

هاهو في مستقر قد ساء

ها هو في سواء الجحيم

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾

أقسم الصاحب المؤمن مبينا تلك الحقيقة التي يتجاهلها الكثير من الخلق

لا أحد كبير على الفتنة

رغم إيمانه وحرصه وإيجابيته المشهودة إلا أنه لم يغتر أو يأمن مكر الله أو يظن نفسه كانت في معزل دائم من الفتن

ها هو يعلنها

كاد صاحبه الكافر أن يهلكه ويرديه لهذا المصير البشع رغم قوة إيمانه وإيجابية عقيدته

مرة ثانية لا أحد كبير على الفتن ولا أحد بعيد كل البعد عن الوقوع في حبائلها

لكن الصاحب الصالح لم يفعل

لم يقع

ليس بقوته أو بذكائه أو بإمكاناته

بل بنعمة من الله

﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾

كعادة الصالحين في كل زمان لا تنصرف عيونهم وأفكارهم إلى أنفسهم ولا تتعلق قلوبهم بقوتهم وتمكنهم

لا تتعلق إلا بالله ولا ترى إلا نعمه

حق له إذن أن يفرح إذن

حق له أن يصيح بسعادة وسرور

﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾

١٣. داوود

لقد كان نبي الله داوود ﵇ نموذجا فريدا بحق..

كان مثالا لتوازن من نوع خاص يجمع بين شتى مجالات الدين والدنيا في نسق بديع في انتظامه مبهر في إحكامه وعدم طغيان بعضه على بعض

إن شخصية هذا النبي تعد ردا عمليا على كل من يزعم استحالة التميز أو التفوق في أكثر من جانب من جوانب الحياة

على أولئك الذين يركنون لمحدودية القدرة البشرية ويصرون على تضييق المضامير التي يمكنها السبق فيها

أولئك الذين يعلقون فشلهم وعدم إحكام موازينهم على قلة الوقت أو ضياع بركته ويزعمون انشغالهم عن أداء تكاليفهم أو القيام بواجباتهم

أمثال هؤلاء عليهم أن يتوقفوا طويلا وينظورا مليا لجوانب تلك الشخصية الفريدة..

شخصية داوود

لقد استطاع نبي الله داوود ﵇ أن يسبق في شتى ميادين الدين والدنيا

بل إن شئت فقل أنه في الحقيقة لم يخض مضمارا تقريبا إلا وكان السبق له حليفا

لنبدأ مثلا بمضمار التعبد..
لقد كان نبي الله داوود عابدا لا يشق له غبار في ذلك المضمار
كانت عباداته ليست كأي عبادات وكان ناسكا متبتلا ليس كأي ناسك متبتل
لقد كان له من العبودية ما يتفرد به عن غيره ويشكل في جنباته نسيجا وحده

هذا السكون اللطيف الذي يغلف الكون في حياء نقي، لا يعكر صفو نسيمه شيء، ولا يخترق صمته إلا صوتا بديعا يتنامى من بعيد، بزجل رائق، يتعالى تدريجيا كلما اقتربت من مصدره..
يتعالى وتتردد أصداؤه في تلك المنطقة الجبلية التي تحدها عن اليمين والشمال سلاسل جبلية عالية، تمتد على مرمى البصر..
لحظة!!
إن هذا الترداد ليس مجرد صدىً عادي لذاك الصوت البديع..
ليس هذا دأب الصدى المتكرر والمتقطع المتخافت تدريجيا كما نعرفه..
إنه صوت أعمق بكثير
صوت يثير مكامن الشعور، ويستجيش حسنه، وتستدر معانيه أنهار العبرات من المآقي، مهما بلغت قسوتها..

تري: ما أنت أيها الصوت البديع؟!

من أين تأتى أنغامك التي تشبه معازف لا عزف فيها؟!

هذه الحالة الكونية التي تكاد ترى الجبال المحيطة بالمدينة تتمايل لرقتها وعذوبتها..

من أين أتت؟؟

على منبعها دلوني!

وعن مصدرها حدثوني..

هنالك تجد المنبع الناغم منشدا قصيدة تصدح بسر الوجود..

إنه ذكر داوود

تسبيحه

تأويبه

تلك اللحظات التي يقتنصها ليخلو فيها بربه، ويتعالى صوته العذب بتلك التسابيح الخلابة، التي لم تتحمل الصخور الراسيات أن تسكت عنها، فسارعت لترديدها معه، منافسة بذلك الطيور، التي ما انفكت عن التأويب والتغنى معه بذكر الإله الحبيب..

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

إنه التأويب

نوع خاص من الذكر تمتزج فيها كينونة داوود بالمخلوقات من حوله ليتناغموا جميعا في منظومة كونية تتعالى مزاميرها منتشرة في أرجاء السماوات والأرض مرددة شعارا واحدا

شعار التسبيح

الكل يردد ويأوب

الجبال

الطير

الحجر والشجر

الكل يسبح ويذكر

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء ٧٩]

كان هذا شيئا من ذكره وتأويبه وتسبيحه الذي جعله وبجدارة مستحقا للتشريف الرباني الذي أسبغه الله عليه

﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

هكذا قال عنه ربه مذكرا خليله محمد بسيرة هذا العابد

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

ولكن ليس التأويب والتسبيح فقط هو ما أعطى لداوود السبق بمضمار التعبد

لقد كانت لداوود علاقته الوثيقة أيضا بالاستغفار

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾

لمجرد بوادر ظن بورود الفتنة تصدر الاستغفار المشهد

لكن لماذا خرّ النبي داوود راكعا ساجدا؟!

هل هو انبعاث لشوق في قلب لم يحتمل فراق الذكر فهوى ساجدا يسبح؟!

أم هي سجدة ندم وتوبة يستغفر لأجل ظن كان به في أحد الرجلين، أدى لفزعه منهما، كما ذهب بعض العلماء

أم أنه ندم على حكم قد أصدره بسماع طرف دون طرف حين قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾؟!

إن القلب الذى تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث للحظات تحت وطأة فتنة أو أن يطول عليه الأمد داخل دائرة الاحتمالات والاتهامات

بمجرد أن تبدو مثل تلك الأشياء في أفق حياته حتى يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلى رحاب ربه لأنه يعلم جيدا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو

لا يعنيني كثيرا في هذه السطور تحديد سبب الاستغفار والسجود وما طبيعة الفتنة التي ظن داوود أنه فيها قد وقع، وفى ذلك ليختلف المختلفون، وليتنازع المتنازعون وبيان ذلك سيأتي في السطور القادمة مفصلا

لكن ما يعنيني أنه قد رجع..

قد استغفر وركع..

هكذا كان داوود وكذلك قد بلغ المنزلة

منزلة الأوابين

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

ولقد كان داوود ذا أيد..

هذا هو الوصف الرباني الذي اختاره الله لعبده داوود مبينا ذلك الجانب من جوانب شخصيته الذي نتحدث عنه

جانب البذل والتعبد

الأيد..

إنه اللفظ نفسه الذي اختاره الله سبحانه ليصف به فعلا عظيما من أفعاله تجلى فيه شيء من باهر قدرته

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأيد القوة

وفي شأن أيدي داوود قال مجاهد: الأيد، القوة في الطاعة.

وقال قتادة: أعطي داوود قوة في العبادة وفقهـاً في الإسلام

لقد كانت لداوود قوة ملحوظة وقدرة مشهودة أنعم الله عليه بها واستعملها بشكل أساسي فيما يحبه من أنعم عليه بها

في أكثر ما يحبه

العبادة

إن تلك الأيدي والقدرات التي أوتيها داوود أهلته لمزيد من السبق في مضمار التعبد

أهلته ليكون صاحب أفضل قيام وأفضل صيام في تاريخ البشرية، بشهادة نبينا محمد ﷺ..

«أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللهِ صَلاَةُ داوود عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ داوود، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»

هكذا بين رسولنا ﷺ فيما رواه عنه البخاري ومسلم من حديث عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضى الله عنهما

في الصيام كان له السبق

لقد كان يصوم نصف الدهر

نصف عمره قضاه ممسكا عن الطعام والشراب والشهوة تقربا لمولاه

وعن الصلاة والقيام فحدث ولا حرج

لقد كان ليله حيا بذكر الله وضيئا بالركوع والسجود

ومحرابه يشهد

وعند المحراب لنا أيضا وقفات

فلقد كان لداوود محرابه كعادة العُبَّاد خصوصا عُبَّاد بني إسرائيل وأنبيائهم

كان لزكريا محرابه الذي نادته الملائكة بينما هو قائم فيه يصلي

المحراب الذي خرج منه على قومه ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

وكان لمريم محرابها الذي طالما دخل عليها زكريا فيه معاينا لكراماتها شاهدا على رزق الله لها

وكان لجريج العابد محرابه وصومعته

ولسليمان محاريبه التي طالما كلف الجن أن يصنعوها ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾

المحاريب إذن كانت دوما حاضرة بقوة كلما ورد ذكر أنبياء وعُبَّاد بني إسرائيل

لكن محراب داوود كان مختلفا

لقد كان محرابا ذا أسوار

﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾

ولكن هل للمحاريب أسوار؟!

إنها أماكن عبادة وصلاة، فما الداعي لتلك الأسوار؟

هل لأنه كان يريد أن يحرس خلوته ويصون ورده؟

أم هو حرص على لحظات أنسه؟

أو لعله تشبث بحق قلبه..

أم أنه أدعى لاستجماع مكامن الخشوع، ومنابع الذكر والفكر والخضوع؟

إنها ليست إذاً مجرد أسوار..

إنها لَرعاية

وإنها لعناية

وإنها لحجر محجور، وحجاب مستور، بينه وبين منغصات الشعور، وبواعث الفتور..

لعمرى كم يحتاج كل عابد للحظات مسوَّرة..

لسويعات خلوة مع الخالق لا يقطع صفوها مخلوق

لأسوار من الحرص، وسياج من العزم، وساتر من الإخلاص والصدق، تحوط محراب عبوديته..

ليس شرطا أن يكون محرابا كمحراب داوود، أو محاريب ولده سليمان، أو محراب مريم أو كفيلها زكريا عليهم السلام..

وربما لا تكون صومعة كصومعة جريج، أو غيره من العباد والنساك..

لكنها لحظة خلوة

همسة مناجاة

جوهرة عبودية تحتاج إلى مثل هذا السور..

أي نبي الله... كم يغبطك على أسوار محرابك كل طالب أنس بمولاه طامح للحظات المناجاة وراغب في جواره الكريم!

ولعل من يتأمل عبادة نبي الله داوود ومدى السبق والتميز الذي وصل إليه في شتى مضامير التنسك والتبتل = قد يكون صورة ذهنية متوقعة ومنطقية

صورة نمطية لذلك العابد الزاهد الذي لا يعرف شيئا في دنياه سوى التعبد ولا يجيد تعاملا أو يقدر على تغيير واقع أو يضع بصمة على محيطه القريب والبعيد

لكن الحقيقة أن داوود ﵇ كان أبعد ما يكون عن تلك الصورة النمطية

لقد كان مؤثرا في واقعه مغيرا له ومدركا تمام الإدراك لأبعاده

إن الظهور القرآني الأول لداوود لم يكن في قصة تحمل اسمه لكنها خُتمت به

ذلك لأن الأثر الأهم والأخطر في سياق تلك القصة كان من فعل يده

القصة قصة طالوت وجالوت والتي لم ترد في أغلبها أية إشارة ولو يسيرة تفيد أن داوود كان هنالك

بين جنود طالوت

لقد جاء بنو إسرائيل لنبيهم يطلبون ملكا يحاربون العماليق تحت لوائه ويدخلوا الأرض المقدسة معه بعد سنوات من التيه ضربت عليهم جزاء وفاقا لعصيانهم موسى وعدم اتباعه إليها قبل عقود

وكالعادة لم يصدق بنو إسرائيل في وعدهم وبدأ تفلتهم بجرد إعلان نبيهم أن الاختيار وقع على طالوت ليقودهم

وتتوالى الاختبارات والتمحيصات وليتساقط بنو إسرائيل في كل اختبار ولتتناقص أعدادهم حتى لا يبقى مع طالوت بين يدي المعركة الفاصلة إلا قليلا من قليل

كل تلك الأحداث تذكر دون أي إشارة لوجود داوود

ثم كانت المعركة ونصر الله الفئة القليلة التي ثبتت مع طالوت

هنا نعلم أنه بين ذلك الجمع الصغير وتلك الفئة القليلة كان داوود

نعلم تلك الحقيقة بأبلغ وسيلة يعلن بها عن وجوده

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾

هكذا ودون مقدمات تصدر داوود المشهد

لم يزل بعد فتى يافعا لم ينه العقد الثاني من عمره وها هو يؤثر ويغير مسار الأحداث

لقد قتل قائد الجبارين

قتل جالوت

نحن إذن لم نكن نتحدث عن متعبد مسكين ضعيف مهيض الجناح لا يملك إلا انعزالا في محراب أو انزواء في صومعة

نحن بصدد فارس لا تقل فروسية نهاره عن عبودية ليله

ولكن هل يعقل أن تجتمع فروسية النهار، وبطولة الميدان، وقسوة الصوارم، وحدة الرماح، مع عبودية الليل، ورقة التسبيح، وعذوبة الصوت، ووجل الخشية، ودمع الإنابة ونشيج الإخبات؟!

مع داوود الإجابة = نعم.. يُعقل

لم تصرفه عبادته أبدا عن قضايا دينه وأمته ولم تحل أوراد تسبيحه وذكره بينه وبين واجبه وجهاده وبذله

لقد أدى الأمرين بمهارة كاملة وكما بلغ تمام السبق في مضمار التعبد = فهاهو يبلغه في ساحات الوغى إذ يجندل رأس الكفر وزعيم الجبارين بمهارة قتالية تنافس مهارته التسبيحية

ومن جديد يضرب داوود مثالا مبهرا للتوازن وهذه المرة هو توازن بين التعبد وبين التأثير والإيجابية والعمل

ولعلك ستنبهر أكثر بشخصية داوود ﵇ إذا ما تأملت يده

تلك اليد الخشنة التي تبدو عليها آثار الكد، وتظهر عليها خدوش العناء!

لكن تلك الآثار والخشونة على يده ليست فقط ترجع لحمله السيف الذي جندل به جالوت زعيم الجبارين

إنها آثار صنعته..

حرفته التي يأكل من عائدها..

لكن داوود ملك

حاكم لقومه ممكن منتصر

لقد قال عنه الله ذلك بلفظ قطعي الدلالة ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

ما الذي يدفعه إذن لمثل ذاك المسلك العجيب؟!

ما الذي يضطره للتعفف عن الأكل من ملكه العتيد؟!!

و أي مهنة تلك التي اختارها ليده يأكل من ريعها؟!

صانع دروع

حداد!!

تلكم المهنة التي يتعالى البعض عن مثيلاتها..

﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ ﴾

كان هذا أمر الله لداوود عليه السلام بعد أن علمه الصنعة

نعم.. بذلك اللفظ الذي يمتهنه الخلق اليوم = تكلم ربنا يصف ما علمه لداوود

صنعة

﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ ﴾

إنها صنعة الدروع التي يرتديها الجنود أثناء القتال وتحصنهم يوم البأس

يصنع لجيشه الدروع، ثم يلبسها معهم حين يحمر البأس!

دروع مختلفة عما جرت به العادة من تلك الصفائح الضخمة الثقيلة التي اعتادها الناس

إنها دروع سابغة سردها مقدر وحلقها متداخلة من حديد ألانه الله لداوود عليه السلام

لكن ما شأنه هو وتلك الصنعة

الحدادة

إنه نبي مكلم

وملك ذو سلطان وصولجان

وهو إلى جوار ذلك قاضٍ يحكم بين الناس ويفصل بينهم فيما شجر بينهم حين يسعون إليه طالبين عدله ومبتغين قسطاسه المستقيم

ومن قبلها هو مجاهد بطل استطاع قتل كبير الجبارين جالوت كما سبق وأشرنا

وهو مع كل ذلك كما بيَّنت بتفصيل = عابد لا يشق له غبار في مضمار العبادة

ما له هو إذن والصناعة والحدادة؟

وكيف يجمع بين تكاليف الحكم، وأعباء القضاء، وهموم الدعوة، وبين تلك اللحظات التي يقتنصها، يخلو فيها بربه، ويتعالى صوته العذب بتلك التسابيح الخلابة، التي لم تتحمل الصخور الراسيات أن تسكت عنها، فسارعت لترديدها معه، منافسة بذلك الطيور، التي ما انفكت عن التأويب والتغنى معه بذكر الإله الحبيب..

وهو مع كل ذلك صانع حداد يأكل من ريع حرفته

إن هذا لشيء عجاب!

عجبت لحاكم متطوع، وملك متوج، لا يمتلك قوت يومه، إلا من عمل يديه

ها هو الجواب يأتيك من أخيه محمد ﷺ

«**ما أَكَلَ أَحَدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أن يأكلَ من عملِ يدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داوود** عَلَيْهِ السَّلَامُ **كان يأكلُ من عملِ يدِه**» رواه البخاري

إنها الخيرية التي اعتاد داوود أن ينشدها ولا يعدل عنها لغيرها

لم يكن داوود عليه السلام يقبل إلا الأفضل في كل شيء
حتى في رزقه ليس أفضل من كسب اليد

فليكن
ليأكل إذن من عمل يده

ألهذا الحد يمكن أن يصل التعفف بعبد؟!

لله درك يا داوود: لا تسأل الناس أجرا على دعوتك وجهادك، ولا تستحب إلا أن تأكل بعزة نفس، وكد ساعدٍ، وعرق جبين..

كيف وجد وقتًا لكل ذلك؟!!
إنه كما قلت يضرب في كل جانب أروع نماذج القصد، والتوازن بين النجاح الباهر في تكاليف الدنيا، وبين قربات الدين..

ويكأنه مثال يُضرب لكل متنطع، يلتمس لنفسه معاذير التخاذل، ويسوِّل لنفسه القعود عن العمل والبذل والفداء والعبادة، بحجة ضيق الوقت وقلة بركته..

كأني به لو عاش بين ظهرانينا لصاح بالمعذرين، أو بأضدادهم من العاملين الذين هم عن العبادة منصرفين قائلًا: اتقوا الله، ولا تعلقوا فشلكم وتنطعكم على شماعة الوقت، فالوقت يكفي لكل شيء، إن صدق العزم، وصلحت النية وحلت البركة

وتلك الأخيرة = محض فضل من الله يؤتيه من يعلم في قلوبهم خيرا

وها هو ذا نموذج داوود يضرب المثل للجميع..

ألا فلينظر المتنطعون إلى اجتهاده وعمله وحكمه وحكمته، رغم زهده وعبوديته

وليتأمل الغافلون المتشاغلون بأعمالهم وهمومهم، في عبادته وقيامه وصيامه وتأويبه رغم مشاغل وهموم تنوء بحملها تلك الجبال التي تردد تسبيحه كأنها المزامير تعزف أجمل الأنغام..

ولتقم عليهم الحجة، وتثبت البينة..

فلو كان لأحد أن ينشغل عن عبادة، بسبب هموم وشغل لكان داوود

لكن ها هو يسبح، ويذكر، كأحسن وأندى ما يكون الذكر

ويصوم ويقوم، كأحسن ما يكون الصيام والقيام

ويقضي ويحكم ويعمل يبذل ويؤدي واجباته ويقوم بمسؤولياته

ثم هو يعبد علي أكمل ما يكون الجهد البشري في العبادة من التمام..

ويصنع ويعمل وينتج

ويأكل..

من عمل يده

ولا شك أن نموذج نبي الله داوود ونمط حياته لن يعجب أرباب الدروشة أو المتدروشين

لست أعني بالدروشة هنا ذلك الاستعمال الدارج الذي يتندر به البعض على من لم يؤتوا قدرا من الفطنة فكانوا على درجة من السذاجة غير المتكلفة لا يملكون غيرها ولا يقدرون على سواها

ولا أعني بالدروشة أيضا تلك الدرجة من درجات الترقي في التطور الروحي لدى المتصوفة ممن اتخذوا باب التقشف والتجوال في ربوع الأرض سبيلا لبلوغ مراتب الزهد والتواضع والابتعاد عن التملك المادي

لكنني أقصد به نمط المتدين المتقوقع على نفسه المنعزل عن واقعه فلا يعني بأمور الناس ولا يعرف شيئا عن أزماتهم ولا يهتم بمشاكلهم وكأنه لا يعيش معهم على ظهر الكوكب نفسه

إنه نمط يستريح للسذاجة ويتكلفها ويأوي إلى الخواء الفكري ويختاره ويهرب من المعرفة والفهم

لا فارق يذكر عنده بين حق وباطل ولا صواب أو خطأ فهو لا يدري -قاصدا- ما يحدث من حوله وهو على كثرة تلاوته للقرآن يكاد يعطل آيات العمل والأخذ بالأسباب ويبتعد تماما عن مدلول آيات مكر الماكرين وكيد الخائنين وإفساد المضلين أو على أحسن تقدير يعرف مدلولات ومعاني تلك الآيات المحكمات لكنه يظن أن ليس له شأن بها وأنه غير مكلف أو مخاطب بتكليفاتها فما عليه إلا المكث في محرابه والتبتل بعباداته وأوراده والخير سيأتيه بغير بذل ولا

تعب والرزق سينهمر عليه من السماء مع المطر ومن دون سعي أو عمل ومشاكل أمته ستحل بدون هم ولا اجتهاد ومكابدة

ينسى المتدروش أو يتناسى أن في نفس القرآن الذي يقرأه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ و﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ ﴾ ويغفل أو يتغافل عن تكرار قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ وعن أسباب تنزل الفتح وظهور الحق والنماذج الجلية في كتاب الله لأقوام لم يكتفوا بالتعبد ولم يركنوا إلى المحاريب مقصرين في واجب الأخذ بالأسباب

يتغافل صاحبنا الدرويش ومن يدروشونه ويحبون له الدروشة عن كل ذلك ويتناسى أن المؤمن كيس فطن وأنه ليس بالخب وليس الخب يخدعه

والدرويش يفعل كل ذلك بحجة التفرغ للعبادة والتنسك وكأن الذي تعبده بالصلوات والأذكار والدعاء لم يكلفه بالعمل والمجاهدة والمصابرة والبذل أو أنه خلقه بمعزل عن مخالطة باقي المخلوقين ولم يختبره ويبتليه بمعاملتهم والتأثر والتأثير فيهم

إن الركون للعزلة الاختيارية والتقوقع على الذات بحجة التعبد والتنسك هو رهبانية لا يعرفها الإسلام وفي أغلب الأحيان ما هي في الحقيقة إلا دروشة هروبية يلجأ إليها المتكاسل العالة الذي ﴿ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ ﴾

وأين ذلك من منهج أتقى الخلق لله وأشدهم له خشية وأكثرهم عبادة؟

أين تلك الشبهات الانعزالية من نهج داوود ﵇ وقد استعرضنا بوضوح ذلك النجاح المبهر الذي حققه في شتى نواحي الحياة جنبا إلى جنب مع نجاحه التعبدي وسبقه في أبواب القربات المختلفة

وعلى نفس النهج سار نبينا ﷺ

إنه لم يدخر وسعا في العمل والدعوة والجهاد ورغم ذلك كان أعبد الناس وأخشعهم

لم يمنعه القيام والصيام والدعاء والتبتل من الاعتناء بأمر أمته ومعالجة مشاكلها والأخذ بالأسباب المادية المتوفرة لذلك

ثم كان التوكل

تجده غشية غزوة بدر مستيقظا داعيا باكيا مستغيثا مبتهلا فإذا أشرق الصبح وكان اللقاء واشتد البأس وجدته في الصفوف الأولى يحتمي به أصحابه بين غبار ساحات الوغى فإذا جن الليل من جديد آوى إلى محرابه يذرف دمع الخشية ويحويه همس مناجاة السحر واستغفار الغفار

هكذا كان وهكذا كان الأنبياء من قبله ومثالهم الأوضح الذي نصحبه في هذه السطور

داوود ﵇

وكذا كل من سار على نهجه من المتوازنين الذين يعطون لكل شيء قدره فلا العبادة حالت بينهم وبين هذا نجاحهم الواضح والذي يدحض شبهات الدراويش ويدمغ حججهم

ولا النجاح والسبق وقف حاجزا بينهم وبين التقرب لمولاهم بالعبادات والطاعات والقربات

ورغم ما ذكرناه سابقا من عبودية داوود عليه السلام ومع ما أسهبنا في تفصيله من ملامح تواضعه وإخباته وانكساره بين يدي ربه ورغم كونه أوابا منيبا ذكَّارا شكَّارا متبتلا تأوب الطير والجبال لتسبيحه الذي شُبِّه لفرط جماله بالمزامير

رغم أن كل ما سبق ينبيء بمدى لين جانبه ورقة روحه وحسن لسانه = فإن ذلك اللسان قد لعن قوما!

هذه النفس الرحيمة اجتمعت على لعن ذات القوم مع نفس أخرى لا تقل عنها رحمة؛ نفس المسيح عيسى بن مريم

ذلكم المبارك أينما كان والذي يبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله الذي لم يجعله جبارا شقيا

هاتان النفسان الطيبتان الرحيمتان وهذان اللسانان الصادقان = صدر عنها اللعن في موضع معين

أي قوم هؤلاء الذين تمكنوا من دفع هذين العابدين الرحيمين لأن يرفعا أيديهما ويدعوان عليهم بالطرد من رحمة الله؟!

وأي ذنب منكر ذلك الذي استحق أن يخرج هذا الاستثناء من

هذيْن المزكيْن المنيبين المخبتيْن وأن يحتويه وحي من ربهما تنزل عليهما في الزبور والإنجيل؟!

إنهم بنو إسرائيل مرة أخرى

ومن جديد تبرز خصلة من خصال السوء ودركات العصيان والاعتداء التي حركت في هذين القلبين الطاهرين مشاعر الغيرة والغضب لله

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة ٧٨ - ٧٩]

رُوي بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله عَنْ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْب نَهَاهُ عَنْهُ تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنْ الْغَد لَمْ يَمْنَعهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُون أَكِيلهُ وَخَلِيطه وَشَرِيبه فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَان نَبِيّهمْ داوود وَعِيسَى اِبْن مَرْيَم؛** ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾». ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَر، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الْمُسِيء، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقّ أَطْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ الله قُلُوب بَعْضكُمْ عَلَى بَعْض، وَلَيَلْعَنَنَّكُم كَمَا لَعَنَهُمْ**»

يمكنك أن تقول باختصار أنه قد حدث تطبيع مع المعصية

هذا التطبيع كان دليلا على شيء استحقوا لأجله اللعن

لقد كان دليلا على غياب الغيرة ومن ثم غياب المحبة

محبة الله

إن المحب يغار وغيرته تلك من أوضح علامات حبه..

فما بالك بمن أحب ربه؟!

وإن داوود وعيسى بن مريم كان محبين لربهما

لذلك لم يستطيعا السكوت والتعايش مع أقوام هان مقام الله في قلوبهم لهذه الدرجة

إن الغضب لله والغيرة على حرماته من أهم نتائج الإيمان وعلاماته

فكما أن محبة الله مقترنة بمعرفته ملازمة لها فإن الغيرة لا تنفك عن تلك المحبة

وبالتالي فالمؤمن المحب لله يغضب إذا ما انتهكت حرمات مولاه، ويغار إذا تطاول أحد على مقامه المقدس..

بل إن الجمادات التي يسميها الناس بغير العاقلة تغضب لله، وتغار على مقامه أن يُساء إليه!

لقد كادت السموات أن تتفطر والأرض أن تتشقق، والجبال أن تتهدم لقول فيه تطاول على مقام من لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا..

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

تأمل رد فعل تلك المخلوقات حين سمعت ذلك القول، ثم قارن بينه وبين رد فعل أقوام لا تتمعر وجوههم ولا تختلج قلوبهم عند سماع ورؤية ما يضاهي ذلك القول أو يزيد عنه ثم هم لا يكتفون ببلادة مشاعر الغيرة بل ينهشون من لم تزل في قلوبهم غيرة تجعلهم لا يقبلون التطبيع مع الانتهاك والاجتراء على حرمات الله ويرفضون ذلك ولو بقلوبهم

وهم يفعلون ذلك زاعمين أنهم بهذا يرحمون الخلق ويتعايشون مع المخالف

ولو أنهم صدقوا في رحمتهم تلك لدعوا إلى الصواب وأمروا بالحق ولنهوا عن الباطل وكانت رحمتهم في أعظم مواضعها وهي رحمة الخلق بدفعهم عن سبيل النار ودلالتهم على الجنة

الحق أن قلوبهم مدعية الرحمة هي قلوب أقسى من الحجارة التي قُدت منها جبال تكاد تخر غيرة على مقام الله وحرماته

لكن قسوتهم تلك لا تظهر إلا في حق ربهم أما في حق ما عداه ومن عاداه = إذا هم يستبشرون ويرِقون، وعن المنكر أبدا لا يتناهون

ياليت داوود وعيسى ابن مريم -عليهما السلام - يشهدان تطور الأمر وتجاوزه مرحلة التطبيع مع الباطل وعدم النهي عنه ليصل إلى دركِ تشويه من ينهى، وامتهان من تبقي في قلبه شيئا من تلك المشاعر

مشاعر تحدث عنها الحبيب ﷺ حين قال: «**إنَّ اللهَ تعالى يَغارُ، وإنَّ المؤمِنَ يَغارُ، وغَيرَةُ اللهِ أن يأتِيَ المؤمِنُ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِ**»

ترى ماذا كان داوود سيقول وكيف سيكون رد فعل المسيح عيسى عليهما السلام لو شهدوا من تخطوا انعدام الغيرة ووصلوا لمرحلة جديدة ومفزعة

مرحلة عداوة تلك الغيرة واحتقارها؟!

أما داوود عليه السلام كقاضٍ يفصل بين الناس ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه = فهو يضرب مثالا آخر للكمال في هذا الجانب من جوانب شخصيته شديدة الثراء

إنه رغم عصمة النبوة التي يتمتع بها جنبا إلى جنب مع سعة العلم المشهود لرسوخه فيه بشهادة من رب العزة سبحانه وتعالى

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ ﴾

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾

إلا إنه ومع ذلك العلم يؤصل عمليا لحقيقة كون القضاة أولاً وأخيرًا = بشرا

هم بشر يحكمُون بما يظهر لهم، يصيبهم الزلل، ويعتريهم أحيانا النقص والخلل وتطرأ عليهم المؤثرات كالخوف والفزع.

ولقد ثبت في الحديث الصحيح أن من بين كل ثلاثة قضاة = قاض فى الجنة، وقاضيان فى السعير

وهو نفسه صلوات ربي عليه حين وقف موقف القضاء بين الناس كان ينبه إلى أنه يقضى ببشريته

في صحيح البخاري «**إنكُم تَخْتَصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعْضَكُم ألْحَنُ بِحُجَّتِهِ من بعضٍ، فمن قضَيتُ له بحَقِّ أخيهِ شيئًا بقوله، فإنما أقْطَعُ له قِطْعَةً من النارِ، فلا يأخُذها**»

هكذا بيَّن الحبيب بوضوح لا مزيد عليه

بعضكم ألحن بحجته

بعضكم أكثر قدرة على تزيين موقفه

بعضكم لديه من سحر البيان ما يستطيع به ليّ الحقائق والتأثير على القاضي

حتى لو حكم القاضي بالشرع المنزل وليس بقانون وضعه بشر أمثالهم = فالفتنة لم تزل واردة والخطأ محتمل

ها هو داوود يخر راكعا تائبا بعد قضاء قضاه خشية أن يكون قد فتن فيه

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ﴾

الأشهر من كلام المفسرين والأبعد عن الإسرائيليات والأقوال الضعيفة أن استغفار داوود وسجدته حدث لما تبين له كونه قد جانب الأصوب في حكمه بين المتخاصمين

فسيدنا داوود ابتداءً قد فزع من الخصمين وهذا هو الإشكال الأول إذ ليس من الصواب أن يفزع القاضي أو يخاف من المتقاضين فذلك يمثل درجة من الخطورة في الحكم الصادر بعد ذلك واحتمالية تأثره بهذا الفزع أو الخوف

الإشكال الثاني يتمثل في استماع داوود إلى أحد الخصمين الذي شكا بغي أخيه واستيلاءه على نعجته الوحيدة ليضمها إلى نعاجه التسع وتسعين

سياق الآيات لم يذكر أن الآخر دافع عن نفسه أو تدخل في الحوار مما يفسر بعض الشيء مسارعة داوود للنطق بالحكم كما سيأتي

لكن هذا أيضا خلاف الأولى ذلك لأن الأصل أن يتبين القاضي وأن يلتمس الأدلة على صدق الدعوى وأن يسأل الطرفين ويناقشهما وهذا كله لم يرد في سياق الآيات أن داوود قد فعله بل ما ورد أن حكم داوود قد صدر مباشرة بمجرد أن انتهى الشاكي من روايته فحكم داوود بأن أخاه قد ظلمه

الإشكال الثالث يتمثل في حيثية ذكرها داوود في حكمه تأثرا برواية الشاكي رغم أن تلك الحيثية لا يفترض أن يكون لها أي تأثير على الحكم

تلك الحيثية هي قوله: ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾

ما قيمة ذكر نعاج الآخر هنا؟

هب أنه لا يمتلك أي نعجة فضلا عن امتلاكه تسع وتسعين نعجة فهل يباح له حينئذ أن يضم نعجة أخيه إلى حيازته بغير حق؟

الجواب = لا

سواء كان المشكو منه غنيا أو فقيرا فإن ذلك لا علاقة له بالحدث الذي يقضى فيه

لكن يبدو أن لحن الشاكي بحجته وتلميحه لثراء أخيه شكل نوعا من التأثير على سيدنا داوود مما أدى إلى أن يذكر ذلك في حكمه دون أن تكون له أية حيثية

هذه الأمور كلها شكلت على الراجح أركان الفتنة أو الابتلاء الذي أراد الله من خلاله أن يعد هذا الخليفة الذي سيحكم بين الناس ولا يشطط

ولقد أدرك داوود ذلك فكان رد فعله سريعا

لقد استغفر وتاب

ثم خرَّ..

وهذا اللفظ تحديدا له مدلولاته العظيمة

إنه لم يتكلف السجود أو يجبر نفسه عليه

لقد خرَّ

هوى

سجد

تواضع وركع وأناب خشية الافتتان.
لم يقل حكمى عنوان الحقيقة ولا معقب له
لكنه اختار التواضع وخر واستغفر..

هكذا تعامل كقاض لا ينكر إمكانية فتنته ولا يزعم أن حكمه في قضية مبنية على السماع هو حكم قطعي الصحة لا يجوز التعليق عليه

فإن كان هذا في حق نبي مكلم فكيف يكون الحال فيمن هو أدنى؟!

ورغم علم داوود المشهود له به بشهادة من ربه كما أسلفنا

ورغم نبوته المعصومة والزبور الذي أُنزل عليه والحكمة التي أوتيها

ورغم اجتهاده وسعيه للفهم وحرصه على طرق أبواب الحل الأمثل

رغم كل ما سبق = فإن الله بيَّن أن الفهم في مسألة مشكلة حكم فيها داوود ثم حكم فيها ولده سليمان فكان من نصيب سليمان عليه وعلى أبيه السلام

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴾[الأنبياء ٧٨]

القصة باختصار وبجمع الروايات تتلخص في أن غنما تفلتت من صاحبها بليل فرعت في حقل - وقيل في كرم عنب - يملكها رجل آخر وإذا بالغنم لا تدع غصنا ولا ثمر إلا وقد أفسدته

فتحاكم الرجلان لداوود عليه السلام فاجتهد وقضى بالغنم لصاحب الكرم كتعويض له على ثمره الذي أفسدته تلك الغنم

لكن سليمان عليه السلام كان له رأي آخر

روى ابن زيد وغيره من أهل التفسير أن السائلين مروا بِسُلَيْمَان فَقَالَ: مَا قَضَى بَيْنَكُمْ نَبِيّ الله؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: أَلَّا أَقْضِي بَيْنَكُمَا عَسَى أَنْ تَرْضَيَا بِهِ؟

فَقَالَا: نَعَمْ.

فَقَالَ: أَمَّا أَنْتَ يَا صَاحِب الْحَرْث، فَخُذْ غَنَم هَذَا الرَّجُل فَكُنْ فِيهَا كَمَا كَانَ صَاحِبهَا أَصِبْ مِنْ لَبَنهَا وَعَارِضَتهَا وَكَذَا وَكَذَا مَا كَانَ يُصِيب وَاحْرُثْ أَنْتَ يَا صَاحِب الْغَنَم حَرْث هَذَا الرَّجُل، حَتَّى إِذَا كَانَ حَرْثه مِثْله لَيْلَة نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمك فَأَعْطِهِ حَرْثه وَخُذْ غَنَمك!

كان هذا حكم سليمان

وعلى ما يبدو أنه قد رأي من خلال علمه أن هذا الحكم أقرب إلى الصواب من حكم أبيه ومعلمه داوود عليه السلام

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داوود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك اللّه هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى**» ذلك لأن ما ظهر

من إشفاقها على الغلام وحرصها على حياته حتى لو كانت مع غيرها دل بشكل قاطع على كونه ولدها إذ يكاد يستحيل على الأم أن تقبل قتل ولدها وهي قادرة على دفع ذلك

وذلك ما فهمه سليمان وقضى به مخالفا مرة أخرى لاجتهاد أبيه

لم يمنعه توقير الوالد ولا تقدير المعلم أن يعدِّل على رأيه أو أن يبين رأيه هو

ولم يدفعه ذلك للاجتراء على تلميح يقلل من شأن من اختلف معه بل ورأى أن لديه ما هو أصوب من قوله

لكنه ومع كامل التوقير والتقدير تكلم بما يراه حقا وصوابا وحكم به

ولقد شهد الله لحكمه وفهمه في قضية الغنم

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾

وشمل الثناء داوود ولكن لم يشمل حكمه بل فقط حكم سليمان

إذن فلو اجتهد المرء وسلك السبل الشرعية لهذا الاجتهاد = فإنه مأجور ولا يذم شخصه رغم خطئه

الإثنان أوتيا حكمة

والإثنان أقر الله لهما بالعلم

لكن الفهم الصحيح لمسألة أو بعض المسائل لا يشترط أن يكون حليفا لمن توفر له كل ما سبق

الأجر ثابت إن شاء الله لكن اجتماع وجود الأجر مع وجود الحل الأمثل ليس شرطا

الاجتهاد الذي وصلت أنت من خلاله إلى حل أو وصل من تتبعهم إلى كونه حلا = لا يشترط أن يكون هو الحل الوحيد والحق الحصري الذي لا ينبغي لأحد أن يخرج عنه أحد أو يجرؤ على مخالفته مخلوق

من الممكن جدا أن يصل غيرك إلى حلول أفضل وأن يفهم ما لم تفهمه وهذا لا يقلل من شأنك كما لم يقلل من شأن داوود عليه السلام

﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

ولقد كان للحمد والشكر حضورهما الواضح جدا في حياة داوود عليه السلام

وانتقل هذا الحضور الواضح إلى آله خصوصا ولده ووريثه سليمان عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا ﴾

هكذا كانا يتحدثان بنعمة الله وفضله ويستشعرانها في واقعهما

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾

دائما الشعور بالفضل والاعتراف به وهذا أسمى معاني الحمد والشكر التي يبتغى تمكنها من القلب

إن من أعظم خصائص العبد الشكور ومن أوضح الفوارق بينه وبين العبد الكفور = ذلك الإحساس القلبي بنعمة الله واعترافه بها

فالشكر ليس فقط كلمات يتمتم بها اللسان دون ان يدرك لها معنى أو يستشعر لها أثرًا

الشكر حالة وشعور يملأ كيان العبد ويسيطر على وجدانه ويخفق به قلبه وتتسامى به نفسه وتهفو به روحه

والاعتراف بالفضل هو أول درجات تلك الحالة النورانية

ولذلك تجد أخطر ما وقع فيه قارون كنموذج لعبد كفور جاحد هو رفض هذا الاعتراف وإنكار ذلك الفضل الذي تجلى في قوله ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾

وشتان الفارق بينه وبن عبد آخر شكور كسليمان بن داوود عليهما السلام حين عاين النعم فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾

إنه لم يتكلف تلك الكلمات وإنما خرجت من قلب لم يتعود أن يشهد لنفسه فضلًا

قلب لم يشهد إلا فضل الله ونعماءه

قلب يحيا بقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾

قلب تربى في بيت داوود فتعلم قيمة الشكر بل وتضرع إلى مولاه أن يلهمه دوما إياها ويجمع روحه عليها

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

لكن ثمة فارق دقيق بين الشكر والحمد وفي كلٍ خير..

هذا الفارق يظهر أيضا في سياق الحديث القرآني المتصل عن داوود وآله الكرام

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾

العمل..

إن الحمد هو ثناء على الله بحب وامتنان نابع من قلب مستشعر للنعم فهو عبادة قلبية وقولية

أما الشكر فهو امتنان أيضًا ولكنه امتنان بطريقة مختلفة

طريقة عملية

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾

هذا الاقتران بين العمل والشكر في تلك الآية من سورة سبأ يشير بوضوح إلى المعنى الأدق من معاني الشكر

معنى الشكر العملي

معنى أن تترجم مشاعر الامتنان إلى جهد وبذل وعطاء

أن يجتهد العبد أكثر فأكثر لا لشيء إلا ليكون حاله كحال سيد الشاكرين حين تعجبوا من كثرة عبادته وهو المغفور له كل ذنبه

- أفلا أكون عبدا شكورا؟!

هكذا رد على من سأله

وهكذا بيّن سبب بذله وبالغ عمله وجهده

إنه ذلك الشكر العملي الذي ينبثق عن قلب سيطر عليه شعور الامتنان وملأت جنباته الرغبة في الوفاء ومقابلة الإحسان بالإحسان والفضل بالشكر

وكذلك العبد الشكور

يترجم شكره إلى طاعة أو عبادة أو نفقة أو تضحية وبذل أو أي من سائر تلك الأعمال والقربات التي يستحق بها هذا اللقب الشريف لقب العبد الشكور



١٤. شخصية المنافق

الإيمان وما أدى إليه = نور

ذلك الأصل هو من أظهر الأصول ومن أوضح الصور التي يرسخ القرآن لها ويغرس حقيقتها في النفوس

الوحي هو الضياء الذي يكشف للإنسان دربه ويبين له معالم طريقه

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

أنوار كاشفة تضيء للإنسان عتمة الطريق وتبين له سبيل الهدى الرشاد

منبع البصر ومحل الرؤية الصحيحة الواضحة التي تنتشل المؤمن من الأخرى

الظُلمات

من دون ذلك النور الذي يستضيء به الإنسان وتلك البصائر التي يهتدي بها = ستكون الظلمات

سيتخبط المرء لا محالة في عتمة كالحة وظلام دامس

وهذا هو الأصل المكمل والصورة المقابلة

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾

إنها المقابلة الحاسمة بين حي يسير في الضياء ويمضي بنور من الله وآخر ميت خاوي النفس منزوع الروح حبيس بين أمواج ظلمات كالحة

﴿أَوۡ كَظُلُمَـٰتٖ فِى بَحۡرٖ لُّجِّىّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَـٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾

ظلمات الشك والنفور

ظلمات الهوى والاستسلام لقيود الشهوة

ظلمات الفجور والعصيان

ظلمات الشرك والجحود والنكران

لكن المقابلة ليست دوما بهذا التمايز ولا يشترط أن تكون بهذا الشكل الواضح من المفاصلة

ثمة أقوام يتذبذبون بين المنطقتين

أقوام يستضيئون بنور الوحي لوهلة حتى يكاد أن ينير حياتهم ويستبينون به طريقهم ثم لا يلبث إلا أن يخفت من جديد في نفوسهم ويختاروا إكمال الطريق من دونه

يختاروا الظلام ويفضلوا العتمة

إنهم المنافقون

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

هذا المثال القرآني من سورة البقرة في مستهل الحديث عن المنافقين في القرآن يعد من أخطر الأمثال القرآنية على الإطلاق

إنه يبين حالة من حالات الاختلاط التي قد يتعرض إليها الإنسان في سيره إلى الله

يبين أن من المنافقين صنفا لم يخل واقعه من ومضات نور ولحظات رؤية

لم يكن الظلام من البداية = أمرا واقعا لا مناص عنه ولا فكاك منه

ولم يكن العمى هو الخيار الأوحد

لقد مرت بهم يوما لحظة ضياء ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾

ولعل منهم من استوقد ما ولَّد هذا الضياء

قد يكون ذلك بمجيئهم إلى حامل الوحي ابتداء وسماعهم منه

وقد يكون بنطق للشهادتين ولزوم المؤمنين وشهود صلاتهم التي لم يك يتركها إلا معلوم نفاق

وقد يكون ببدايات قبول لذلك المصباح المبهر الذي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار

قد يكون كل ذلك أو شيء منه

المهم أن ثمة ضياء أحاط بهم لوهلة

لكنه لم يستمر

لقد ذهب النور وعادت الظلمات

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

ومعها جاء العمى

وأتى معه الصمم

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

لكن لماذا؟

ما السبب الذي أذهب هذا النور الذي كاد أن يضيء واقعهم جنبا إلى جنب مع واقع من سيسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم؟

أولئك الذين كانوا يوما معهم

كانوا يتسمون بأسمائهم ويتدثرون بذات زيهم وربما كانوا يصلون إلى جوارهم

الإجابة ستأتيهم يوم القيامة حين يتبادر نفس السؤال إلى ألسنتهم حين يلتمسوا النور لدى المؤمنين فيقال: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾

حينئذ ينادونهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾

فتأتي الإجابة الكاشفة الفاضحة

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

هم من اختاروا

هم من قرروا

هم من فتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا

وهم من غرتهم الأماني وأغفلتهم الدنيا

هم من رفضوا النور وأغلقوا كل السبل التي قد يصل إليهم من خلالها

هم من اختاروا العمى والصمم وعطلوا حواسهم بإرادتهم

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

إنه المثل المكمل للأول

المثل المائي..

الخير النازل إليهم من السماء وما فيه من وعد ووعيد وترغيب وترهيب

هاهم يرفضونه

يتجنبونه

يضعون الأصابع في الآذان كي لا تسمع شيئا من ذلك كله

لكنهم مع ذلك لم يزالوا على تلك الحال المذبذبة المترددة

إن نور الوحي مبهر وضياؤه يجذب كل بصر

ولم تكن أبصارهم استثناء

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

حينها مشوا وسلكوا مع من سلك

﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾

لكن ما إن تسنح لهم الفرصة وتبدر لحظة خفوت في نفوسهم = تسللوا وانصرفوا

﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إنها آيات تصور بدقة تلك الحالة المخلطة

حالة المنافق المتردد المتذبذب

حالة من ذاق وعرف لكنه لم يغترف

من اختار الظلمات وعاين حسرتها في الدنيا قبل الآخرة

تلك الحسرة البغيضة والغصة المريرة وذلك الألم القاسي الذي يعرفه جيدا كل من ذاق وعرف ثم لم يغترف..

يعرفه كل من أبصر الطريق وأضاء له فمشى فيه ثم إذا أظلم عليه قام وولّى وأدبر واستكبر

يعرفه كل نكص على عقبيه واختار حورًا بعد كور وإعراضا بعد إقبال وتدنٍ بعد ارتقاء وبدّل نعمة الله وحشةً ونفورا وازدراء فذاق في الدنيا ضنكا وذلا وبُعدًا بعد اقتراب

تلك الحسرة والغصة والألم والضنك = هي نتائج معتادة ومتوقعة ومتكررة ينبغي أن تجعلك تفكر كثيرا قبل أن تختار طريقها طوعا وتسلك سبيلها بإرادتك

حين تتخذ هذا القرار المؤلم والاختيار الرهيب

اختيار الظلام

اختيار النفاق

ولعل أشد ما يبعث خشية وقوع النفاق في النفس هو عدم الشعور به إلا متأخرا إن حدث وشعر المنافق أصلا أنه منافق

والشعور بالمشكلة ابتداء نعمة كبيرة لذا تجد الناس يسمون السرطان بالخبث نظرا لتأخر ظهور مؤشراته والمنبهات لوجوده

إن المنافقين يكذبون ويخادعون حتى تتشرب قلوبهم الكذب في نهاية الأمر وحتى يكادوا أن يصدقوا كذبهم فلا يشعرون بمصيبتهم ولا يدركون حقيقة خديعتهم

تأمل وصف ربك لهم

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

هذه الخصلة أزعم أنها أشد خصالهم إخافة لا منهم فحسب..

ولكن عليهم

وعلينا..

أحسب أن هذه الخصلة هي ما جعل الفاروق عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه -وهو من ائتمنه الرسول ﷺ على أسماء المنافقين- فكان يتحرى أن يتبيَّن منه قائلًا: أوقد سماني لك رسول الله؟

فلما أخبره حذيفة أنه ليس ممن سماهم رسول الله ﷺ = جادت عيناه!

فاضتا عينا عمر بالبكاء

تخيل..

يبكي فرحا أنه لم يسم في المنافقين!

الأمر إذن لم يكن مجرد سؤال عابر أو أداء واجب متكلف لكسب بعض الاطمئنان وحسب

الأمر كان همّا حقيقيا صادقا حواه صدره ونفثته دموعه

يحدث له هذا وهو صاحب رسول الله ووزيره

يسأل خائفًا على نفسه من النفاق ويبكي فرحا بنجاته منه بينما يأمن كثير من الناس اليوم تمام الأمن من تلك الآفة ويظنون أنهم بمعزل عنها وكأن بينهم وبينها حجرًا محجورًا وحجابًا مستورًا

يقول ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى على نفسه النفاق لا يقولن أحدهم أنه على إيمان جبريل ومكائيل!

يخشون لأنهم يدركون أنه قد يقع وهم لا يشعرون..

إن عدم الشعور بالنفاق هو خصلة تدفعك لأن تجتهد أكثر في أن تتعوذ من النفاق كما تعوذ منه نبيك ﷺ وتدعو ربك أن يجنبك إيَّاه فقد يصيب المرء شيئًا منه وهو لا يعلم

وقد يخدع نفسه وهو لا يشعر

انتبه

وهو لا يشعر

والنفاق مرض..

بل هو في الحقيقة أخبث الأمراض

إنه الداء الأخطر الذي قد يعتري قلب مسلم قبل أن تنتفي عنه تلك الصفة للأبد

وإن البداية الحقيقية لعلاج أي مرض تكمن في التعرف على وجوده والانتباه إلى مكانه ومدى انتشاره داخل الجسم

لكن تخيل لو أن مريضا قرر ألا يعترف بوجود المرض

تخيل لو أن مريضا هاجم الطبيب الذي نبهه للمشكلة واعتبره طرفا فيها وحمّله مسؤولية تنغيص حياته بتحذيره من احتمالية وجود المرض وتعكير صفوه بذلك التنبيه والتحذير

تخيل لو أنه رفض الانتباه وقرر أن يدس رأسه في الرمال وأبى أن يسعى لاكتشاف حقيقة إصابته بهذا المرض العضال وبالتالي فقد فرصة علاجه أو استئصاله

البعض للأسف يعيش هكذا ويتعامل بهذا المنطلق مع من ينصحه وينبهه لوجود خلل ما، بل ويعتبر أن النصح العام من خلال بيان مواطن الخلل والتحذير من الآفات القلبية والأمراض الخفية التي تجتاح جسد الأمة من حيث لا تشعر = انشغالا بعيوب الناس أو نظرة سوداوية تبرز فيها فقط النماذج المؤسفة والبلايا المتوطنة في ثنايا النفس وجنبات الشخصية

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق

إن كان في النصح التحذيري تنغيصا لحياة البعض وإظهار لشيء من مواطن الخلل فإن إبرازها بشكل صريح ودقيق وبشيء من التفصيل ربما يساعد بشكل أو بآخر على اجتنابها وينبه من ينطبق عليهم شيء من تلك الخصال والأنماط المؤسفة ويلفت نظرهم إلى أن ثمة مشكلة ربما لا يلحظونها في خضم الصخب المحيط بهم لكن عند النظر إليها بمنظور عين الطائر ومن خلال الرؤية النقدية المتسعة فإن ذلك أدعى لوقفة مع النفس ومراجعتها وتصحيح مسارها وهذا أول طريق التغيير والعلاج

لذا قال سيدنا حذيفة ﵁ كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر

لماذا كان يسأل عن الشر بهذا الحرص؟!

الإجابة تأتيك منه واضحة: مخافة أن يدركني

إذن هو يدرك أنه ليس بمعزل عن الشر ولا هو في عصمة عنه

وهو يخافه

وكذلك المؤمن

يخاف النفاق ويخشى أن يقع فيه دون أن يشعر لذا فهو دوما يسأل عنه ويستبين مسالكه

و ذلك منهج قرآني متقرر ومتكرر

لو أننا تدبرنا آيات سورة التوبة كمثال لأكثر السور التي تناولت النفاق وأهله لوجدنا لفظ «ومنهم» قد تكرر كثيرا في تلك السورة

والناظر بعين التدبر لما بعد هذا اللفظ سيجد في كل مرة صفةً من صفات المنافقين ونمطا متكررا من أنماطهم الحياتية وسلوكياتهم التي تُتبين منها حقيقتهم

كل صفات المنافقين تقريبا ذكرت في هذه السورة ولم يكن متبقيًا إلا أن تُذكر أسماؤهم وكناهم.

وسورة التوبة هي السورة الفاضحة الكاشفة التي يستطيع كل منا أن يكتشف حقيقته من خلال آياتها بعرض هذه الآفات على نفسه وتلمس حالها والمسارعة إلى التوبة التي هي الحل المطروح في السورة في مواجهة تلك الفضائح والخلاص من أسر تلك الأمراض بدلا من تركها والتستر عليها حتى تنمو وتستفحل ويصعب اجتثاثها بعد حين

وكلما مر المرء بالكلمة المتكررة في السورة «ومنهم» «ومنهم» «ومنهم» عليه فقط أن يسأل نفسه ثم يجيب بصراحة: ترى هل أنا منهم؟!

قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن سورة براءة فقال: «تلك الفاضحةُ، ما زال ينزل: ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحدًا»

قد يقول قائل: هؤلاء منافقون فما شأننا نحن بذلك وما علاقة هذا بأمراض النفس وآفات السلوك

إجابة ذلك التساؤل تظهر جليه من تعامل الصحابة رضوان الله عليهم مع تلك الآفة

آفة النفاق

لم يتعامل الصحابة مع هذا المرض العضال والنمط البغيض على أنه مخصوص بطائفة معينة عليهم الحذر منها وحسب، لكنهم تفاعلوا مع تلك النصوص وأدركوا أنهم -على مكانتهم- ليسوا بمعزل عن تلك الخصال التي لخص مجامعها رسول الله ﷺ حين بين أن المنافق إذا حدّث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ثم أوضح أنه من كانت فيه خصلة منهم كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها ومن اجتمعت فيه فهو منافق خالص عياذا بالله!

ها هنا بيان واضح من النبي ﷺ أن الخطاب تحذيري من الآفة نفسها وليس فقط من المصابين بها والرسالة الضمنية مفادها: راجعوا أنفسكم فلربما تلبستم بشيء من تلك الخصال من حيث لا تشعرون

ولقد تلقى الصحابة تلك الرسالة وتفاعلوا معها تفاعلا واضحا فلم يتغافلوا أو يدسوا رؤوسهم في الرمال بل انتبهوا وخشوا على أنفسهم جدا تلك الخصال كما أشرت سابقا في فعل سيدنا عمر بن الخطاب مع سيدنا حذيفة: وكذلك ما قاله ابن أبي مليكة رحمه الله عن إدراكه لثلاثين من الصحابة كلهم كان يخشى على نفسه من ذلك المرض العضال

النفاق

عَنْ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه قَالَ «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى

عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَصِيرُ بِهَا مُنَافِقًا، وَإِنِّي لأَسْمَعُهَا الْيَوْمَ مِنْ أَحَدِكُمْ عَشْرَ مَرَّاتٍ»

إنه هاهنا يغرس فيهم تلك الخصلة التي لا ينبغي أن يخلو منها قلب مؤمن

خشية النفاق

لذا قيل: النفاق... لا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق

قال رجل يوما لحذيفة: إني أخاف أن أكون منافقا

فرد حذيفة: المنافق لا يخاف

يقصد لا يخاف النفاق

إذن فعندما نتأمل تلك الآيات التي تتحدث عن النفاق فلا ينبغي أن نتعامل معها من منطلق المعلومات العامة أو الشأن الغابر لطائفة خيالية أو افتراضية ليس لها أدنى علاقة بنا أو بواقعنا ومن ثم نتغافل عن إسقاطها وقياس حالنا عليها والاستفادة من توجيهاتها وتحذيراتها في واقع نفوسنا وأفعالنا

الصواب أن نتعامل مع تفصيل ذلك المرض وأعراضه بمنطق المنتبه المحاذر الذي يسعى بصدق للوقاية منها أو للعلاج إذا كان ممن أصيبوا بشيء منها وأن يتعامل كذلك مع من ينبهونه لتلك الآفات سواء بشكل عام مطلق أو خاص مقيد على أنه طبيب حريص وناصح أمين وليس عدوا مريبا يريد أن يستعلي عليه ويزكي نفسه من خلال انتقاص الآخرين

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

والمنافق مجرم..

ولتستبين سبيل ذلك النوع من المجرمين كثر ذكره في الآيات وفُصل بيانه

لقد ورد ذكر لفظ النفاق ومشتقاته في أكثر من ثلاثين موضع من كتاب الله

وورد معناه إشارة في أضعاف تلك المواضع وتم ربط وروده في جل هذه المواضع بعشرات من الصفات والخصال والأقوال والأفعال التي على تنوعها = لا تنفك عن المعنى اللغوي والشرعي للنفاق

سوء الطوية

اختلاف الباطن عن الظاهر

انتحال صفات تنافي الجوهر القبيح

إخفاء الفساد والباطل بشتى صنوفهما ومداراة ذلك بدثار مصطنع من الخيرية الزائفة

حول ذلك تدور سائر خصال المنافقين وأقوالهم وأفعالهم

من هنا كان الكذب والغدر والخيانة والفجور أبرز الخصال التي أشار النبي ﷺ إلى أن اجتماعها كلها في شخص يعني كونه منافقا خالصا وأن وجود بعضها ينذر بأن من وجدت فيه فهو على الطريق نفسه

طريق النفاق

ولو تأملت كل خصلة من الخصال الأربعة للمنافق = ستجد أصلها هذه الاختلاف العميق بين ظاهر المرء وباطنه

ستجد الإضمار للسوء وإخفاء حقيقة الشر الذي تحويه النفس

الكذب وهو إخبار بما يخالف الحقيقة

إنه نموذج واضح لهذا التباين الذي نتحدث عنه ولذا قيل أنه إذا ذكر النفاق في موضع فيندر ألا يذكر معه الكذب

ونقض العهد وإخلاف الوعد تباين آخر بين ظاهر عَلَته الثقة المتبادلة وزينته تأكيدات الوفاء ثم نقض ذلك كله بعد حين لتظهر حقيقة الغدر التي كانت تحت السطح تنتظر اللحظة المناسبة لتنضح

وخيانة الأمانة لا تختلف عما سبق من اطمئنان صاحبها لظاهر المنافق الباعث للثقة التي لم تلبث كثيرا قبل أن تتحطم على صخرة الواقع الذي يعز فيه الأمين

و الفجور في الخصومة أيضا يعد من أبرز وجوه الاختلاف بين الحقيقة المبطنة وبين الواقع المصطنع

تأمل حال الفاجر في الخصومة المنتهك لحرمات خصيمه المقطع لسائر أواصر الأخوة والمودة معه وقارنه بذي قبل

قارنه بحاله حين كان على وفاق معه أو قبل أن تدب بينهما الخلافات ويظهر صدع الشقاق

ويكأن الفاجر في الخصومة كان حينئذ شخصا آخر

أو في الحقيقة كان يظهر أنه شخص آخر ثم عند المحك ظهر الحق وبدى فجوره الذي كان بدوره ينتظر اللحظة المناسبة ليطفح مدمرا أي شرف في الخصومة

وكما أسلفت فإن كل تلك الخصال يربط بينها وبين بعضها البعض رابط التباين بين الظاهر والباطن

لكن ما الذي يفضح وجود هذا التباين ويظهر حقيقة النفاق تلك؟

أرى أن العامل المشترك الذي أدى لخروج الحقائق إلى السطح يتلخص في كلمة واحدة هي أصل النفاق الأهم وباعثه

المصلحة

تلك التي لولاها ما اضطر المنافق أصلا أن يكون منافقا

ما اضطر أن يكذب من البداية

أن يعاهد أو يعد في أول الأمر ثم يخون ويغدر ويخلف في آخره

ما اضطر لأن يخفي أضغانه ويدفن عداوته وفجور خصومته ابتداءً ثم يظهرها انتهاءً

لكان لديه من الشرف ما يؤهله لدركة أهون من دركته يرافق فيها الكافر الصريح الذي أبى أن يخفي حقيقته

لكنها المصلحة

لأجل ذلك لم يعرف لهذا الصنف وجود في مكة

لم نره في شِعب أبي طالب ولم نشهده في عام الحزن ولم نلتق به محافل الاستضعاف

لم يُر المنافقون ولم يُعرفوا إلا بعد أن قويت الشوكة وظهرت الدولة وصار للمؤمنين منعة وغلبة

أو بالاصطلاح المعاصر

حين جاءت المصالح

عندئذ جاء المنافقون

وعندئذ كذبوا وأظهروا ما لم يبطنوا

لأجلها فقط

لأجل مصالحهم

ولأن نظر الناس هو أهم ما يحرص عليه المنافق ويعنى به ولأنه أسبق في تقديره وأعجل أثرا من نظر الله = كان المظهر الخارجي والقشرة السطحية التي تحيط به؛ أمرا محوريا ومقصدا رئيسيا يحكم حياتهم ويسيطر على واقعهم

القشرة التي تعجب الخلق وترضيهم

لذا كان المنافق الأنيق المهيب ذا السمت الطيب والهيئة الجذابة المثيرة للإعجاب = نوعا منتشرا جدا بين هذه الفئة من البشر

بل يمكنك أن تقول أنه هو الأصل

المنافقون يثيرون الإعجاب من الخارج

هكذا وصفهم الله

﴿ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ ﴾

ستراهم إذن..

وستعجب بهيئتهم

وستنبهر بمظهرهم

وستلتفت لقوتهم ومتانة بنيانهم

وربما تنخدع بسمتهم وتركن لصورتهم = فتحسن الظن بهم وتأنس إليهم وتأمن جانبهم

سيُشار إليهم بالبنان

وسيُقلدوا أعلى المناصب

وسيوسد الأمر إليهم وهم غير أهله

وسيقدمون على غيرهم ويسلطون عليهم

وكل ذلك لماذا؟

إنه المظهر الخادع والقشرة الزائفة

وكم من سادة و أكابر بعين الخلق، بينما هم عند الله أصاغر أهون من الجُعل وأصغر من الذر، كما صح عن النبى صلى الله عليه و سلم

كم من أناس يشار إليهم بالبنان، و تُنظم فى مدحهم القصائد و تدبج فى مناقبهم المقالات و المقولات وهم فى الحقيقة لا يساوون عند الله جناح بعوضة ولاقيمة لهم في الميزان

العبرة ليست بعظمتهم وجاههم ووجاهتهم في الدنيا

ولا بصورتهم في أعين الناس

العبرة بحقيقة العبد وسره المنظور المدرك ببصر الله وسمعه، وميزانه العادل القسطاس

العبرة بقلبه وجوهره

وما أقبح ذلك عند المنافق

في رواية صحيحة لحديث حذيفة عن الشر الذي كان يسأل عنه النبي فأجاب: «فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»

الجثمان الظاهر لإنسي عادي أو حتى مثير للإعجاب والثناء

لكن أمر القلب كان مختلفا

كان قلب شيطان

وفي صحيح مسلم: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة = لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾»

هذه هى قيمته الحقيقية عند الله

جناح بعوضة!

بل هو أهون وأرخص

لكنه عند الناس ليس كذلك

والسبب ببساطة أن الخلق لا يحكمون بمعيار صحيح إلا ما ندر

الأغلبية للأسف يحكمون بمعيار الظاهر

والمنافق يعرف ذلك ويغازل ذلك المعيار ويستميله ببراعة

نفس معيار المشركين حين قالوا

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾

هكذا تساءلوا معترضين على نزول القرآن على النبي محمد ﷺ

وهل كانت هذه هي المشكلة؟

هل كانت كل قضيتهم أنه ليس من زعماء المجتمع أو من عظماء ماديتهم السطحية؟!

و الأهم.. هل هم من يقررون ويقسمون رحمة الله؟!

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾

هو بعينه ذات المنطق المريض والمعيار الردىء في كل زمان ومكان

الحكم من خلال الظاهر

حكم يرسخه نمط من الخلق لا يلتفت انتباهه إلا للمظاهر المبهرة ولا ينجذب بصره إلا لزينة براقة أو زخرف لامع

قوم يقيسون الحق والباطل فقط من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الضخم والنسب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل

إنه النمط الذي تبهره زينة قارون وقوة عاد وعلو النمرود

النمط الذي يستخفه فرعون ومنطقه المعروض في نفس السورة «الزخرف» إذ ينادي ويقول: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾

هذا هو ما أرادهم أن ينتبهوا إليه

ثم سألهم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

نفس الترسيخ للحكم البصري المظهري والتقييم القائم على أساس الرؤية الخارجية والمقاييس المادية وحسب..

لذلك كان القياس الذي ظنه فرعون منطقيا = ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

لقد قاس على نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل وقت وحين

الذي ينخدع به الفاسقون

ويستخفون

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

وبنفس الفكر وصل صاحب الجنتين الذي ذكر الله قصته في سورة الكهف إلى تلك القناعة الغريبة والمعتقد البشع حين أعجبته ثروته وأسكرته جنته فدخلها وهو ظالم لنفسه وقالَ ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

من أين عرف ذلك وكيف وصل إلى هذا المعتقد؟!

الإجابة ببساطة هي ذات الاغترار بالمظهر الزائف والزخرف الزائل وما يفعله بالنفس من استكبار وغي

ومن هنا أيضا أقسم بعض أهل النار يوما أن لن ينال الطائعون رحمة

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾

ولقد نسوا أو تناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات

نسوا أو تناسوا أن رَحْمَة رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون

وأن الحقيقة والجوهر إن صلحا = خير وأبقى مما يظهرون

خير من أجسامهم وصورتهم التي عليها يحرصون وبها يعجبون

﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

لا يعجبنك ظاهرهم مهما بدت لك من بعيد وجاهة ذلك الظاهر وفخامته

ما هم إلا مجرد صور خاوية من الحقائق

جمادات خاوية من المشاعر

﴿ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ ﴾

ذلك هو التشبيه الأجمع الذي اختاره ربنا سبحانه وتعالى ليلخص حال المنافقين وموقعهم من سائر المؤمنين

إن كلمة خشب بمفردها و لأول وهلة تلقي في النفس انطباعات تلقائية

القسوة

الخشونة..

الغلظة

التيبس

كل هذه الانطباعات توقعها في النفس تلك الكلمة

ذلك لأن الخشب هو ببساطة ما استطال وغلظ من العيدان والأغصان

حينئذ يقال له خشب

إنه إذن مجرد جماد يابس

لم يقل الله هذا السياق شجرا مثلا أو حتى غصن أو غيرها من الألفاظ التي قد توحي ببعض الحيوية

بل وقع الاختيار على الخشب اليابس المُنْبَت عن أصله الفاقد لكل معاني النضارة والحيوية فلا جذر ممتد يُروى ويسقى ويمده بأسباب الحياة ولا مدد سماوي يرطبه ويهون من قسوته

والخشب مهما ضخم واستطال حجمه فإنه يظل خاليا من الحياة مفتقرا إلى الإدراك فاقدا للتأثر بما حوله من المتغيرات والأحداث

وكذلك المنافق..

جسد خاوٍ وإن عظم بنيانه

قاسي القلب متبلد المشاعر قاصر الإدراك فظ الطباع

كتلك الألواح الخشبية التي تبدو غلظتها وضخامتها من بعيد

لكنها مع تلك الضخامة ومع ما قد يكون ظاهرا من الفخامة التي تبدو للعيان وتثير إعجابهم كما أسلفنا = فإن ذلك كله لا يجعل لها أي قيمة أو نفع

الأصل أن الخشب يستعمل في أمر نافع وإن غيره من الأشياء ليستند إليه ويستقوي به ويتخذه دعما..

أن يكون الخشب داعما لجدار أو مقيما لسقف أو عمودا لخيمة أو بناء أو أن يستعمل كقطعة أثاث نافعة = فإن هذا هو الطبيعي والمتوقع..

لكن من الخشب ما هو رديء نخر ضعيف البنية لا يمكن الاعتماد عليه ولا الاستقواء به أو حتى الانتفاع به

مثل هذا يلقى بإهمال وعدم اكتراث مستندا إلى جدار أو إلى حائط

إنه لا يقوم بذاته فضلا على أن يقيم غيره

وكذلك المنافقين

﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾

كيانات عديمة القدر أينما توجهها أو تستعملها لا تأت بخير

كيانات فقدت دورها وأهميتها كما فقدت المشاعر الطبيعية

حتى بناء الكلمة جاء للمجهول ليفهم منه أن هناك من أسندهم

هناك من يوجههم ويحركهم ويتحكم في مواقعهم

دوما هم بحاجة إلى من يستندون إليه ويكتسبون منه قيامهم ومكانتهم

قد يستندون لجدار الكذب والتدليس ولحن القول

وقد يعتمدون على منصب أو جاه يدعمهم ويقويهم

وقد تسندهم الخيانة والغدر والتآمر الذي لا يجيدون شيئا مثله

وقد يساندهم أولياؤهم وشياطينهم من الإنس الذين كلما خلوا إليها قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون

المهم أن يبحثوا لهم عن سند مهما كان بطلانه أو عداوته للمؤمنين

وقد قيل أن الاستناد إلى جدار أو نحوه يطابق وصف مجلسهم عند رسول الله

إن علوهم واستكبارهم كان يحول بينهم وبين الاجتماع والالتفاف حول رسول الله ﷺ مع المؤمنين المحبين الحريصين على القرب منه والدنو من مجلسه

إنهم يرون أنهم أرقى وأعظم شأنا من ثني الركب والتواضع لمعلم الناس الخير والهادي إلى صراط مستقيم

لذا فهم يجلسون متكئين مستريحين بعيدا عن مجلسه مجتمعين على لمزهم واستهزائهم بالمؤمنين إلى جدرهم مسندين

لكنهم مع كبرهم وعجرفتهم تلك ورغم حرصهم على الاستناد لما يقويهم ويشد بأسهم = خائفون

إنهم يعلمون أن جدرهم التي عليها يعتمدون ضعيفة وأن بنيانهم على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بهم وهم يدركون أن سندهم قد يزول في أي لحظة ويكون مصيرهم السقوط المروع

لذا فهم يخافون

وكلما سمعوا شيئا حسبوه ضدهم وظنوا أنها القاضية التي ستنهي كذبتهم الكبيرة وادعاءهم الخاوي

لذلك جاءت الجملة الأخيرة لتلخص ذلك الرعب المستعر في قلوبهم المريضة

﴿ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾

كل كلمة تقال

كل سورة تنزل

كل خصلة تكشفهم

كل معنى يبين حقيقتهم

أي شيء من ذلك قد يكون هو الفاضح لهم الذي سيكشف تلك الحقيقة الجامعة التي ختمت بها الآية

حقيقة عداوتهم

﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

والمنافقون قوم حريصون كل الحرص على التخفي والبقاء في الظل

ولقد قيل أن أصل النفاق لغة نسبة إلى النفق وهو السرب في الأرض لأن المنافق يستر كفره ويغيبه فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه

وقيل أن الأصل اللغوي مأخوذ من نافقاء اليربوع

و اليربوع حيوان قارض يتخفى في الأرض من خلال جحر يقال له: النافقاء، وله جحر آخر يقال له القاصعاء، فإذا طلبه عدو من القاصعاء قصع فخرج من النافقاء

كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه

وقيل أن الكلمة نسبة إلى نافقاء اليربوع أيضًا، لكن من وجه آخر وهو إظهاره غير ما يضمر وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض ترك قشرة رقيقة حتى لا يعرف أحد مكان هذا المخرج فإذا رابه ريب دفع تلك القشرة الرقيقة برأسه فخرج فظاهر جحره تراب كالأرض وباطنه حفر، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر مخفي

لكن مهما غفل المنافق أو تغافل عن حقيقة نفاقه فإنه في قرارة نفسه يشعر أن ظهور تلك الحقيقة على الملأ قاب قوسين أو أدنى وإن أمره لا محالة سيفتضح في أي لحظة

نعم هو كما أسلفنا يجيد الاختباء والاستخفاء

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾

لكن حقيقته لا تخفى على عقله الباطن ويكاد ككل مريب أن يقول بأعلى صوته: خذوني..

لأجل هذا الشعور بقرب الانكشاف وافتضاح الأمر = فإن للمنافق حيلا دفاعية ودروعا يتترس بها خشية وقوع تلك الفضيحة الحتمية

من أهم تلك الدفاعات والمتاريس = الحلف

الأيمان المغلظة

كثرة القسم

المسارعة إلى تأكيد الصدق والإشهاد على ذلك

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

بمجرد أن يدخلوا على رسول الله = تكون المسارعة إلى تأكيد الشهادة

رغم أن سياق الآيات لم يظهر فيه أن أحدا طلب منهم هذا التأكيد

لكنهم يحرصون عليه

ببساطة لأنهم يعلمون أنهم يكذبون

يدركون أن قولهم الظاهر يخالف معتقدهم الباطن

ويشعرون أن ذلك الاختلاف سينضح على وجوههم

لذلك يشهدوا ويؤكدوا ذلك مرارا

ثم يظنوا أن هذا كله لا يكفي فيلجأوا إلى درعهم الأهم الأيمان..

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً ﴾

والجُنة هي السترة أو الدرع الذي يستترون به كما يستتر الجندي بجنته في حرب وقتال

وهم يحتمون بهذه الأيمان التي قد لا يجد المؤمن الذي لم يؤمر بالشق عما في الصدور إزاء ذلك الحلف إلا التصديق

ثم يكون الصد عن سبيل الله نتيجة لهذا التترس بالحلف الكاذب كما يوضح الجزء الأخير من الآية الكاشفة في سورة المنافقون

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

ويتكرر المعنى في سورة المجادلة

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. المجادلة ١٦

لكن كيف يكون هذا الصد

للمفسرين في ذلك أقوال منها أن تلك الأيمان والحلف المتكرر على تقواهم وإيمانهم يؤدي إلى إظهارهم بتلك الصورة لعامة الناس الذين ينظرون إليهم على أنهم مؤمنين

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾. التوبة ٥٦

ثم يصدم الناس بعد ظنهم أن المنافقين ضمن عموم المؤمنين حين يفاجأون بعدها بواقعهم النفاقي وسلوكهم البعيد كل البعد عن مقتضيات الإيمان فيظنوا أن إيمانهم هو الذي دعاهم لذلك السلوك المشين = فينفروا من الدين بسببهم ويكون ذلك صدهم عن سبيل الله

وقيل صدوا عن سبيل الله بهذه الأيمان من خلال تقديمها بين يدي تآمرهم وإضعافهم للمؤمنين الذين يستمعون لهم ويصدقوا أكاذيبهم وشائعاتهم ويقع بينهم الإرجاف وتترسخ الفتن

وقيل أن أيمانهم وكثرة حلفهم عطلت وقوع حكم الله عليهم وإنفاذ شرعه فيهم

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾. التوبة ٧٤

وإن تعطيل الشرع في النفس أو الغير = من تمام الصد عن سبيل الله

وما أسوأ ذلك

﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

لذلك ستجد حين تستقريء الآيات التي تحدثت عن النفاق والمنافقين ذكرا كثيرا جدا للحلف

إنه أسلوبهم ومنهجهم

بل هو درعهم وحمايتهم

وثمة أسباب تدفعهم لهذا الإكثار من الحلف

قد يكون ذلك لنجاة من عقوبة وليُعرض المؤمنون عن مؤاخذتهم على سوء صنيعهم

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾. التوبة ٩٥

وقد يكون ذلك لتخفيف وطأة المصائب التي استجلبوها على أنفسهم بشؤم أفعالهم

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾. النساء ٦٢

وربما يكون الحلف للتحجج عن ترك البذل والعمل للدين وتزيينا للمعاذير التي يلقونها مبررين هذا الترك والهروب

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾. التوبة ٤٢

وقد يكون للسبب الأهم على الإطلاق وهو الذي يلخص حال المنافق الذي ندندن حوله منذ البداية

المصلحة الظاهرة

إن المنافق كما قلنا = عبد مصلحته وأسير هواه وهذه المصلحة لن تتأتى إلا بظاهر يُرضي الخلق عنه

لذلك يحلف

ليرضي الناس

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾. التوبة ٩٦

هذا هو ما يلزم المنافق

رضا الناس وإعجابهم به

أما رضا الخالق فأمر لا يشغله أصلا

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾. التوبة ٦٢

تأمل الشرط

إن كانوا مؤمنين

وما أبعدهم عن ذلك

فلماذا يسعون لإرضائه إذن

بل إن تمام المهزلة التي يجسدها واقع المنافقين حين يصل تعودهم على الحلف وتحصنهم بالأيمان المغلظة إلى أن يفعلوها بين يدي الله

هنالك في يوم البعث وعند السؤال

لقد عاشوا حياتهم على الاحتماء بالأيمان الزائفة وأدمنوا الحلف

الكاذب وظنوا أنها حصون تمنعهم من الناس حتى صدقوا أنها قد تمنعهم منه

من الله..

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾. (المجادلة ١٨)

لكن رغم هذا الحرص على التخفي وإبقاء النفاق مضمرا في القلب وحمايته بكل وسائل الحماية والإخفاء = لابد أن تأتي اللحظة التي يخشاها المنافق ويحذرها

اللحظة التي لا يملك فيها المنافق أقواله وأفعاله

عندئذ تخرج الأضغان ويفتضح الأمر

وحينها يُعرف المنافق

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾

إن إطلاق مرض القلب في السياق القرآني يشير في الغالب إلى ذلك الداء العضال

النفاق

وقد روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله قوله: مَا أَسَرَّ أَحَد سَرِيرَة إِلَّا أَبْدَاهَا الله عَلَى صَفَحَات وَجْهه وَفَلَتَات لِسَانه

وقديما قال الشاعر

ومهما تكن عند امريءِ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

مهما اجتهد مضمر النفاق في إخفاء سوءة نفسه وطمس بشاعة سريرته فإن ثمة لحظات كشف تأتي عليه لا محالة حينئذ لا يملك كتمان حقيقته ولا يستطيع منع افتضاح أمره

المدهش أن المنافقين في كل عصر لا يدركون سهولة افتضاح أمرهم

مهما تستروا وتخفوا وتزينوا وزعموا أنهم أكمل المؤمنين إيمانا حتما ستأتي المحكات وستظهر العلامات

فببساطة الأمر ليس بمجرد الزعم أو الادعاء

لقد جعل الله لذلك بينات وأمارات يُعرف من خلالها صدق الزعم من عدمه

رغم خوفهم وحذرهم الشديدين فإن أمرهم في النهاية سينكشف وستظهر حقيقتهم

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

مخرج إياه لا محالة

لا يحتاج الأمر إلى سورة تحصى أسماءهم وتعدد كُناهم وألقابهم كما كانوا يحذرون

ولا يقتضي الأمر علامة أو وسما ولا يستلزم تشخيصا وتعيينا ولو أراد الله ذلك لفعل

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾

تأمل الشرط

لو نشاء

الأمر إذن مرتبط بالمشيئة الإلهية

وإن كان قد فعل مع رسوله ﷺ فعرفه بأعيانهم وأسمائهم فهو لم يحدث مع غيره بشكل مطرد

لم يجعل الله على رأس كل منافق وسما ولم يكتب على جبهته وصفا كالدجال مثلا

لكنه مع ذلك أخبر أنه سيُعرف

من دون كل ما سبق سيُعرف

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ ﴾

هكذا أقسم بعدها مباشرة

بعد أن علق الرؤية بالمشيئة = جزم بالمعرفة وأكد حدوثها بلام القسم والنون

إذن فالمعرفة ستأتي

والعلامات ستظهر

والأضغان ستخرج

وأول ذلك لحن القول

﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾

هذه أولى العلامات

الكلام

ليّه وتحريفه وتغيير مضامينه

هكذا كانوا يفعلون مع النبي ﷺ

كانوا يتكلمون بألفاظ تواضعوها بينهم يعنون بها خلاف ظاهرها وكان رسول الله يحملها على ذلك الظاهر المتبادر إلى أن أعلمه الله أن ذلك أسلوبهم

الخداع في كل شيء حتى في اللفظ والكلمة

وللنفس بوابتان رئيستان

السمع والبصر

والمنافق يصر على ولوج البوابتين

فبعد أن أثار الإعجاب بسمته واستطاع خداع الناس بمظهره انتقل لطرق الباب الآخر

السمع

﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾

المنافق يجيد الكلام ويتقنه

والناس تسمعه

هذه حقيقة ينبغي أن نعترف بها

لذا قيل في الحديث الصحيح «إن أخوف ما أخاف عليكم جدال منافق عليم اللسان»

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة.. وكان أولهم منافق يقرأ القرآن لا يخطئ فيه واوا ولا ألفا، يجادل الناس أنه أعلم منهم ليضلهم عن الهدى

إذن فمن المنافقين من يجيد القرآن إجادة تامة لا تكاد تلحظ عليه خطئا في ضبطه وحسن تلاوته

شخص لَسِنٌ يجيد تزيين باطله وتحسن حرفه

بضاعته كلام ملحون

ليّ للألفاظ

تلاعب بالمعاني

تورية في الكلمات

جدال ومراء

وهنا تكمن خطورة المنافقين المتعدية

والحقيقة أن المشكلة في المنافقين لم تكن أبدا قاصرة عليهم وليس منتهى خطورتهم إليهم

المشكلة أن ضررهم متعدي وخطرهم ممتد وفتنتهم مستشرية

إنه ليس مرضا داخليا وحسب

إنه سوس شرس ينخر جسد الأمة نفسه ويدمر مناعته من الداخل

وبوابته الرئيسية = السمع

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾

إنها الوسيلة والغاية تعرضهما الآية بوضوح كاشف فاضح لسبيل المنافقين

ولأوضعوا خلالكم

تكسير لأواصر الأمة وتوهين للروابط بين المؤمنين

والمبتغى واحد والغاية واضحة

الفتنة

هكذا ببساطة حاسمة

لكن هذا ليس مستغربًا منهم بل هو متوقع وطبيعي من أمثالهم

العجب الحقيقي فيمن يعطيهم الفرصة على طبق من ذهب حين يسلمهم أذنيه ومن بعدهما قلبه وروحه

لقد ظلت وستظل حيل المنافقين تنطلي على الكثيرين

تنطلي على السماعين لهم الراضين بقبيح فعلهم وقولهم

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾

نعم

فيكم

في المؤمنين

أنتم أيها المؤمنون من تفتحون لهم أبواب أسماعكم وأبصاركم

أنتم أيها المؤمنون من تأذنون ليدخلوا حماكم وليبثوا سمومهم في أعز حصونكم

قلوبكم

﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾

هذه هي المشكلة الحقيقية

بعد أن أعجبكم مظهرهم = فتنكم حرفهم

بل وأعجبتم بكلامهم كما أعجبتكم صورتهم وأبهرتكم هيئتهم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾

يعجبك قوله

لازلتم تنخدعون

فكما انخدعتم آنفا بالصورة يخدعكم الآن الحرف

وكأنكم تتحرون سبل الإعجاب بهم ولتنسوا أو تتناسوا في نهاية الأمر تلك الحقيقة المحكمة التي طالما نبهكم إليها ربهم

حقيقة: ﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

هم العدو!

هكذا تتم الجملة وقد عُرِّف خبرها بالألف واللام

وكأنه لا عدو غيرهم

بالطبع هناك أعداء كثر ومحاربين من شتى صنوف أهل الكفر والشرك

لكن إتمام الجملة بهذا الشكل يفيد التنبيه الشديد لخطورتهم الرهيبة ووجوب الحذر منهم

كيف لا وهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا

وفينا من يسمعهم

ويصدقهم

بل ويجادل عنهم

مع وضوح العلامات وظهور القرائن الفاضحة هناك من لا يُعرض

هناك من يجادل في المنافقين

هناك من يصر على الانخداع بهم

هناك من يظل في الفئة الأخرى من الفئتين اللتين يختلفان في المنافقين ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

وجماع ذلك كله في تصديقهم وسهولة الانخداع بهم

وبوابة ذلك الانخداع = السماع

السماع لهم والإنصات للحن قولهم

ومن أهم صور لحن القول التي يحرص عليها المنافق ويظن أنها ستغير حقيقة نفاقه أو تنجح في إخفائها = تسمية الأشياء بغير أسمائها الحقيقية

تحديدا القبيح من الأشياء

المستقذر منها

الأشياء المشوهة الكريهة التي ينفر الأسوياء من مجرد سماع اسمها الذي يعبر فعلا عن حقيقتها

دائما ما كان المنافق قديما وحديثا يسعى لتزيين أفعاله الخبيثة بأصباغ تجميلية يحسب أنها كافية لتغيير الواقع البغيض وذلك من تمام لحنه بالقول

لذلك لا يقبل أبدا أن يوصف بوصف يعبر عن ذلك الواقع بدقة

لا تفسدوا في الأرض..

فساد؟!

لا

لا هذه الكلمة لا تناسبهم

لا يرتضونها

لا يقبلون أن توصف بها أعمالهم

لكنهم فعلا مفسدون وجل حركاتهم وسكناتهم تنضح بذلك الفساد

لا شأن لهم

إنما نحن مصلحون

هكذا كانت إجابتهم وكذلك كان رد فعلهم

لا لوصفهم أو وصف أعمالهم بالفساد

بل تمام الضد

مصلحون!

أنتم؟!

نعم

مصلحون رغم أنف الجميع وحتى ولو كانت جوارحنا كلها تصرخ بفسادنا عليك قصرا أن تنعتنا بالإصلاح

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾

لفظ شرعي وحكم إسلامي له وقع مألوف في نفوس المؤمنين

العورة

هي هنا علة أخرى للمنافقين يبررون بها تخاذلهم عن نصرة الدين

لكنها هذه المرة علة مصبوغة بصبغة شرعية ترهب أي رافض لها

إياك أن تتكلم أو تعيب عليهم قعودهم عن دفع المشركين يوم الأحزاب أو تنتقد تخاذلهم عن مقاومة المعتدين

لقد صدّروا هذه المرة علة شرعية لتسكت وترضى بما يفعلون

لقد جعلوا لفظ العورة ذريعة للقعود لستر هذه العورة المزعومة

لكن يأتي الرد كاشفا

﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾

دعكم من هذا التلبيس واستعمال الألفاظ الشرعية الملجمة لتزيين وتجميل الحقيقة القبيحة

ما هي بعورة وما هم إلا كذبة جبناء يبررون خورهم وهم = ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

هذه هي الحقيقة التي كثيرا ما تلبس بثياب الشرع والحكمة أو تتدثر بدثار المصطلحات المقبولة

ما هو إلا مزيدا من التلبيس والتحريف وتسمية الأشياء بغير أسمائها ثم تكرارها حتى تتأصل وتهون مدلولاتها في القلوب

يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتنِّي؟

فوالله لقد عرف قوْمِي أنَّه ما من رجُلٍ بأشدَّ عجبًا بالنِّساء مني، وإنِّي أَخْشى إن رأيتُ نساء بني الأصْفر ألاَّ أَصبر

تزيين آخر وتجميل لحقيقة مشوهة

إنها كلمات الجد بن قيس للرسول ﷺ يوم استنفر الناس لغزوة تبوك

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾

لا تَفتِنِّي..

المشكل – بزعمه – في الفتنة

في الشقراوات اللاتي يخشى أن يغريه جمالهن فيفتن عن دينه

يا لورعه وما أعظم تقواه

لقد أظهر ذلك التورع وأبدى تلك العفَّة والخشية من الوُقوع في الفاحشة بدلا من أن يصرح بحقيقة جبنه وخوره والفتنة الحقيقية التي وقع فيها

لكنَّ اللهَ له ولنوعه بالمِرْصاد، يكشف زَيْفَ ادِّعائِهم ويهتك ستْرَهم؛ ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

منهج متكرر مطرد في كل زمان ومكان وبشكل يكاد يكون متطابقا يقلب الحقائق ويلوي أعناق الأشياء فيصير الحق باطلا والباطل حقا والعزيز أذل والذليل أعز

تسمى المُسكرات والخمور التي تخمر العقل وتغطيه باسم جميل جذاب = المشروبات الروحية

ويسمى الابتذال والتعري فنًّا أما الشذوذ فإياك أن تفكر في وصفه بحقيقته وإلا نالك كل ويل وثبور

إياك أيها الرجعي المتأخر أن تقول شذوذا ولا سحاقا ولا حتى تسميه بعمل قوم لوط إنها المثلية وإنهم المثليون

هكذا..

لابد من اختيار اسم جذاب أو على الأقل مقبول فما تسمية الأشياء بغير اسمها إلا مسوغًا يجعل المتلقِّي يقبلها، مستحسنًا إياها، غير معظمٍ لجرمها، لما تضفيه عليها تلك الأسماء «اللطيفة» من طابعٍ لين يهون من فظاعتها وشدة حرمتِها

تلك طريقتهم وهذا منهجهم

وإن مبتدع هذه الطريقة هو في الحقيقة = إبليس نفسه

تأمل تسميته الشجرة المحرمة بشجرة الخلد والملك الذي لا يبلى

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

تأمل تزيينه للمعصية وتجميله لوجهها القبيح بأن جعل علة كونها معصية = حرمان آدم وزوجه من أن يكونا ملكين أو أن يكونا من الخالدين

﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

تأمل كيف غير صفة وسوسته وإضلاله فجعلها محض نصيحة مشفق ودود

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

الشيطان المضل الأكبر قرر أنه ناصح أمين وأقسم على ذلك

وفرعون الطاغية الأشهر قرر أنه يخاف على دين أمته ويخشى أن يظهر موسى الفساد في الأرض

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

موسى سيظهر الفساد؟!

وأنت يا فرعون من تزعم ذلك

فلماذا إذن لا يصير المنافقون مصلحين ويصبح الفرار ورعا والجبن الخور عفة وخشية من الفتنة

لماذا لا يتحول الفساد والباطل إلى ذروة الحق ما دام الطريق ممهدا وتلخصه كلمة واحدة

التسمية

وسواءً كانت التسمية شرعية أو غير شرعية = يظل التلبيس واحدًا في الحالتين

تتنوع الحجج والمعاذير وينساق الناس إلى الاصطلاحات التي استعملت لتغطية الحقيقة بينما تكمن الخطورة الحقيقية في وجود الغطاء المزين الجميل

من هنا يستمر التمادي في الخطأ بل وشرعنته لتضيع محاولات الإصلاح ويبتعد الحل

ذلك الذي كثيرا ما تكون بدايته فقط أن يعرف الإنسان ويعترف..

يعرف بأن لديه مشكلة وتستقر في نفسه آفة ومعضلة

وأنَّى له أن يعرف إن لم يجد اسما يشير به إلى تلك المشكلة والآفة؟!

أنَّى له أن يعرف وقد تم تحريف المسميات وعم لحن القول حتى لم يعد يُتبين للخلق حق من باطل؟!

وكل ذلك بلحن القول وتزيين الكلام وتحريفه عن حقيقته

أو بجعله جذابا مثيرا للإعجاب

الحقيقة أن جُل الخلق يعجبهم المزاح ويستأنسون بالفكاهة ويميلون للشخص الظريف الذي يستطيع جذب الابتسامة إلى شفاههم بغض النظر عن الوسيلة التي يستخرج بها ضحكاتهم

حتى لو كانت تلك الوسيلة = استطالة على الآخرين وامتهانا لهم واستهزاءً بهم وخوضا في أعراضهم

كل هذا لا يهم

المهم أن نخوض ونلعب

أن تعلو الضحكات وتنفرج الأسارير

حتى لو كان ذلك على حساب الآخرين ممن لا ذنب لهم ولا شيء يضطرهم لأن يكونوا مجرد أدوات وظيفتها فقط إشباع تلك الشهوة الخرقاء

وللمنافقين علاقة وثيقة بالفكاهة والتظرف

لكنها كما أشرت فكاهة قائمة بشكل رئيسي على السخرية والاستهزاء والتفكه بالمؤمنين

هذا التظرف والقدرة على الخوض والمزاح يعد من الأسباب المحورية التي جعلت كثيرا من الخلق يعجب بقولهم و يستمع له كما سبق وأوردنا الآية: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾

بل يصل بعضهم إلى أن تشمله تلك الصيغة المبالغة من السماع أن يصير سمَّاعا لهم

﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾

وكيف لا يدمن الاستماع إليهم وهم من محترفي الخوض واللعب

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ ﴾

وأي خوض وأي لعب

بالله

بآياته

برسوله

﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

- ما رأينا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أرغبَ بطونًا ولا أكذبَ ألسُنًا ولا أجبَنَ عندَ اللقاءِ.

هكذا قالوا مستهزئين بعلماء الصحابة

بحفظة الوحي وحراس الشرع وورثة النبي ﷺ

إن السعى الحثيث لتعميم تلك الصورة الذهنية عن حملة الدين هو المقصد الذي يسعى إليه المنافقون دائما

صحيح أن ديننا لا يعرف كهنوتا ولا يرسخ قداسة للأشخاص غير المعصومين لكنه أيضا يعرف الاحترام وحفظ القدر، وفى الحديث «ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه»

وحقه لا يعنى تقديسه أو عصمته، إنما يعنى احترامه وتوقيره وبفرض أنه أخطأ أو تجاوز يوما = فليكن نصحه والاختلاف معه بأدب، وليس بذلك التسفيه المهين الذي تحراه ويتحراه المنافقون

هذه السخرية الممنهجة هدفها ببساطة هو إذابة أى قدر متبقٍ من الاحترام فى نفوس الناس لورثة الأنبياء ومن ثم زوال الاحترام لتركتهم التي ورثوها

العلم بالشرع

يزول الاحترام وتجرف الأعراف والقيم وتزعزع الثوابت الدينية التى نشأ عليها الناس.

والعلة الحاضرة دوما = المزاح والفكاهة

- إنما كنا نخوضُ ونتحدثُ حديثَ الركبِ نقطعُ به عنا الطريقَ

كان هذا هو تبريرهم أثناء تعلقهم بناقة رسول الله معتذرين عن مقالتهم الساخرة

كنا نتسلى

نلهو

نمزح

تتعدد المبررات والحقيقة واحدة

﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

هذه هي الحقيقة التي لابد أن تظهر جلية واضحة

كانوا مجرمين

وكل مستهزيء بالشرع محتقر لأحكامه خائض في أصوله وثوابته جادا أو هازلا = مجرم

لا قيمة ها هنا لمعاذير ولا قبول لتبرير

ثمة مقدسات وخطوط حمراء والضحك والإضحاك والهزل والمزاح ليسوا منها

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾

سيخرجه الله ويفضحه

ولو بعد حين

ذلك لأن المنافق في الحقيقة لا يستطيع التوقف عن تلك العادة ولا يملك أثناء نفاقه إقلاعا عن إدمان السخرية والاستهزاء

ليس فقط لأجل الغرض السابق الذي تحدثنا عنه وهو إزالة

الاحترام للشرع وحملته ولكن أيضا لأن أصل تلك السخرية يكمن في نظرته نفسها

نظرته للدين ولحملته

نظرة احتقار واستهزاء

هذه النظرة تشمل كل ما له علاقة بالدين بدءا من المتدين نفسه

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: «لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾..»

احتقار عميق لكل مؤمن مهما فعل

أنفق قليل = يحتقر فقره

أنفق كثيرا = يرمى بالرياء

المهم أن يسفه المؤمن ويسفه عمله

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾

هذا هو تصورهم عن المؤمنين

سفهاء وصعاليك ليسوا من مستواهم

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وليس فقط عموم المؤمنين

العلماء أيضا كان لهم نصيبا كبيرا من استهزاء المنافقين كما سبق وأشرنا

بل وسيد العلماء وإمام الدعاة رسول الله محمد ﷺ = هو أيضا لم يسلم من استهزائهم وسخريتهم

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ ﴾

اجترأوا علي التقليل من عقله والانتقاص من إدراكه وقدرته على التمييز

زعموا أنه مجرد أُذُنٌ تسمع كل ما يلقى إليها وتصدقه كله من دون تمييز لصوابه من خطئه ولا لكذبه من صدقه

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

بل تجاوزت سخريتهم الأشخاص وتعدى استهزاؤهم مرحلة البشر ليصل إلى استهزاء بكلام رب البشر

استووا بذلك مع إخوانهم الكفار الأصليين

لقد قبلوا مجالستهم أثناء الخوض في الآيات

في الثوابت والعقائد

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾

لكن هيهات

لقد قبلوا..

وقعدوا

وشاركوا وضحكوا

عندئذ استووا بهم

﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾

نفس القلب ونفس الطباع ونفس الكلمات والاجتراءات والأباطيل

إنهم مثلهم في الدنيا ويجتمعون بهم في الآخرة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

لكن لحن القول وتزيين الكلام وإعجاب الخلق به = ليس العلامة الوحيدة التي يفتضح بها أمر المنافق وتخرج من خلالها أضغان قلبه

هناك علامات أخرى ومحكات واضحة عند الاصطدام بها يتحقق موعود الله في شأنهم

المعرفة

الرؤية

الظهور

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾

تأمل هذا المشهد جيدا

يزعمون الإيمان

ثم يتحاكمون إلى ضده

ما قيمة الإصرار على تلك الدعوى بعد ذلك؟

ما قيمة زعم انتفاء النفاق مع حرص أولئك النافين أن يتحاكموا إلى الطاغوت مثلا أو يرفضوا شرع الله معرضين عنه رغم ادعائهم السابق أنهم مؤمنون

لعل هذه هي أبرز العلامات الفاضحة التي نتحدث عنها

علامة تلخصها كلمة واحدة

الصدود

إن المنافق في حقيقة الأمر لا يطيق أي أمر يمت للشريعة بصلة وبالتالي يكون رد فعله المباشر والسريع هو الصد عن هذا الأمر بشكل مطلق

وهذا تحديدا لا يكاد يطيق المنافق كتمه أو مداراته

لذلك فقد بين الله أن هذا الأمر يُرى

بتصريح وجزم قاطع ذكر السياق القرآني لفظ الرؤية

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

هكذا بينت الآية القرآنية الجامعة تلك الخصلة المتجذرة والعميقة ورد الفعل المباشر الذي ستراه في مقابلة أي دعوة لمنافق إلى التحاكم لما أنزل الله

الرفض

التشكيك

المراء

التهوين

التحريف و ليّ عنق الحقائق

كل ذلك لأجل الغاية الجامعة لديهم وهي الصدود

ولهم في ذلك عدة مسالك منها الجدلي الذي يزعمون عقلانيته ومنطقيته ويتفنون في عرض الأسئلة التعجيزية أو التي يظنونها كذلك ويحاولون من خلالها إعضال الداعي للشرع

ومن هذه المسالك ما هو مكذوب محرف يدعون وجاهته ومناسبته وهو أبعد ما يكون عن الحق والصدق

ومنها ما لا يحاول التجمل بشيء مما سبق ويصرح بوضوح أنه صدود

فقط صدود وحسب

صدود عن الشرع الذي يمثل لديهم الرجعية والتأخر وغياب المصالح الواقعية بزعمهم

والحقيقة أبسط من كل تلك الدعاوى والمزاعم

والمشكلة أصلا ليست مع التشريع وتفاصيله

الحقيقة والمشكلة التي لا يحبون إظهارها والتي بينتها الآية وأظهرت أصلها هي مع المشرع نفسه

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾

المنافق ببساطة لا يقبل بمرجعية الشرع لأنه أصلا لم يقبل بأحقية المشرع

لم يسلم لعلمه

لم يستسلم لحكمته

لم يذعن لقدرته

بشكل أوضح لم يؤمن إلا بلسانه ولم يقرب الإيمان قلبه

من هنا كانت بداية الرفض

ومن هنا كانت العلامة الفاضحة

الصدود

العجيب أنك تراهم مع هذا الصدود الفاضح يأتون عند الحاجة وبعد الكرب الذي أصابهم بما قدمت أيديهم محملين بمزاعمهم

وادعاءاتهم من جديد مكللين إياها بالحلف الكاذب أنهم ما كانوا يريدون إلا خيرًا بصدهم عما أنزل الله

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

في هؤلاء الكذابين يقول الحق جل شأنه:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾

والزلازل أيضا تظهر المنافق

بمجرد أن تتعقد الأمور ويشتد البأس بالمؤمنين يكشف المنافق عن وجهه القبيح

إنه ببساطة شخص لا عقيدة له

أو إن شئت فقل: عقيدته مصلحته كما سبق وأشرنا

مصلحته وحسب

لأجل ذلك لا يستطيع المنافق الصبر على أي بلاء أو تحمل أي أزمة بينما يمكن للكافر الأصلي أن يفعل

نعم.. قد تبدو هذه مفاجأة للبعض لكنها الحقيقة الصادمة

الكافر لديه عقيدة يصبر عليها ويبذل لأجلها بل ويتواصى مع إخوانه في الكفر على الصبر عليها

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾

أما المنافق فهو تابع لمصلحته أينما كانت فثم وجهه لذا فبمجرد أن يبدو له زوال تلك المصلحة من صف المؤمنين = يسارع بالمغادرة

يسارع في الكفر

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [سورة المائدة ٥٢]

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ ﴾

[سورة المائدة ٤١]

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران ١٧٦]

تأمل اللفظ القرآني المتكرر الذي يظهر سلوكهم بدقة مذهلة

يسارعون

إنهم لا يطيقون المكث لحظة في جانب يظنونه خاسرا

لا يستطيعون البقاء لوهلة في الصف المبتلى

لا يملكون انتحال شخصية المؤمن أو حتى استكمال المشهد الذي اجتهدوا في رسمه

لذا تأتي المسارعة

ولا يأتي بعدها حرف الجر «إلى»

بل هم يسارعون «فيهم»

في أعداء الدين والملة

وكأنهم لم يكونوا يوما منفكين عنهم ليذهبوا إليهم

إنما هم منهم وفيهم والتذبذب بين الجانبين كان مؤقتا ظاهريا حين ارتبط بالمصلحة لكن حقيقة الأمر أنهم أميل إليهم

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء:١٤١)،

هكذا يتنقلون بين المعسكرين تبعا للمصلحة العاجلة

كالشاة الحائرة بين قطيعين

هكذا شبههم النبي ﷺ فيما روى الإمام مسلم في صحيحه في «كتاب صفات المنافقين وأحكامهم» من حديث عبد الله بن عمر: عن النّبي ﷺ قال: مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً -وفي رواية: تكِرُّ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ مَرَّةً

وهذا كله يظهره الزلزال

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

نزلت هذه الآية تعليقا على غزوة ربما لم يشهد المسلمون الأوائل في خطورتها

غزوة استحقت أن توصف أحداثها بالزلزلة

غزوة الأحزاب

اجتمع العرب عليهم ورموهم عن قوس واحدة وساقوا إليهم جيوشهم وأبطالهم يحاصرون المدينة من جل جهاتها بينما يخون اليهود في الجهة المتبقية

تزيغ الأبصار

تبلغ القلوب الحناجر

تُظن بالله الظنون

عندئذ لم يتمالك المنافقون أنفسهم

مباشرة وفي الآية التي تلي وصف الزلزال الذي أصاب المؤمنين = يتكلم المنافقون

﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا** ﴾

قال المنافقون تلك الكلمات تعليقا على وعود صدرت من النبي ﷺ في تلك اللحظات الصعبة

أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة

هذه البشرى قالها رسول الله ﷺ في تلك الأثناء

أثناء الزلزال الشديد

هنا تكلم المنافقون

ماذا تقول؟!

فى تلك الأحوال العصيبة

فى هذه الظروف القاسية؛ تبشرنا ؟!

تبادل المنافقون نظرات ذات مغزى، وسرى بينهم حديث بلغة العيون، فحواه التكذيب، و خلاصته الاستهجان،

إنها الوجوه المتشككة نفسها؛ التي تطل في كل ابتلاء واختبار

وجوه مستريبة، تعلوها غبرة النفاق، وتظهر على قسماتها قترة الحقد، والتربص

و كأن عيون الحقد و النفاق تتراسل قائلة نحفر خندقًا لأول مرة فى تاريخ العرب، وقد رمتنا قبائلها عن قوس واحدة، بعدد لم تشهده حرب فى جزيرتنا قط، ومحمد يعدنا أرض الروم؟!

قطع سيل أفكارهم، ونظراتهم؛ صوت رسول الله ﷺ

«الله أكبر... أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا، أخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم فأبشروا بالنصر»

بشارة نبوية أخرى

نظرات الريبة تزداد حدة، ويتواصل حوار العيون من جديد؛

أي مدائن يعني؟!

أويقصد مدائن كسرى ؟

هل غرَّ هؤلاء دينهم لهذه الدرجة؟

كسرى!!

أنى لنا بكسرى، وقيصر؛ ونحن لا نعلم ماذا يفعل بنا العرب غدا، أو بعد غد؟!

انقطع سيل الأفكار، وتمزقت خيوط الظنون من جديد، حين تعالت البشارة النبوية يجللها التكبير: «أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»

واليمن أيضا ؟؟!!

إن هذا لشيء عُجاب!

هكذا تسارعت الأفكار لرءوس المنافقين المظلمة، حملتها أعناقهم المتربصة ولسان حالهم الذي لم يلبث إلا أن صار لسان مقالهم

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾

خفافيش ظلام تكره النور، وتنفر من السرور الذي فاض من حروف الرسول ﷺ، إلى قلوب الصادقين المُصّدِقين

ألمجرد كلمات قالها نبيكم مثل هذا الأثر البالغ على قلوبكم أيها المصدقون؟!

أم أنها العقيدة أنتم بها موقنون، والنصر المبين أنتم له منتظرون؟

هذا هو الفارق الجوهري بين من هم بموعود ربهم مؤمنون و بين المنافقين الذين لا يصدقون إلا مصلحتهم الآنية

أما الأولون فلا يضيرهم رهق الخوف، ولا تنال منهم شدة الجوع، ولا يؤذيهم نقصان أمنهم؛ فإن جنانهم، وبساتينهم في صدورهم، في ظلال يقينها يرفلون، ومن ثمار صدقها يقطفون،

وأما الآخرون فأسرى لخوفهم، يَصلون لهيب جبنهم وخورهم، ويتقلبون في جحيم حقدهم وشكهم، ويبحثون فقط عن حسابات مصلحتهم

إنه الفارق بين من شعاره حين يرى جحافل الكفر قد احتشدت، و أحزابه قد تمالأت: ﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا** ﴾ ،

و بين من لا ينقطع عن التشكيك ناعقا: ﴿ **مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا** ﴾

إن هذا الزلزال الشديد، الذى تعرضت له المدينة فى هذه الغزوة، كان كافيا لتتكشف الفوارق، و يحدث التمايز،

كان كفيلا ليظهر من يعبد الله على حرف، و ما إن يأتى البلاء حتى ينكص على عقبيه، و يظن بالله الظنونا،

فما إن جاءت الأحزاب، و اصطفت قريش و غطفان وفزارة و أشجع و مرة بجنودهم، حتى دارت أعين فى محاجرها، كالذى يغشى عليه من الموت

أعين المنافقين

أولئك الخوارين الذين لا يصلون صفا و لا يسدون ثغرا

لا تجد منهم إلا التخذيل، و لا ينال المؤمنين من ألسنتهم الحداد إلا التخويف، و الإثقال والتعويق، و لا يأتون البأس إلا قليلا،

نداؤهم حينئذ

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ ﴾

يثرب!

و ما يثرب ؟!

ذلك الاسم الذي له وقع غريب على الأذن، وصدى عتيق في القلب، يذكر بأيام الشرك والظلام؛

يثرب!

ألم يندثر هذا الاسم ويزل ذكره عن الألسنة؟

ألم يُنس هذا الاسم؛ وقد أبدلهم الله خيرًا منه، لما جاءهم الحبيب، فأنار من مدينتهم كل شيء، وصارت يثرب هي مدينة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؟

منذ ذلك الحين صار اسمها المدينة النبوية وطيبة وطابة وطائب، وغير ذلك من الأسماء الحسنة التي امتن الله بها على مدينتهم

فلماذا العودة إلي مثل هذا الاسم، الذي ارتبط في أذهان الجميع بعهود الشرك والضلال؟

إنه ترسيخ لمعنى الهزيمة ورجوع الأمور إلى ما كانت عليه بإعادة بعث للاسم والمصطلح القديم ومدلولاته ذات المغزى المعلوم

تلميح إلى أن الأمر قد انتهى وأن الوضع القائم قد تغير وعاد لما كان عليه من قبل

لقد ظنوا أن تكالب الأحزاب واستئسادهم ورمى العرب للمؤمنين عن قوس واحدة، سيجعل الزمن يعود إلى الوراء، فينصرم الأمر، وينتهي الخير، وينفض الخلق

سوَّلت لهم أنفسهم أن يتخيلوا أن فتح الله للمدينة وإكرامها بنور الوحى، الذي أضاء جنباتها وقلوب أهلها، كان حلمًا جميلًا، سيستيقظ منه المؤمنون على أصواتهم القبيحة، وهي تؤذى أسماعهم بتلك الكلمات المثبطة؟

توقعوا أن إرجافهم وتشكيكهم سيفُت في عضد المؤمنين، أو يزعزع ثقتهم، أو يقوض عزائمهم؟

فهل استجاب المؤمنون؟

الجواب: لا.

لقد ظل الأمل في نفوسهم ولم تغادرهم الثقة بوعد الله واليقين فيه وما زادتهم رؤية الأحزاب وتمالؤها إلا إيمانًا وتسليمًا وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله

ومن هنا ثبتوا

ثم انتصروا

لما لم يفقدوا الأمل وتنهزم نفوسهم ولم يقولوا بلسان الحال أو المقال: يثرب

لم يرضخوا لفكرة أن الأمر انتهى والواقع قد فرض

بل هو ما وعدهم الله ورسوله وإن أرجف المرجفون وبدل المبدلون والمغيرون

ومن هنا يأتي النصر

وبضده يأتي الانكسار وتتحقق الهزيمة

فما الانكسار إلا انكسار الإرادة

وما الهزيمة إلا هزيمة النفس

وما الوهن إلا ضعف قلب امتلأ بحب الدنيا والتعلق بها والفزع من كل صيحة يحسبها المرجف عليه

وكل ذلك لا يتسرب إلا تحت ستار من دخان التحريف والتدليس والتلبيس يتقن المنافقون نسجه

أولئك الأشحة على الخير الذين لا ينفكون في لحظات البلاء عن الإرجاف و التعويق، ولا يملكون حين البأس إلا إعراضا وانسحابا وفرارا

تماما كما فعل ابن سلول يوم أحد حين تراجع في اللحظات الحرجة بثلث جيش المسلمين

ومثلها حين تعذر المعذرون وقعد القاعدون يوم النفير لغزوة العسرة

غزوة تبوك

دوما يفتضح أمر المنافق في تلك اللحظات

البلاء

الاختبار

البذل

التضحية

كلمات لا يفقهها المنافق

بل لا يطيقها

لا يتحملها

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [سورة محمد ٢٠]

مرة أخرى يأتي اللفظ القرآني معهم ليفضح مرض قلوبهم

لفظ «رأيت»

ستراهم

ستشاهدهم

ستعرفهم

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ ﴾

إنها الرؤية من جديد

سترى نفس النظرات الزائغة

ستعرف الشح والخوف والخذلان

ثم ستدهشك الخسة بعد ذلك

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب ١٩]

وكل ذلك عند المحك العظيم الذي نتحدث عنه

محك البلاء الذي ينبغي أن تقابله تضحية وبذل ويحدوه صبر ويقين لا يعرفه المنافق ولا يفهم شيئا عنه

وأنّى له أن يفعل وهو لا يفقه إلا مصلحته ولا يؤمن إلا بهواه ولا يعبد إلا إلها واحدا لا يعرف غيره

نفسه..

ومن العلامات المهمة أيضا تلك التي تظهر عند التعامل مع النبي ﷺ

إن الشخص السوي يدرك حقيقة كونه لا محالة سيخطيء وسيزل أحيانا

الشخص السوي يفهم عموم وصف النبي ﷺ لابن آدم بالخطّاء وبالتالي يعرف قيمة الاستغفار وأهميته

تخيل لو أن هذا الشخص عُرض عليه أن يستغفر له أحد الصالحين ممن يُرتجى إجابة دعائهم

بل تخيل أن يكون العرض = استغفار من لا يُرَد دعاؤه

أن يكون استغفار نبي!

بل خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين

استغفار النبي محمد صلى الله عليه

أظن أن هذا الشخص الذي يدرك حقيقة أخطائه وبالتالي مدى احتياجه للاستغفار عموما واستغفار النبي ﷺ خصوصا = أظن أنه سيجد هذا العرض باستغفار النبي له فرصة لا تعوض ولا يمكن رفضها

فماذا لو رفضها؟!

وماذا لو أنه لم يكتف بالرفض بل أساء الأدب في مقابلة هذا العرض الكريم فلوّى رأسه متعجرفا، وصدَّ متعجرفا وأعرض ونأى بجانبه؟

هكذا كان رد فعل المنافقين تجاه هذه الفرصة وفي مقابلة هذا الكرم

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ المنافقون ٥

إنها علامة أخرى فاضحة ومحك فاصل يتكرر معه نفس اللفظ الرؤية..

سترى رد فعل المنافق وستعرفه حين يقابل أي شيء يمت للنبي بصلة

في حياته عُرض عليهم هذا العرض السخي بتمامه

وبعد وفاته يظل العرض قائما بمقتضياته

في حياته كان مستعدا أن يقبل اعتذاركم ويرحب بعودتكم بل ويطلب لكم المغفرة من مولاه

وبعد وفاته دونكم سنته وسبيله وبين يديكم إرثه وتركته من سار عليها وقبلها واقتفى أثرها واتبعها = نجى وأفلح واستحق شفاعته الأخروية وإن لم يدرك استغفاره الدنيوي

لكن الإجابة كانت دوما من ذلك الصنف واحدة..

الإعراض والصد والاستكبار

رفض كل ما له صلة بالنبي ﷺ

بل والتطاول عليه وإيذاؤه

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة ٦١]

يؤذون من؟

يؤذون من يهديهم بإذن ربهم إلى صرط مستقيم

يؤذون من يشفق عليهم ويريد لهم الخير ويود أن يستغفر لهم بعد أن قبل أعذارهم وأذن لهم

يؤذونه ويتطاولون عليه ويبلغ بهم انحطاطهم ألا يكتفوا بالإعراض عن استغفاره ورفض كرمه وحرصه؛ بل يقابلوا كل ذلك بالمزيد من الصلف والسفه

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[المنافقون ٨]

نعم والله لا يعلمون

لا يعرفون مقامه ولا يوقرونه ولا يقدرونه حق قدره حيا وميتا

حتى أن الأمر بلغ بهم أن يتخطوا مرحلة القول ويصلوا إلى الفعل المباشر لدرجة أن يحاولوا اغتياله!

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

فقد أظهروا الكفر بالقول، وهموا بشر ما يغري به من الفعل

وهو الفتك برسول الله ﷺ وقد أظهره الله على ذلك، وأنبأه

بأنهم سينكرونه إذا سألهم عنه، ويحلفون على إنكارهم ليصدقوا

قال المفسرون: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ يعني المنافقين من محاولة قتل النبي ليلة العقبة في غزوة تبوك وكانوا اثني عشر رجلًا

وقال الرازي: «المراد إطباقهم على الفتك بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم والله تعالى أخبر رسوله بذلك حتى احترز عنهم ولم يصلوا إلى مقصودهم»

تلك وربي من أظهر البينات الكاشفة لهم

علاقتهم بالنبي

وبسنة النبي

والسبب واضح جلي

إنه حامل الرسالة

وإن سنته لهي تفاصيلها وأجزاؤها ولبنات بنائها

وهم في قرارة أنفسهم أعداء تلك الرسالة بمجملها وتفصيلها وبالتالي لا يطيقون خضوعا لحاملها ولا يحملون توقيرا له

ولا لرسالته

لذا لم يقبلوا حتى أن يستغفر لهم لأن مجرد قبولهم ذلك يعني اعترافا بمقامه وخضوعا لقيمته

والمنافق لا يقبل ذلك الاعتراف وإن ادعى خلافه فإن عداوته للنبي ولسنة النبي لابد ستظهر في النهاية وسيُعرف بها ويفتضح بكلام يدل عليها

وسيُرى بآثارها كما وعد ربنا..

والمنافق شخص شحيح

مخلوق شديد البخل قابض يده ممسك عن أي بذل متقاعس عن أي خير

ولقد تكرر في كتاب الله ذكر شح المنافقين وتقررت من خلال ذلك التكرار حقيقة بخلهم وإمساكهم عن أي خير ونفع للناس

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾

﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ ﴾

﴿ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾

وغيرها من الآيات التي ترسخ لهذه الحقيقة النفاقية

حقيقة البخل

هذا البخل الذي يرجع أصله إلى حرصهم المعروف على دنياهم وعاجل أمرهم التي ذكرنا مرارا أنها عقيدتهم الأصلية التي يتحركون فقط بناءً على قواعدها

عقيدة المصلحة الشخصية

هذه المصلحة قد تتعارض ظاهرا مع نقصان المال الذي يترتب

على الإنفاق والبذل وبالتالي يكون الشح هو الخيار الأول للمنافق للحفاظ على مصالحه الآنية

لكن ثمة مقصد آخر لهذا الشح

مقصد عام يعد من أهم الأهداف التي يسعى إليها المنافقون

مقصد التفريق وفض جمع المسلمين

حتى ينفضوا..

كانت هذه هي العلة التي أوضح المنافقون أن امتناعهم عن الإنفاق على من عند رسول الله كان لأجلها

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾

هكذا قالوها بكل صراحة وبينوا حقيقة مسعاهم

أن ينفض الناس من حول النبي ﷺ

أن ينفض الخلق من حول من يجمعهم

من حول دينهم وشرعتهم

من حول مبادئهم وأخلاقهم

أن يتفرق الشمل وينفرط العقد ويتشقق البنيان بأي ثمن

حتى لو كان هذا الثمن أن يقترف المنافقون حسنة هم لها كارهون = فإنهم سيدفعونه عن طيب خاطر فقط لكي يتم التفريق وشق صف المؤمنين

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة ١٠٧]

مسجد!

بيت من بيوت الله

مكان لطاعة لا يأتونها إلا وهم كسالى

محل لذكر لا يفعلونه إلا قليلا إن فعلوه أصلا

لا بأس... سيتغاضى المنفقون عن كل ذلك وسيتغافلون بإرادتهم لأجل تحقيق الهدف الذي يسعون إليه

التفريق

لقد بين الخالق جل وعلا ذلك المسعى وأوضح أن المقصد الرئيسي لهم هو بث الفرقة بين المؤمنين والدس والوقيعة وإشعال نار الفتنه واستغلال الخلافات وتوسيع شقته وذلك بالدس والوقيعة فيما بينهم

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ التوبة ٤٧

قال القرطبي: «الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف».

قال الرازي: «والخبال: الشر والفساد من كل شيء، ومنه سمي العَتَه بالخَبَل، والمعنى ما زادكم إلا شرًّا.

وقيل الخبال: الاضطراب في الرأي. وذلك بتزيين أمرٍ لقومٍ وتقبيحهِ لقومٍ آخرين، ليختلفوا وتفترق كلمتهم»

هذا هو الهدف

الاختلاف

الفرقة

التباعد

حتى ينفضوا..

لذلك ليس غريبا أن تعوذ النبي ﷺ من النفاق كان يأتي مقترنا بمقصد المنافقين وغايتهم

الشقاق

وقد صح عنه ﷺ أن كان من دعائه: «وأعوذ بك من الشقاق والنفاق»

وكأن الشقاق والنفاق هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة

وكأن كل ما أدى لهذا الشقاق ورسخ لذلك التفريق والانفضاض = أسعد المنافقين وحقق شيئا من مبتغاهم ومرادهم

وعلى العكس؛ كل ما قوَّى تقارب المسلمين وجمع على الحق كلمتهم ووحد صفهم كأنهم بنيان مرصوص = أغاظ المنافقين وكبتهم وأفشل كيدهم

وحينئذ لا يشكل بخلهم فارقا ولا تؤثر دعواتهم المانعة من

الإنفاق والتكافل بين المؤمنين وذلك حين تترسخ القاعدة التي ختمت بها الآية الاي فضحت ذلك المقصد وبينت غاية شحهم وهدف بخلهم

حين تترسخ قاعدة

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

دائما لا يفقهون

والمنافق ليس محبا للفاحشة وحسب

إنه محب لشيوعها بين الناس

وتلك من أهم الأمارات والعلامات

قضيته ليست مجرد شهوة كمثل المؤمن العاصي الذي ضعف أمام غريزة وغلبه هوى وهو يقر بذلك الضعف ويتمنى أن ينتصر عليه يوما

الأمر مع المنافق مختلف تماما

إنه ليس فاسدا وحسب

إنه مفسد

هو في هذا الباب إيجابي جدا رسالته الإفساد وقضيته إشاعة الباطل وخطاياه متعدية وليست قاصرة عليه وحسب

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

هكذا جزم القرآن بحقيقتهم

ومن تمام الإفساد أن تكون الفواحش سهلة المنال يسيرة الوقوع عادية الأثر

لكن لماذا؟

لماذا يهتم المنافق بشيوع الفاحشة بهذا الشكل؟!

الإجابة ببساطة ستعيدك مرة أخرى لأصل الداء ومكمن المرض

ستعيدك إلى عقيدة المنافق التي سبق أن تحدثنا عنها

عقيدة المصلحة

إن مصلحة المنافق هي إلهه الوحيد

هي المحرك الذي يقوده يمنة أو يسرة

وحين تشيع الفاحشة فلن يكون وحده

سيكون الأمر أهون وسيصير الوصول إلى الشهوات واللذات أيسر وستكون الخبائث أقرب

وهاهنا مصلحته

وقد يكون لدى بعض المنافقين بقايا ضمير لم تمت بعد فمثل هذا يحب أن تشيع الفاحشة كي يرضى عن نفسه ويسكن بقايا ذلك الضمير

يحب أن تشيع الفاحشة لكي يقول لنفسه ها قد عمت البلوى وكل الناس مثلي ولست بدعا من الفساق

وربما كان يحبها لأسباب تآمرية أخرى مع شياطينه الذين يخلو بهم

المهم أن غايته كقدوته وهدفه مثل هدف إمامه حين غوى وعصى فقال ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

إنه رد فعل نفسي في أصله يميل فيه الساقط لئلا يكون وحيدًا في تلك الدركات التي يعلم بينه وبين نفسه أنها دركات

فلماذا يهوي فيها وحده؟

لسان حاله فليسقطوا معي جميعًا وليهووا كما هويت ولا أحد أحسن من أحد

لذلك فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

ولأن ذنبهم لم يعد قاصرًا وصاروا متعدين مفسدين لغيرهم ولأن من علامات الإيمان محبة الخير للغير كما يحبه المرء لنفسه بينما هؤلاء المفسدون يحبون الشر للناس ويدلونهم عليه فإن ذلك دل على نقصان إيمانهم وانعدام ضميرهم فاستحقوا لأجل ذلك العذاب في الدنيا والآخرة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لأجل هذا كان التغليظ الشديد على قاذف المحصنات

لأجل ذلك كان زجره وردعه لدرجة أن يكون حده قريبا من حد

الزناة أنفسهم بل وتسقط شهادته ويسمى فاسقًا ويلعن في الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

إن المتأمل في عقوبة القاذف دون أن ينظر إلى مآلات فعله على المجتمع ربما يراه فقط كذب أو تفحش في الكلام لذا قد يستعظم تلك العقوبة

لكن إذا أرجع البصر كرة أخرى إلى مجتمع يتهاون مع القاذفين فتتفشى فيه الفاحشة وتصير هينة على الألسنة والصدور لغير رأيه لا محالة

فلانة عاهرة

فلان ساقط

علانة زنت مع علان

وترتانة ترافق ترتان

تخيل مجتمعًا تنتشر فيه أمثال تلك العبارات التي لا يجد الناس حرجًا من تردادها دون عقوبة تردعهم وترهيب أخروي يزجرهم

تخيل هوان الفاحشة على الناس في مجتمع مثل هذا الذي يصير فيه القذف والرمي بالعهر نوعًا من الهزل والمزاح

تخيل كم الأذى والفضائح السهلة لأي أسرة تقع في مشكلة مع أخرى أو بين المختلفين أو حتى الأعداء فتصير الأعراض كلئا مباحًا يفعل به قليلو الورع ما شاءوا وينال منه الفجار ليلًا ونهارًا

تخيل ذلك وتذكر ما حدث في مدينة النبي ﷺ حين تولى عبد الله بن أبي بن سلول كبره وقذف عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بكلمة قد تبدو يسيرة هينة لكنها أقامت المدينة شهرا وكان الإفك المبين الذي تلقاه البعض بألسنتهم ورددوا مع من ردد وكادت أن تستعر الفتنة

والأصل كان منافقا واحدا وقذفة واحدة

لكنها عند الله عظيمة

لذا كان لا بد من ردع هؤلاء بشكل حاسم بحد قوي زاجر وبترهيب أخروي حازم قاصم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾

لكن كل هذا الترهيب لم يمنع وجود هؤلاء المفسدين ولم يقلل حبهم لتلك الآفة

لم يقلل حبهم لشيوع الفاحشة

ببساطة لأنهم كما بينت الحقيقة القرآنية التي يصرون على نفيها وادعاء ضدها

حقيقة أنهم هم المفسدون

ولكن لا يشعرون

وأحيانا يكون النفاق عقوبة

هو بلا شك أمر شنيع يستحق العقوبة إن لم يرزق المنافق توبة

لكنه أيضا في ذاته عقوبة لمن تهاون في التعامل معه واستهتر بمسبباته والعوامل المؤدية لوجوده = فأعقب نفاقا في قلبه

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

هكذا كان زعمهم..

وكذلك ادعوا وكذبوا في دعواهم وكان فعلهم فاضحا لذلك الكذب

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

بخلوا وتولوا وأعرضوا ونقضوا عهدهم

ومع من كان ذلك العهد الذي غُدر؟!

مع الله..

وعلى من كان الكذب؟!

على الله..

ومن الذي تمت خيانته؟!

إنه الله

فما كانت العقوبة العاجلة إلا انطباق الوصف الذي استعجلته خصالهم ثم ترسخ حقيقة ذلك الوصف في قلوبهم

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾

جزاءً وفاقا بما فعلوه ابتداءً

﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

تأمل محل النفاق

في قلوبهم

والمنافق في الحقيقة ذو قلب أجرب!

قلب يريحه ما يؤذي الشخص السليم و يتلذذ بما طبعه أن يؤلم ويضر

في حالات الجرب الحاد يقوم المريض بحك جلده بشدة وقد لا يرتاح حتى يُدمي هذا الجلد ويقرحه

ولو صح جلده لآلمته تلك الحكة العنيفة الدامية

لكنه المرض

وما أقبح المرض إن كان فى القلب!

ببساطة قلب المنافق = قلب أجرب

قلب يريحه تمزيقه بالفجور ويسعده إدماءه بالعصيان

المنافق لديه مشكلة حقيقية في فهمه وهذه المشكلة متصلة بشكل وثيق بمشكلة الطمس على قلبه وانتكاس فطرته

من أهم أعراض تلك المشكلة = انقلاب موازينه واختلال معاييره

مرض حقيقي يغير من طبيعته ومن طبيعة الأشياء في نظره

مرض أسميه جرب القلب

وهذا المرض معدٍ جدا

بل إن المنافق يحرص على نقله لغيره قاصدا

يحرص على أن يكون انقلاب المعايير الذي لديه = عاما يشمل مجتمعه كله

وبداية انهيار أي تجمع بشري تكون بتصدع القيم وانقلاب الموازين واختلال المعايير

والأمر لا يحدث بغتة ولا تنقلب تلك المعايير بين عشية وضحاها

قد يستغرق ذلك وقتا كبيرا والانهيار يسبقه تصدعات وتشققات في جدر تلك القيم والمبادىء ثم تتسع تلك الشقوق تدريجيا حتى تصير النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها ثم ينكس الجدار وبعد حين ينقلب بناء القيم رأسا على عقب

إن الطريق من كون الخطأ خطئا إلى كونه أمرا طبيعيا أو عاديا بل ومستحسنا مستحبا ليس طريقا قصيرا أو سريعا لكنه يمر بدروب التوارث ومسالك التطبيع التدريجي مع ذلك الخطأ

ولقد ظهر ذلك جليا في آية من سورة الأعراف حيث سبق وصف القوم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وتمت شرعنته وتسويغه بل وتزيينه

ربما تطلب الأمر عقودا طويلة وأجيالا تلو أجيال حتى صار الخطأ في النهاية دينا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾

هنا كان لابد من البيان القاطع ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

إن التطبيع والتصالح مع الخطأ وتوارثه الأعمى قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة

أن تتحول الفاحشة إلى شيء جميل مستحسن ثم إلى طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة

يصير المبدأ بعد حين بصورة أو بأخرى هو أخرجوهم من قريتكم

لماذا؟

ماذا فعلوا؟

ما الجرم الذي اقترفوه؟!

ما الخطيئة التي تلبسوا بها؟!

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

هكذا فقط؟!

يتطهرون!!

تلك هي مشكلتهم وهذه هي جريمتهم وذاك وحسب هو ما يُنقم عليهم

ذلك هو المناط وتلك هي الحقيقة الواقعية المؤلمة

حقيقة أن انقلاب المعايير وتحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق لابد أن يؤدي لهذه النتيجة في النهاية

لا بد أن يؤدي إلى إخراج آل لوط من القرية

ومن كل قرية يُخَوَّن فيها الأمين ويُؤتَمَن فيها الخائن ويُكَذَّب فيها الصادق ويُصَدَّق فيها الكاذب وينطق الرويبضة

والبداية تكمن في ذلك الخلل الذي تنقلب به الأمور رأسا على عقب

خلل الفهم

وخلل المشاعر

حتى الحزن والفرح يرتبطان بذلك الفهم

في الحديث «المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيئته»

ذلكم المؤمن

أما المنافق فله شأن آخر تماما

تسعده الموبقات وتفرحه الخطايا والسقطات وتتحفه الذنوب والسيئات

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾

بهذا فرح المنافقون

ولهذا ضحكوا ولم يبكوا!

تخلفهم عن التضحية

تقاعسهم عن البذل

قعودهم عن الطاعة

لكن هل هذه حقا أسباب فرح؟!

أوهكذا يتفاوت ميزان الفرح والحزن وتتباين معايير الضحك و البكاء

هي كذلك لدى المنافق الذي انقلبت لديه الأصول واختلت المعايير

لكن الأجدر بهم والأولى كان العكس تماما

كان الأولى بهم البكاء على فوات الطاعة والحزن على التقصير

هكذا قال ربنا:

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

ضد ذلك هو ما فعلوه

تأمل حالتهم المعكوسة في مقابل المؤمنين الطبيعيين

المؤمنين الصادقين

أولئك الذين أقبلوا على النبي ﷺ مشفقين وجلين وقد سمعوا أنه لن يخرج إلا من كان له دابة يركبها وظهر يسافر عليه هذا السفر الرهيب.

دخلوا على النبي ﷺ خائفين أن يردهم عن أسمى أمانيهم التي يتوقون إليها

ها هم يطلبون منه الظهر الذي يسافرون عليه مجاهدين في سبيل الله، لكن الجواب جاء علي غير ما يرغبون

لقد قال رسول الله ﷺ الكلمة التي لم يكن لأعينهم وقلوبهم الصافية طاقة بها،

﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾

نزلت الكلمة على قلوبهم شديدة، وقد تزلزل كيان قد بلغ به الصدق مبلغه، كان قد تجهز لإحدى الحسنيين، فلما فوجئ أنه لن يتمكن اليوم من نيل هذا الشرف؛ تجمع كل سيل هذا الصدق والإخلاص والشوق، وصعد فياضًا إلى المآقى، ليتفجر أنهارًا من دموع الأسف؛ حارة، تخالط حرارتها نكهة الصدق وطعم الإيمان.

لقد رجع الصادقون المشتاقون، وأعينهم تفيض من الدمع، حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

شتان شتان بين سلوكهم، وبين سلوك من سبقهم من المعذرين

هؤلاء حزانى على حرمان الطاعة وأولئك يطربون ويفرحون للخلاص منها،

هؤلاء صادقون نالوا أجر كل مسير يسار، وكل واد يقطع، بصدقهم وإخلاصهم،

وأولئك أعقبوا نفاقًا في قلوبهم، بكذبهم وإخلافهم وعدهم مع ربهم

والأدهى من كل ذلك؛ والأغرب من مجرد تفويتهم طاعة ربهم = فرحهم بذلك البوار والحرمان العظيم!

فمن ضحك لتخاذل و انبطاح، إلى بكاء لفوات بذل و تضحية و عطاء، و ما بين هذا و ذاك تتباين قلوب الناس

ترى..

بأى شىء تفرح قلوبنا، و على أى شىء تتتحسر ؟

من أى شىء تضحك، و على أى شىء تبكى ؟؟

أيبكيها ما يُبكى الصادقين، أم يضحكها ما يضحك المسرفين ؟!

هنا المحك ومربط الفرس

هنا المعيار والمسبار والمجس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

شتان بين هؤلاء الصادقين بنياتهم مشفوعة بهممهم العالية، وإقدامهم المبكر الأمين، وحزنهم العميق علي فوات أسباب العمل الصالح عليهم، وبين أولئك المعذرين بتباطئهم وتكاسلهم الذي انبثق عن صريح نفاقهم، والذى ربما أسعدهم سعادة عارضة منقوصة لا يلبث أن أن يعقبها ندم العمر وخسران الدهر.

لكنه الجرب

جرب القلب

قلب المنافق

لكن ثمة أسئلة تطرح نفسها حول كيفية بدء الأمر

هل وُلد المنافق منافقا؟!

هل المنافق هو شخص قرر ذات يوم أنه سيكون كذلك؟!

هل المنافق دوما شخص متآمر كثيف الحاجبين مخيف الهيئة يجلس في الظل مع رفقائه دربه وزملائه في تنظيم النفاق العالمي ليضعوا الخطط التي يؤذون بها المؤمنين؟!

هل يشترط أصلا أن يعلم المنافق أنه منافق؟!

هذه الأسئلة وما كان على شاكلتها إذا أجيبت بشكل صحيح ومباشر قد تغير من تلك الصورة النمطية التي تجعل البعض دوما في حالة من الشعور المريح بالأمن من النفاق وفي الوقت نفسه تجعلهم على درجة من درجات السذاجة في تصورهم عن طبيعة الصراع بين الإيمان والنفاق

ذلك الصراع الذي يعد ميدانه الأهم = نفس كل منا

والإجابة البسيطة المباشرة عن كل تلك الأسئلة التي سبقت = لا

لا يشترط شيء من ذلك كله

لا يشترط أن ينتبه المرء فجأة من رقدته ليجد نفسه قد صار بين عشية وضحاها منافقا خالصا

ولا يفترض أيضا بكل منافق فاحش النفاق أنه كان كذلك منذ البداية

بلا شك سيوجد دوما من نافق ابتداء لغرض في نفسه التي لم تخالطها بشاشة الإيمان قط

لكن هذا ليس الأصل

ثمة نفاق آخر

نفاق كسبي

منحدر طويل قد يحتاج المرء لأعوام لكي يبلغ قعره

والمنافق هو صاحب قرار التدحرج فيه ابتداءً

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

ها هو أول المنحدر يبدو جليا لكل من يريد الحذر

فتنة..

ثم تربص

ثم ريبة

ثم قعر من الاغترار والغرور

والعامل المشترك بين كل ذلك = هُم

هُم من اختاروا أولا

هُم من قرروا

هُم من فتنوا أنفسهم

هُم من تربصوا وارتابوا

وهُم من غرتهم الأماني والتهمتهم أنياب الدنيا ليرفضوا النور وليوصدوا كل السبل التي قد يصل إليهم من خلالها

لكن لكل شيء بداية

وهم من اختاروا تلك البداية

وقد تكون هذه البداية المؤدية السقوط في منحدر النفاق = مجرد غفلة عابرة

بعض التقصير المحدود أو بوادر قسوة قلبية تم تجاهلها أو الاستخفاف بها

«نافق حنظلةُ»

كان هذا هو وصف تلك الحالة والذي اختاره الصحابي حنظلة بن عامر ﵁ ليعبر به عن ذلك التغير الذي لمسه في قلبه

تعجب سيدنا الصديق أبو بكر ﵁ حين سمع ذلك التشخيص من حنظلة فرد قائلا: سبحان اللهِ! ما تقول؟

فكانت الإجابة معبرة بدقة عن تلك الأعراض التي وصل حنظلة من خلال ملاحظتها لهذا التشخيص:

نكون عند رسولِ اللهِ ﷺ. يُذكِّرنا بالنار والجنةِ حتى كأنا رأيَ عَينٍ

فإذا خرجنا من عند رسولِ اللهِ ﷺ، عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ فنسِينا كثيرًا

يتحدث هنا حنظلة عن تفاوت

عن تغير وتباين في حال القلب عند معاملة الدنيا ومفراداتها

عن غفلة عارضة ونسيان عابر

قال الصديق أبو بكرٍ: فواللهِ إنا لنلقى مثل هذا

اعتراف صادق من صاحب رسول الله وخليفته وأحد أقرب الخلق إليه

إنا لنلقى مثل هذا

وما من مؤمن إلا ويلقى مثل هذا

لكن الفارق بين هؤلاء الكرام ممن ثبتهم الله على الحق وبين من سلك منحدر النفاق حتى دركه الأسفل = أن الثابتين لم يتجاهلوا

ولم يستسلموا لما طرأ عليهم

لقد التمسا العلاج وحاولا تبين صحة التشخيص وكان ذلك من خلال المسارعة لطلبه ممن يستطيعه

من النبي ﷺ

انطلق الصديق وحنظلة إلى رسول الله ﷺ يسألانه عن ذلك التغير والتفاوت الذي لاحظاه فكانت الإجابة: «والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكر، لصافحتْكم الملائكةُ على فُرشِكم وفي طرقِكم ولكن، يا حنظلةُ! ساعةٌ وساعةٌ

ساعةٌ وساعةٌ

ساعةٌ وساعةٌ»

هكذا كررها رسول الله ﷺ ثلاثا لتستقر في الأذهان ولتفهم عنه تؤثر

إن ظل الأمر على ذلك فلا بأس

لكن الخطر كل الخطر أن تطغى ساعة الدنيا ومشاغلها وشهواتها وهمومها على الساعة الأخرى

ساعة القلب الحقيقية

حين يحدث ذلك تدريجيا تبدأ شعلة الهمة في التخافت حتى تخبو وتنهمر كتل الران على القلب حتى تصنع جدارا سميكا صلبا يحول بين المرء وقلبه

عندئذ يصير الكسل عن الطاعة هو الأصل بينما تصبح المسارعة إلى غيرها هي السمة والحال

العبادات والقربات تتحول تدريجيا إلى عادات تخلو من الروح وتثقل جدا مع الوقت حتى تنتزع منها أهم خواصها وتصير مجرد حركات وترانيم بلا حياة ثم ربما تترك بالكلية في نهاية الأمر

وحتى إن تم أداؤها فإنه يكون أداء لواجب ثقيل بلا أي روح

يكون أداء لما سماه النبي ﷺ صل

لكنها صلاة مختلفة

صلاة المنافق

تلكَ صلاةُ المُنافقِ

تِلكَ صلاةُالمُنافقِ

تِلكَ صلاةُ المُنافقِ

هكذا حذر النبي ﷺ ثلاثا

ثم وصف تلك الصلاة التي نسبها للمنافق قائلا:

يجلِسُ يرقب الشَّمسَ، حتَّى إذا كانت بينَ قرني الشَّيطانِ، قامَ فنقر أربعًا لا يذكرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا

هذه إذًا صلاة المنافقين

مجرد نقر كنقر الديكة لا يفقهون شيئا من معانيه ولا يطرق أبواب قلوبهم الموصدة

إنهم ببساطة لا يصلون صلاة حقيقية ولكنهم كما بينت الآية:

﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء ١٤٢]

ومن قبل ذلك في الآية نفسها ستجد التكاسل والتباطؤ

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾

وفي آية أخرى ستجد الاستثناء المنفي الذي يفيد القصر والحصر يبين لك أنها الصفة الرئيسية لصلاتهم

﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ ﴾

كسل رهيب

تثاقل وتماوت

ثم يعقبه الترك

قد يكون تركا للصلاة بالكلية وقد يكون تركا لشيء من خصائصها كشهود جماعتها

قال رسول الله ﷺ: «ليس صلاةٌ أثقَلَ على المُنافِقين من الفَجرِ والعِشاءِ، ولو يَعلمون ما فيهما لأتَوهُما ولو حَبوًا» صحيح البخاري

ويقول سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب: «كنَّا إذا فقَدْنا الإنسانَ في صلاةِ الصُّبحِ والعِشاءِ أسَأْنا به الظَّنَّ» يقصد النفاق

وعن صلاة الجماعة أيضا يتحدث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: ولقد رأيتُنا وما يتخلَّفُ عنها إلا منافقٌ، معلومُ النفاقِ

هذا عن نظرتهم لتارك الجماعة

فكيف بتارك الصلاة نفسها؟!

ولا يمتنع المنافق عن الصلاة أو يتكاسل عنها وحسب

بل ستجد تكاسله أيضا وتباعده عن سائر الطاعات خصوصا تلك التي تستلزم بذلا وتضحية ومن أوضحها الإنفاق

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة ٥٤]

من جديد يبرز القصر والحصر واضحا في الاستثناء المنفي

إنهم إن حدث وأنفقوا مضطرين = فلا يكون ذلك إلا على مضض وبكل عنت وتأفف

لا يطيقون العطاء ولا يحبون البذل وما ذلك إلا لسببين رئيسين

قلة الدافع

وقوة الصارف

أما قلة الدافع فأصلها تلك الغفلة التي استسلموا لها والنسيان الذي استمرأوه

قال الله عنهم:

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة ٦٧]

إن أعظم الدوافع التي تعين الإنسان على الطاعة وتوجهه إليها = معرفة الله وذكر صفاته وتأمل نعمه وآلائه والرغبة فيما عنده عاجلا وآجلا

والمنافقون كما أوضحت الآية ينسون كل ذلك

بل يتناسوه

ولقد تقدم أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا

من هنا يقل الدافع ويكاد ينعدم

ومن هنا يكون قبض اليد والشح الذي يميزهم

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب ١٩]

السبب الثاني لامتناعهم عن الإقدام على الخير هو قوة الصارف

ويتمثل ذلك الصارف في كلمة واحدة

الدنيا

المنافق لا يرى إلا الدنيا ولا يريد إلا العاجلة ولا يبصر إلا تحت قدميه

والإنفاق والإقدام على أي خير والبذل والعطاء كل ذلك ظاهره في حسابات الماديين المتعجلين = نقص في الدنيا

والمنافق لا يطيق ذلك في حق حبيبته الوحيدة وعشقه الأعظم

دنياه

مرجواته فيها

محبوباته تملؤها

مخاوفه منتهاها إليها

ماله... جاهه... منصبه... ولده... شهوته... راحته... أسرته

كل شيء له محله هنا

في الدنيا وحدها

لذا كان صارفه عن العمل والبذل قويا قادرا على منعه عن أي خير يقبل عليه

ولذا ربط حنظلة في الحديث المتقدم بين تلك الغفلة التي لاحظها في نفسه وبين مخالطة الدنيا ومفرداتها من مال أو زوجة أو ولد فقال: فإذا خرجنا من عند رسولِ اللهِ ﷺ عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ فنسِينا كثيرًا

هذا الارتباط بين مفردات الدنيا وشهواتها ومحبوباتها ومرجواتها ومخاوفها وبين الغفلة والنسيان المؤدي بعد ذلك للسقوط في منحدر النفاق = ينبغي أن يكون دوما ماثلا أمام الأعين الحريصة على نجاة أصحابها

لا ليعادوا تلك الدنيا ومفرداتها بإطلاق

ولكن فقط ليحذروا وينتبهوا وليعلموا أن من تلك المفردات ما لو تم التغافل عنه لصار حرفيا عدوا مهلكا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

[سورة التغابن]

من هنا تظهر الحكمة في تلك الخاتمة التي اختارها الله سبحانه لتكون التوجيهات الأخيرة في السورة التي حملت اسم المنافقين

سورة المنافقون

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

هاهنا بيان للصارف وللدافع

أما الصارف فالإلهاء بالأموال والأولاد

وأما الدافع فهو ذكر الله

فكأن الرسالة الختامية بعد بيان صفات المنافقين في السورة وأهم أقوالهم وأفعالهم = كيفية الابتعاد عن هذا المصير

ببساطة ألا تصرفكم الصوارف عن دوافع العمل

ألا تلهكم الدنيا عن الذكر وألا تنسيكم الشواغل ربكم وما عنده

وألا تغفلوا عن النهاية

عن الموت وما بعده

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

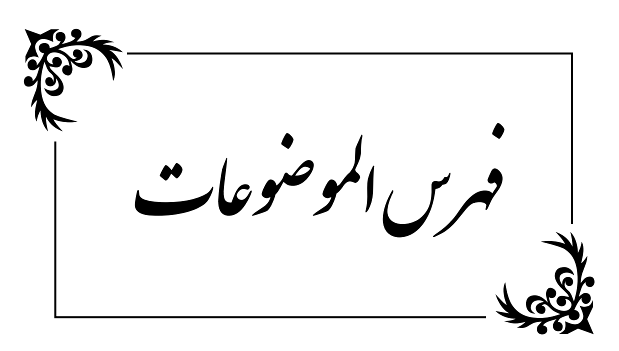
هكذا ختمت السورة بالتذكير بالموت والأجل الذي لا يؤخر

وبالتذكير بالله الخبير بما نعمل

وهذا العمل هو الحاجز الذي يحول بين المرء وبين السقوط في ذلك المنحدر البشع

منحدر النفاق





فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

